
rayane maohob
أملُ القاتِل
رواية
ريان موهوب
رواياتي
Rwaiaty.com



أمل القاتل

نوع العمل : رواية

أسم العمل : أمل القاتل

أسم المؤلف : ريان موهوب

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي : سمير محرز

الناشر : رواياتي للنشر الإلكتروني

الطبعة : الأولي 2019

رقم الإيداع : 152/2019

عدد الصفحات : 384

زوروا موقعنا من الرابط التالي :-

www.rwaiaty.com

و تفضلوا بزيارة جروب الفيس بوك الخاص بنا جروب رواياتي

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

https://www.facebook.com/groups/Rwaiaty/

كما يمكنكم متابعتنا ومراسلاتنا علي الصفحة الرسمية علي الفيس بوك

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

https://www.facebook.com/Rwaiaty.Rwaiaty/


رواياتي
Rwaiaty.com

أملُ القاتِل

ريان موهوب

رواية

إهداء

عندما كان يقدّم أحد المتصلين في برنامج ما قائمة الأسماء التي يهديها تحياته، كان يسألني: "لماذا دائما الأم هي الأولى على رأس القائمة؟ ولا أحد يبدأ بالأب"

اليوم أتتني فرصة لأهدي شيئا ولكني سأهديك تحياتي أبي الغالي، ليتها تصلك.

أما هذا الكتاب فأهديه إلى أمي، لأنها تلاحق أحلامي أكثر مني، وتؤمن بقدراتي سرا وجهرا.

ريان موهوب


روايتي
Rwaiaty.com



مقدمة

كان مشهدا مروّعًا، كيف سأحمل هذا الطفل على النّسيان؟ وأنا لست أمه ولست أما بعد، لا أتقن الحنان التلقائي ولا الحب الذي اعتاد عليه، هو صغير جدًا ليفهم، وليستوعب ما حدث معه ومعي؟ وأنا كيف سأنسى؟

يومها لم يكن يجدر بي مغادرة المنزل، بل البقاء والاستلقاء هناك، منتظرة دوري ربّما. كنت أطوق أخي بذراعي، وأحضنه إلى صدري حتى لا يخاف، كان من واجبي حمايته، ألست أخته الكبرى؟

ألحّ عليّ والدي بالعدول عن رأيي، لكني لم أفكّر كنت مصممة على موقفي. قلت لوالدي أثناء ملاحقتي له حين عودته من العمل:

- أرجوك أبي لليلة فقط. دعني أبيت عند كريمة وفي الصباح الباكر ستلقاني عندك.

لقد بدا منهكا، وهو ينزع عن قميصه ربطة عنقه ويفك أزراره. يمشي باتجاه المطبخ بعدما ألقى حقيبة يده في الرواق، وهذا أمر لطالما كرهته زوجته جميلة، ما دفعها أن تحملها وتلاحقه بدورها وفي وجهها بعضا من الاستياء من طريقة إهماله لتعليماتها وعدم الاكتراث لغضبها.

ريثما ننهي الجدال القائم حول موضوعي، كان عليها انتظار دورها كالعادة، لذا اتخذت مقعدا وفكّها على كفّها متكئة بمرفقها على الطاولة.

فتح أبي الثلاجة واستخرج منها قارورة ماء وطلب كأسا ليشرب أثناء غلقه لعينيه.

بنفاذ صبر قلت:

- هيّا أبي، لقد كنت فتاة مطيعة طوال السنة، لم أتعبك أبدا. نقاطي جيّدة ولم يشتكي أحد مني، كما إني أفعل ما تقوله دون نقاش، لم لا تدعني هذه المرّة أفعل أمرا أريده أنا؟

سألتني جميلة:

- ما الخطب آسي؟

يناديني الجميع بـ (آسي)؛ لأن اسمي ثقيل بعض الشيء، من يمكنه أن يناديني بـ (أسيرم) طوال الوقت؟

حينها أجبتها على عجل، لعل بعض الدعم يأتيني منها:

- طلبت منه إذن المبيت الليلة عند كريمة، وها هو لا يجيب. تعلمين ماذا يعني هذا، لا أجد سبيلا لإقناعه.

ثم أشرت إليه رافعة يدي:

- هو لن يأذن لي.

نسيت جميلة أمر الحقيبة، وقالت في محاولة لمساندتي:

- وماذا في ذلك بدر الدين؟ لم تمنعها من المبيت لدى صديقتها؟

أعاد القارورة إلى الثلاجة وأغلق الباب، وبعدها استدار إلي قائلا:

- تعلمين أنّي لا أحب فكرة نومك خارج المنزل يا عزيزتي، أخشى أن يحدث أي مكروه لك.

- برأيك ماذا سيحصل لي إذا بتت عند كريمة؟ ستأتي لتأخذني مع والدتها إلى البيت مباشرة أعدك. كل ما أريده هو تمضية بعض الوقت معها، والتحدّث في أمور تخصّنا بما أنها مسافرة إلى خارج الوطن لتكمل دراستها، وحده الله يعلم متى نلتقي ثانية.

صمتّ لبعض الوقت، ورأيت بعض التردد في عينيه:

- هيّا والدي العزيز. ماذا قلت في هذا؟

ذبّلت عيناي. أحنيت رأسي قليلا وابتسمت وأنا أردد:

- أرجوك.. أرجوك.. أرجوك.. أرجوك.

اقتربت منه عندما لاحظت وشوكه على القبول، وعانقته ثم قبلته على خدّه قائلة:

- يا أبي الحنون، لا تدعني أترجاك أكثر، اقبل وأفرحني.

ابتسم لي ورد القبلة على خدّي هو الثاني مجيبًا:

- حسنا افرحي.

كانت فرصة لا تفوّت لغمره بعدد لا يحصى من القبل والأحضان ملؤها الامتنان، وقد استوقفتني كلمات أبي المرفقة بنظرة تساورها الشكوك وخوف وجدية لم أحسب لها حسابا:

- عديني أن تعتني بنفسك وأن تكوني بمستوى المسؤولية التي أنا بصدد أن أمنحك إياها، لا تخذليني عزيزتي. كما أني لا أريدك أن تتسكّعي ليلا أتفهمين، لا تعلمين ما قد يحدث.

- أبي!

أجبته وقد راودني إحساس مرير لم أفهم نوعه ولا مأتاه:

_لا تبالغ أبي، لم كلّ هذا الخوف؟ ليست إلا ليلة وأرجع إلى البيت.

وجدت عينيه مليئتين بالدموع، وبصوت حاول جاهدا تثبيته قال:

- وهل لديّ غيرك وأخاك حتى لا أخشى عليكما، أنتما تساويان الدنيا عندي.

احتجت جميلة بطبعها الخفيف اللطيف، وروحها المرحة:

- وماذا عنّي؟

اقترب منها، أرجع شعرها للوراء قائلا:

- أنت حبيبتي وروحي ورفيقة الدرب، أنت من سيظل معي حين يكبر الأولاد ويكوّنون حياتهم ويرحلون.

تدخّلت مازحة:

- لا تقلق، أنا لن أرحل عنكم لذا يمكنك الاستغناء عنها يا أبي.

- هكذا إذن أيتها الشيطانة، تحرّضينه على هجري؟

بدأت أضحك..

- دعك من الأمر جميلة، أبي يعلم أنه لن يجد امرأة مثلك، لذا هو لن يأخذ كلامي على محمل الجد. كان امتنان جميلة يظهر بقوة على محياها.

قال أبي تعزيزا لكلامي:

- وهي محقّة.

- حسنا. سأتصل إذن بكريمة لتحضر وتأخذني.

كنت سأخرج حين استوقفني صوت والدي وهو يقول:

- آسي، مثلما أخبرتك، اعتني بنفسك.

حاولت درأ تلك الحرقة التي استقرت بقلبي دون أن أستوعب فعلا سبب سيطرتها علي ، بينما أبتسم في وجهه. منظر سيظل عالقا بذهني إن كنت سأعيش طويلا.

كان لا يزال أمامي الاستعداد وتوضيب أغراضي التي سأصحبها معي، وأثناء انتظاري لرفيقتي ارتأيت ضرورة إمضاء ما تبقى من الوقت برفقة أخي يوغورتا، الشقي وجدته منهمكا في مشاهدة الرسوم المتحركة. من المستحيل مراقبته دون أن تفلت مني ابتسامة، محاولة منعها فقط تعد إثما، خصوصا

عندما يحني رأسه بشعره الطويل الأسود، فهو يشبه أمه كثيرا، أسمر بغمازتين لطيفتين.

جلست بالقرب منه سائلة:

- ماذا فعل "سبونج بوب" اليوم؟ ألا يزال يحضّر الفطائر؟.

- لا. إنه في عطلة، وهو يصطاد القناديل مع بسيط، أختي.

صمت قليلا، لأشير برأسي متسائلة، ثم تابع:

- أين يسكن سبونج بوب؟

ضحكت لهذا السؤال الغريب، لكني حاولت التصرّف بجدية أكثر فأجبت:

- أعتقد في بحر أمريكا، فكما تعلم هو يعيش في البحر.

- آه.. وهل يمكنه الخروج منه؟

- ربّما.

جلست إلى جانبه وربّتت على ظهره ثم تابعت قائلة:

- يمكنه أن يضع تلك الخوذة الزجاجية على رأسه قبل أن يخرج، مثلما يفعل حين يزور ساندي في بيتها.

- حقا؟ إذن سأدعوه ليبيت معنا ذات يوم، وأجعله ينام فوق سريري ونلعب معا حتى وقت متأخر.

ثم أخذ يحسب بيديه ليتمم:

- حتى الثامنة.

وهو يريني أربعة أصابع فقط.

_حتى الثامنة! هذا كثير. حتى "سبونج بوب" لن يعجبه الأمر فهو ينام باكرا كما تعلم.

نهضت من مكاني:

- حسنا، أنا ذاهبة الآن، تمنى لي ليلة سعيدة.

- إلى أين؟ ألن نلعب الغمّيضة؟

- ليس اليوم حبيبي. سأبيت عند كريمة الليلة، غدا إن شاء الله حين أعود نلعب معا، موافق؟

- حاضر، موافق.

حين هممت بالرحيل استوقفني:

- آسي.

عندما استدرت تابع:

- هل يمكنني مرافقتك؟

- لا عزيزي، ليس اليوم، كما أنّك بحاجة إلى أمّك حين تستفيق ليلا، هل تريد أن تأتي معي حتى لا تجد أمّك عندما تبحث عنها؟

- لا، لا أريد.

إن الرابط الذي يجمعنا جميعا والذي يجعل علاقتنا تفوق قوة أية علاقة أخرى، هو يوغورتا، ملاك مرسل من السماء يبعث البهجة في البيت. ولد بمرض في قلبه قيل لنا سيشفى مع الوقت ومشكلته تتضاءل حتى تختفي تماما، ومع ذلك رافقنا الخوف عليه. لذلك استحوذ أخي على كثير من الاهتمام بالإضافة إلى الطاقة. علاجه كلّفنا الكثير حتى أن والدي فكر مؤخرا بجدية في بيع الفيلا التي نعيش فيها ولكن ذلك لم يتم لأنه بيت الورثة، يشترك فيه أبي مع أخواته البنات، واللاتي عارضن الأمر بشدّة.

داخل هذه الأبواب الموصدة نشأت قصة عجيبة، وتزداد غرابة مع مرور الوقت. الحب والتناغم نشأ بيني وبين جميلة يوم أنقذت يوغورتا قبل سنتين إثر أزمة تعرض لها، عندما توقف عن التنفس، فمن أجله تعلمت الإسعافات الأولية. تزوّجها والدي قبل ستة أعوام وكنا على وفاق عفوي حتى نقلتنا هذه الحادثة إلى أقوى وأكثر من ذلك بكثير.

إن السيدة نوال والدة كريمة امرأة تغيب الشمس وسط النهار ولا تغيب ضحكتها، تسعى لفرض جو رائق للجميع، وسقف مبتغاها أن يستمتع الضيوف برفقتها، لذلك شعرت بالحرج قليلا عندما رديت اقتراحها بأخذنا في نزهة بالسيارة، وطبعا تفهمت بصدر رحب عندما شرحت لها أسبابي.

الألوان المتدرّجة بسلاسة فنية في بيتهم لطالما أبهرتني، كأنه متحف إذ يحوي أثاثا تعود إلى حقبة ما قبل الاستعمار، وألواح لكبار الرسامين تملأ الأروقة بطولها. قيل لي أنهم من سلالة تعود أصولها إلى العثمانيين، كما ينحدرون من عائلة أرستوقراطية، يفسّر هذا الكثير من الأمور حسب رأيي. أتجوّل في بيتهم بسجيتي مسلحة بشيء من الفضول، وفي كل مرة هناك

غرض لم ألاحظه من قبل أمتّع بسؤالي عنه السيد عثمان، فقد كان شرحه لتفاصيلها ينم عن معرفة وخبرة واسعة في هذه الأمور.

لاحقا اختليت وكريمة في غرفتها، وقد كانت حركاتها الغريبة وهي تلف حول نفسها وأشيائها، دون أي وجهة محددة يفضح ارتباكها، كان من الواضح أن شيئا ما يهز راحة بالها، ولم تلبث حتى صرّحت بمكنون قلبها عند أول سؤال طرحته. وكانت المسألة تخصّ سفرها وحبها المدفون في باطنها، والذي ينازل الظلام ليخرج إلى النور، كانت ترفض رغبة أهلها في إرسالها إلى إنجلترا للدراسة، لأنها تحبّ صديقنا مراد.

مراد نفسه الذي حاول التقرّب مني قبل سنة ورفضته، تساءلت ما إن كان من الصواب إخبارها بالموضوع، وفي الأخير استقر قراري على الامتناع عن ذلك. كان حديثا طويلا مشبعا بالتنبيه من جهتي والأمل من جهتها، لذلك لعبت دور الصديقة الصامتة في غالب الأوقات حتى لا أجرح مشاعرها، ستعلمها الأيام إن كانت على صواب.

بدأت أشعر بالملل في مرحلة ما. كريمة وإن كانت ناعمة ورقيقة كما تكون العادة مع الفتيات الأنيقات، وتستهويها أحاديث العشق وقصص العاشقين، كانت مستعدّة لإيقاف الموضوع من أجلي، لكيلا أندم على قدومي، وللحق، لو استمرت على حديثها كنت فعلت. من هنا انطلقنا في سيرة أخي يوغورتا ورعاية أمه الشديدة له التي تمنعه من تكوين ذكريات طفولة.

كان لديهم جهاز "ستيريوّ حديث، صوته قوي يجول ربوع الأحياء المجاورة جميعها. بحماسة وليدة اللحظة شغّلنا الموسيقى، لتتراقص أجزاء أجسادنا في إيقاع متفرق، فبينما تهتز الأكتاف في اتجاه، تختلف توجهات الأرداف.

كنت أرقص على أنغام الموت وأنا غافلة عن الجريمة، بينما أهلي يرقصون آخر رقصة.

كطفلتين تستغلان غياب الأولياء، لعبنا بمساحيق التجميل وتبديل فساتين السهرة المشكّلة بمختلف ألوانها ومقاساتها. كانت قطع في غاية الجمال. ولم تخلُ سهرتنا من عروض أزياء وبقايا أحلام طفولية رافقتنا إلى سن الرشد. حتى نال منا التعب من الجنون المقصود. أما باقي السهرة فقضيناها مع عماد أخ كريمة عند المسبح نغرقه ونبلله بالماء حتى ضاق السيد عثمان ذرعا من صراخنا المزعج عند منتصف الليل، فأمرنا بالهدوء، كان ذلك كفيلا بإدخالنا إلى الفراش في وقت أبكر بكثير مما خططنا له.

أويت إلى النوم بعد أن انسحب ضجيجنا في غياهب الليل، وإنما منعني ضيق شديد في صدري من إغلاق جفنيّ، أبقتني وساوسي مستيقظة حتى نال منّي التعب ومضيت مجبرة في نوم عميق.

٦

كدت أختنق من الهلع عندما أيقظني رنين هاتفي، وسط سكينة الليل التي تحوّلت في لحظة إلى كابوس. شعرت بانقباض في بطني، فلا خير يأتي من اتصال هاتفي بعد الثانية صباحا. عبثا حاولت التماسك، فقد مرّت ألف فكرة على ذهني ولا واحدة منها مطمئنة، وتساءلت في نفسي: أي شمعات قلبي انطفأت؟ من منهم قبلت وداعا؟

كنت في حالة من الاضطراب لم يسبق لي أن غصت فيها قبلا، استحال الوضع إلى فوضى تفوق قدرتي على التحمل. قلت ربّما وهم أعيشه، لكن الهاتف ظل يرنّ قربي فجعلت يدي تتحرّك ببطء أملا في أن يكون أحدهم قد أخطأ وتخيب شكوكي.

بدا الزمن يمرّ ثقيلا عندما أجبت على الاتصال الوارد من هاتف أبي. قوبلت بالصمت، الأمر الذي ضاعف خوفي إلى أن كدت أجنّ. من هذا الذي يقبض لسانه عن النطق واختار أن يرميني وسط لهيب لاسع بدلا من إنهاء عذابي.

بين هذه الفكرة وتلك، استوعبت في خضم وحشية وقسوة اللحظة تنفس عميق متسارع عبر الخط، بدا لي وكأنه ليوغورتا. تأكّدت شكوكي عندما ناديته وانطلق في البكاء.

أكلت الدهشة عقلي، فبقي قلبي وحده يحرّك لساني وأفعالي، فجعلت أقول:

- يوغورتا واش بك خويا؟ قل لي تعيش.. واش صرا؟

بدا وكأنه في حالة صدمة منعته من التحدّث إليّ. لست أدري كيف حملتني قدماي عن سريري، ولا كيف تصرّفت لأشعل النور. هذه التفاصيل ظلت ضبابية أمام ذكرياتي، وكأنني كنت غائبة وحاضرة في الوقت ذاته. كل هذا والهاتف ملتصق بأذني، أنادي باسم أخي وأرقص مبعثرة بين ملابسي والمكالمة.

- حبيبي اسمعني، أنا قادمة، لا تقفل الخط.

كانت العشوائية سيدة الموقف، فقد بقيت هائمة بين أربع جدران، من أين أبدأ وماذا أفعل، لم أكن حتى متأكدة أن ما كنت أعيشه واقعا. شغلت مكبّر الصوت لأطمئن أخي، بينما أغير ثيابي على عجل. الوضع كان جنونيا. كاد يغشى عليّ حينما رفض الباب أن يفتح، والأصوات في الجهة الأخرى تتعالى دون المقدرة على التفرقة بينهم. أصرخ فقط مطالبة بفتح الباب. كدت أموت كمدا عندما تعالى صراخ يوغورتا تزامنا مع ارتفاع صوتي، لابد أني وترته وزدت من خوفه، لهذا آثرت الصمت في انتظار فك أسري. لماذا لا ينتبه أبي وجميلة لصراخه؟ لماذا يستعين بي وهما هناك؟

وفي أوّل محاولة للسيدة نوال فتح الباب، كانت الهمهمات تتعالى والخطى تتزايد، عندما دلفت خارجا بوجه مشلول من تعابير الإنس. كانت أسئلتهم تتبعني في خطواتي المسرعة نحو دولاب الأحذية. ألبسها في عجالة في عملية تهديم العقبات واحدة تلوى الأخرى التي تبعدني عن أخي. كلماتي المبعثرة وضّحت شيئا مما كنت أعانيه وما أقلقني، لذلك اقترح السيد عثمان أن يقلّني بنفسه، أعربت عن استحالة انتظار دقيقة بعد فإن أخي في حالة فزع شديدة، عدا ذلك قلبي ينفطر. أجبرته نوعا ما على الخروج بثياب النوم. صعب عليّ حتى انتظاره ليلبس حذاءا أو حتى إخراج سيارته من المرأب،

فاندفعت مسرعة إلى الشارع لاختصار المسافات، كانت رجلاي ضعيفتان تهتزان بفعل الخوف، وما شعرت بنفسي إلى وأنا أقع أرضا. دون إبداء أي اهتمام لتلك الجروح حملت نفسي ولكن هاتفي تحول إلى قطع متفرقة على الطريق الخالي ما زاد من همّي، أما عدّتي الوحيدة التي أصارع بها الموت داخلي هو الأمل. فما لبثت إلى قليلا حتى توقفت عندي سيارة السيد عثمان، فلم أهتم للم شتات الهاتف بقدر ما كنت في توق للحاق بأخي. ركبت داخل السيارة وانطلقنا على عجل.

سيطر الصمت علينا بينما كنا نعبر تلك الأزقة الموحشة ليلا، رغم الإنارة المكثفة والطرق المعبدة بأفخم ما يمكن للشارع أن يبلّط ويزين به. كان الوقت لا يمضي والشوارع طويلة لا تنتهي، ودقات قلبي متسارعة لا تهدأ. كل هذه العوائق كانت تحول بيني وبين يوغورتا، ولكن تمنيت فيما بعد لو أني لم أبصر يوما حتى لا أرى ما سيحدث، أو أني لم أولد حتى.

استغرقت بضع ثوان لأستوعب أني ماثلة في وجه بيتنا، وكم بدا شاحبا وضبابيا. ضاعت مني فتحة المفتاح كأن عقلي لم يعد مرتبطا بأي جزء من أجزاء جسدي وفقد القدرة على التحكم فيها. عندما اهتديت أخيرا إلى فتحها قوبلت بجو كئيب وصمت رهيب. نظرت إلى السيد عثمان نظرة المتوسلة، فما كان منه إلا أن يقترب في حركة مشجّعة للدّخول.

شغلت نور المنزل بأكمله، بينما أنادي أبي بأعلى صوتي، ولم أشعر به إلا وهو يتضاءل خائبا من رد السكون.

قال لي في صوت يغمره الشك:

- أين ينام والديك يا ابنتي؟ دعينا نصعد إلى حجرتهم.

كان اليأس قد تربّع على عرش قلبي، عندما قدته في استسلام تام للقنوط إلى الطابق العلوي، حيث ظهرت أخيرا أبواب الغرف مفتوحة كلها على مصرعيها، وهو أمر لا يحصل نهائيا في بيتنا. وقفنا في البهو نتبادل الأنظار أنا والسيد عثمان، وكأننا اتفقنا لندخل بخطى متثاقلة إلى حجرة أبي، وأول ما لفت انتباهي هو قطرات الدم على الأرض والتي أجبرتني على الوقوف عندها لوهلة.

في نفس اللحظة، قال السيد عثمان مصدوما:

- يا ربي، لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا رب الطف، يا رب الطف.

أجبرتني تلك الكلمات على إلقاء نظرة شاملة حولي، كان والدي ملقى على السرير غارقا في دمه، تأوهت مما حل بروح روحي. كاد يغشى عليّ من الصراخ ولم تعد لأقدامي القدرة على حملي أكثر، فجثوت مجبرة أرضا. ببعض من القوة التي بقيت عندي، وقفت مكسورة الظهر، غائبة الوعي، خطوت بخطوات ثقيلة نحو أبي، بينما كان السيد عثمان يتصل بالشرطة يعلمهم بمكان الحادث. وكان في نفس الوقت يحذرني من الاقتراب من موقع الجريمة، يظنني بذلك البرود حتى أهتم بالقوانين، وكأني لازلت موجودة حتى أهتم.

المأساة الثانية كنت على وشك أن أعيشها لحظات بعد ذلك، عندما وجدت جميلة جثة هامدة مطروحة وسط دمائها بالقرب من طاولة مكياجها. لم أعد أفرّق لحظتها بين الحقيقة والخيال، ما كان رد فعلي حقا وما الذي كان يحدث في مخيلتي فقط. أعتقد أني صرخت كثيرا حتى انقطعت أحبالي الصوتية، ومرات أذكر أني بقيت صامتة، جثة هامدة تماما مثلهم.

كان آخر ما أتوقعه هو أن أعيش واقعة مثل التي عشتها، لم أكن قد شهدت أمرا مماثلا في حياتي، حتى أفلام الرعب كنت أتفاداها، لهذه الدرجة كنت غير مستعدة فكيف شربت من هذه الكأس المريرة؟ شعرت في مرحلة ما بيد ترتعد من فداحة المشهد تخرجني برفق من الغرفة. حررت ذراعي بصعوبة منه وأسرعت عند أبي أناشد الأمن في حضنه، أحاول إيقاظه فلا يسمع، صدّقت أنه لم يمت وأنه نائم فقط، بقيت أكرر في نفسي، أنه بعد دقائق سيأتي الإسعاف وينجو، لأنه من المستحيل أن أفقد أبي. ثم أنتقل إلى جميلة التي تكره أن يتسخ فرشها، وها هي تلطخ بدمائها الأرض والسجادة.

ناديت جميلة مرارا باسمها، حتى قفز إلى ذهني أمر يوغورتا. لا أكاد أصبر لحظة واحدة وفي لمح البصر وجدتني مخضبة بدماء آدمية، توجّب علي مسحها على ثيابي. بقي لي بصيص من الأمل إذ إنه من اتصل بي، كذلك يتقن الاختباء، ما يعطيه فرصة البقاء على قيد الحياة خلاف أبي وجميلة.

كانت غرفته مثل باقي الغرف في فوضى عارمة، نكاد أنا والسيد عثمان نقع مع كل خطوة لصعوبة إيجاد مكان نضع فيه أقدامنا. لم يكن هناك أي أثر له، ولكني لا أشعر بالخزي إذا قلت أن هذا أراحني نوعا ما.

وفيما نحن نبحث تحت السرير وبين الأغراض، في لحظة تركيز صافية انتبهت إلى باب الخزانة المفتوح، فأقبلت بلهفة نحوها كأنها تحوي الماضي والحاضر والمستقبل، تحوي دليل حياتي كاملة. كانت خزانة واسعة يضع فيها ألعابه أيضا، أبعدت ما أمكن من أشياء ليتسع الموقع. في السقف الخشبي كان لديه مخبأ. في بادئ الأمر لم يظهر أية إشارة لوجوده على قيد الحياة، حتى بدا لي أنه تحرك وبسرعة قمت بإزاحة القطعة الخشبية التي تخفي الممر. كان منزويا في زاوية مظلمة، ذراعاه حول ركبتيه بنظرات تائهة

مشبعة بالخوف. ناديته برفق، فرفع عينيه ينظر بينما الهاتف لايزال على أذنه.

مرّت عاصفة هوجاء دمّرت في ليلة حياتنا بالكامل، نمت واستفقت، في رمشة عين، ضاع كل شيء. وكل شيء اختلط فيما بعد. كان هناك أشخاص يدخلون ويخرجون، وكأنما أنا في غيبوبة مبعثرة لا أذكر الشيء الكثير، إلا أني جلست وأخي على البلاط الخارجي للمنزل، أضمه بقوة إلى صدري نرتجف من البرد عند عتبة الباب. في مرحلة ما ناداني محقق الشرطة بعدما تكلم مع السيد عثمان ليطرح علي أسئلة شعرت من خلالها وكأني انقلبت من ضحية إلى متهمة، تتمحور كلها حول الدماء التي تغطي ثيابي، وعن سبب مبيتي خارجا ليلتها بالذات، حتى قصة هاتفي تحققوا منها للتأكّد من صحة أقوالي، بمعنى آخر هرب الجناة وراحوا يحققون مع ضحية من الضحايا. كنت أودعت خلال هذه الآونة يوغورتا أمانة عند جدّته وخالته.

كان نحيب فراح جدة يوغورتا وابنتها دليلة يملأ البيت، تشدان رأسهما وتلطمان أحيانا، وبينهما يوغورتا يبكي في مشهد تدمي له القلوب، عندما رآني كانت نظراته تستنجد مني، فلم أقو على الصبر، أخذته في غفلة منهما. إن الخيط الأول من نور الصباح قد ظهر عندما أخبرونا أن البيت مغلق قيد التحقيق، كما أن جثث أبي جميلة سيتم تشريحها. قبل ساعات فقط كانا يشاهدان التلفاز، من كان يعتقد أن هذا سيحصل؟ أما فقد سمحت للجميع أن يسيروا أموري حتى أستفيق من هذا الكابوس، كنت مقتنعة من أنه كذلك.

دعتنا السيدة فراح إلى بيتها وقبلت الدعوة، من أجل يوغورتا، الذي ظل منكمشا طوال الوقت بين ذراعيّ. ما دفعني آليا إلى رفض إصرار السيد عثمان

بالعودة معه. إن عائلة جميلة كانت مقاطعة لعائلتنا بسبب عدم رضاهم من زواجها بأبي، وكنتيجة يوغورتا لا يعرفهم بتاتا.

كانت الدموع تحرق خديّ التي أصبحت خشنة من كثر حكّها بقطعة القماش التي قدّمها لي أحد أفراد الشرطة. كنا في غرفة مستقلة عند مستضيفينا حين سمعت صرخة مدوية تأتي من الخارج، لحسن الحظ يوغورتا كان نائما، ومن أجل هذا أغلقت الباب وأنا أخرج برفق شديد. كان مغشى على السيدة فراح وابنتها تستنجد بالناس. أعدتها إلى وعيها بكوب من الماء خلطته بالسكر، ومباشرة بعد هذا نقلتها دليلة إلى المستشفى بعدما تركت لي مهمة إبلاغ عائلتها بالأمر، كأني الشخص المناسب للمهمة؟ ولكني وافقت على مضض.

بدأ المنزل يمتلئ بعائلة المرحومة جميلة، حتى أنا كان لديّ زوار، كريمة وأمها وقفتا إلى جانبي، شعرت أخيرا بحق الشكوى والبكاء بحرقة على البلاء الذي أصابني. فليس من الصعب أن نواجه الموت بقدر ما هو حارق مواجهة الفقدان. لأني لم أستطع ببساطة أن أسلم بالأمر الواقع.

في اليوم التالي تلقيت زيارة من المحقق الذي أبلغني عن استنتاجه الأولي، وما توصّل إليه، فعلى ما يبدو أظهرت إحدى كمرات المراقبة في حينا مجموعة من السارقين الملثمين يلجون عبر شرفة الصالون، كان الزجاج مكسورا. وحسب ما توصلوا إليه أيضا أن جميلة وأبي كانا نائمين فباغتوهم بتثبيتهم على الفراش وتم طعنهم بعشوائية. جميلة لم تمت على الفور، ليس قبل أن تنتقل إلى طاولة مكياجها وتكتب شيء في قصاصة ورق كانت ممسكة بها عندما توفيت، وكانت موجهة إليّ.

كتبت فيها: "أسيرم اعتني بيوغورتا، هو الآن ابنك"

من ضمن الأشياء التي أضيفت إلى ظهري إبلاغ عمّاتي بما حصل، وبالطبع كانت المكالمة أقل ما يقال عنها صعبة، حافلة بالبكاء وكلمات تعبر عن الندم من قبلهما. اقترحتا أن نرافقهما، وقد قدمتا فعلا لذلك، لكني لقيت رفضا من دليلة ودنيا أختي جميلة، وقد قررتا أن يصبح أخي موضوع نسيان لوالدتهما.

قلت في غضب:

- أخي سيرافقني حيث أذهب، لن تجعلا منه دواء لعلاج حزن أمكما.

نطقت دليلة بصوتها المبحوح:

- بأي حق تتكفلين بطفل لديه جدة هي الأحق بحضانته.

قلت:

- دم أختك لم يبرد بعد وها أنت تبحثين عن طريقة تستنفعين بها من الموضوع، أما ما تقولينه فمستحيل.

قاطعتنا عمتي رندة:

- لستم في وعيكم، والكلام يصدر منكم في حالة غضب وصدمة، وهذا ليس بالوقت المناسب لحل الأمر، دعونا الآن نهتم بالكارثة التي حلّت بنا.

أما عمتي زبيدة. بدت كما لو أنها استسلمت للصمت بانتظار أن تمرّ العاصفة، فهي قليلة الحديث. أجمعنا في الأخير دون الاتفاق فعلا على تأجيل الموضوع. مرّ يومان عندما استلمنا جميلة وأبي. كان أقسى مشهد

عندما أخذوهما في تلك الصناديق الخشبية، وهم يبتعدون في صورة مرعبة أصرخ فيها بشدة أسألهم الوداع، لا أحد يسمع صوتي الداخلي.

كنت ويوغورتا في غرفتنا مستلقيين على سرير مخصص لشخص واحد، حينما جاءت جدة يوغورتا وابنتها، وهي تقول:

- يا صغيريّ.. ماذا حل بكما؟

جلست إلى جانبي، وشرعت تقول وهي تبكي:

- الآن انفلتت يا ابنتي الأمور من بين أيدينا، كل شيء بيد الله. أما ما حصل بينك وبين بناتي فاعلمي أني لست موافقة عليه. إنه متعلق بك بشدة لن أكرر نفس غلطتي التي أخطأتها في حق أمه.

كنت سعيدة بكلامها المطمئن. سألتني لاحقا إن كنا سنعود إلى بيتنا. في الواقع لم أكن مستعدّة لذلك وكان شبه مستحيلا. ولهذا شعرت بخيبتها لعدم قدرتها على استضافتنا، ليس وهي تسكن في شقة بأربع غرف مع ابنها بعائلته ودليلة التي فاقت الأربعين من العمر غير متزوجة. ولحسن الحظ عرض كريمة بقي قائما عكس عمّاتي اللاتي نسين أمرنا بسهولة. المشكلة الأخرى التي ظهرت فيما بعد اكتشافي أن يوغورتا لم يعد بإمكانه التحدث، فقد صوته وحسب تقديري يكون شهد شيئا ما صدمه دون شك. من الآن فصاعدا يجب التعامل معه بذهنية جديدة، لم أكتشف خيوطها الأولى بعد، فقررت الاستعانة بطبيب نفسي. بعد مدّة من ترتيب الحقيبة البسيطة تلقيت زيارة من امرأة غريبة قريبة، أطول مدة قضيتها معها تسعة أشهر، لست أدري إن كان من حقها أن أناديها أمي، أم عبيدة فحسب؟ وقد اخترت منذ الأزل عبيدة. كنت مشوشة، متعبة، وغارقة في الأحزان. كنت باردة معها

إلى أبعد الحدود، ولو كنت في بيتي لطردتها بلا تردد، امرأة خانت الأمومة ، بدون خجل اقترحت أن أرافقها إلى حيها المقيت، تصرفت كأن لا شيء حدث، ومن دون تفكير رفضت.

أول مرة أسمع أن أمي خائنة كنت في الخامسة، إنّ نعتي بابنة الخائنة من قبل عمّتي بعدما ضربت ابنها ظل يعذّبني طوال حياتي. بعد هذا أصبحت زياراتي الإجبارية لها مرة كل شهر معاناة حقيقية. كبرت وقد استولى عليّ حقد كبير باتجاهها وكل ما يخصّها، كلما كررت عمّتي الأمر كلما زادت الفجوة بيني وبين أمي اتساعا. حتى في بيتها ولمدة طويلة أصبح باقي أفراد عائلتها يتوجسون من قدومي. أكبر مخاوفي في تلك المرحلة هو حيهم الشعبي الذي لا يخلو من الغرابة وتفرس الناس في القادمين الجدد. بالطبع تصرفاتي لم تكن ترضي والدي وقتها. عندما بلغت سن الرشد انتهى كل شيء وتوقفت الزيارات، وارتاح البال.



كم كثرت مواعيدي خلال الأسبوعين التاليين. كان عليّ استخراج وثائق كثيرة من أجل التأمين، من جهة أخرى أجري بأخي من طبيب إلى آخر ما جعلني أعوز الكثير من المال وبالتالي اضطررت إلى استلاف أموال من رفاقي وفي الأخير التخلي عن سلسلة ذهبية كنت ألبسها. من بين منافذي القليلة مراد، استنجدت به ليحرك الأمور في صالحي بسرعة فيما يخص التأمين، فقد قيل لي ممن سبقوني أنها إجراءات تأخذ الكثير من الوقت، وأنا بحاجة للمال، إلى جانب دفع المستحقات الصحية خجلت من استغلال طيبة رفيقتي وعائلتها لمدّة أطول. وفعلا خلال ثلاثة أسابيع تلقيت اتصالا مبشرا ببعض الخير من مراد أن كل شيء حلّ وأنه يمكنني استلام تأمين والدي على الفور.

بعدما قمت ببعض الإجراءات اللازمة استخرجتها وسددت بها بعضا من الديون أما الباقي فقسمته حسب الحاجة.

من غير مناسبة تذكر، استدعاني مراد للقائه، وبطبيعة الحال استغربت ذلك خصوصا وأنه رفض التصريح عن سبب اللقاء. اقترح عليّ أن يساعدني أكثر وأنه بمقدوره تسوية أمور تقاعد والدي بسرعة حتى أقبض عني وعن أخي، وقد سعدت لذلك سعادة قدر الحزن الذي خيم على حياتي، حتى لطمني في وجهي بعرض مقايضة تخليص حاجاتي بشرفي، كان وجها جديدا لم أعرفه من قبل، أكلت الواقعة لساني فما لبث قليلا إلا واقترب مني ممسكا ذراعي بنية جذبي. كنت في حوار مختلط يترجم التيه ترجمة كاملة في نفسي، أحاول بما بقي لي من عقل تفسير ما يحصل. نسيت أنه عندما تظل الفتاة وحيدة يظنها الرجال فريسة سهلة، تغدو كالغزالة وسط الذئاب، والأكثر إيلاما أني لم أحسبه يوما ذئبا، ومع ذلك علمني درسا لن أنساه. لم أشعر بنفسي إلى وكفي يلطم وجهه بقوة، وكم احتقرته؟

وكأن المآل الأسود الذي انتهيت إليه لا يكفي، حتى تضاف إلى كتفي أثقالا تثني ظهري مرارا. كان غضب كريمة جليا، وهي تدخل في وقت متأخر من الليل. تخبط الباب في وجهي بينما يتبعها أهلها في حيرة. انطلق يوغورتا في البكاء متشبثا بأطراف منامتي. أما وجهي فقد ذبل وسط الرياح التي لم تترك أمامي إلا الاستلام لها لتأخذني حيث تشاء، في انتظار قدري وما اختارته كريمة لي ليلتها.

صرخت في ثورة غضب:

- أخرجوها من بيتي، لا أريدها هنا بعد الآن.

سألتها أمها:

- من تقصدين بكلامك؟

أجابتها مشيرة إليّ:

- هذه، إما تخرج الآن أو لا أدري ما قد أقترفه في حقها.

ذبلت عيناي أكثر مما هي عليه:

- ماذا فعلت يا كريمة؟

- تسألين؟ يا لك من خبيثة، أدخلتك منزلي، وهكذا تردين الخير؟ تكذبين في وجهي بكل وقاحة وقد رأيتك بعيني مع مراد.

- تتهمينني بالباطل كريمة. أعلم أنك لن تصدّقيني لكن على الأقل لا تخرجيني برفقة طفل صغير إلى الشارع، ليس لي مكان أقصده.

تدخّل عماد تحت دهشة الباقين:

- لا تقلقي يا آسي، ستمكثين هنا مثلما يحلو لك، كما لن أسمح بخروجك ليلا.

قاطعته كريمة:

- الأمر بيني وبينها، فيا أبي إذا كنت توافقه الرأي أعلمني، لأني سأغادر أنا بدلا منها.

حينها نطقت والمرّ يتقطّر من وجهي:

- يكفي كريمة، إلى هذا حد وانتهي، لن ألحّ عليك لإبقائي، ولا أقبل أن تهان كرامتي أكثر. وبما أني راحلة لا محال فاعلمي أني لم أقترب من ذلك الخسيس الذي حاول شراء شرفي، والمبادئ عزيزتي لا تباع، فقبل أن أفكر بك يسبقك شرفي ومبادئي وكرامتي. اذهبي وابني مستقبلك بعيدا، فهو لا يستحق لا حبك ولا دموعك.

لم أستطع منع نفسي من التمسك بقراري مهما حاول عماد تغييره لاحقا، وفي الأخير أعطاني مفاتيح شقته الخاصة، حتى أوقفته بجملة بائسة منّي:

- وهل أنت أيضا ستطلب مقابل؟

لن أصف حجم الخزي الذي شعرت به فورما نطقت بهذه الكلمات. دفعت بعيدا اليد الوحيدة المقدمة لي. لاحقا أيقظت أخي من نومه العميق لأبدّل ثيابه، فغادرت محملة به وحقيبتنا المتواضعة وشعلة تكبر مع كل ضربة في صدري، دون أن آبه للسيدة نوال التي حاولت دعمي بمبلغ من المال.

وسط الظّلام الحالك كنت دون وجهة، تائهة لا أدري ماذا أفعل؟ قادتني قدماي إلى المكان الوحيد الذي أعرفه، بيتنا. قابلته لمدة بينما يوغورتا ينام على صدري بين ذراعي برجلين متدليتين، حتى أنا غلبني النعاس. كان المكان يطغي عليه جو من الكآبة. فقد انسحب في خطفة قدر ضجيج السعادة، واستبدله بغيمة ماطرة موحشة. وضعت الحقيبة عند عتبة الباب واتكأت مقابلة إياه بينما ينزلق ظهري ببطء حتى لامس أسفل ظهري الأرض. ما كنت لأدخل إلى ذلك المنزل ولو نمنا في الشارع، وهذا ما حصل.

عند الصباح الباكر فتحت جفنيّ على منظر أخي وهو يقف مقابلا إياي، يراقبني في صمت. غلبتني الدموع على الفور، حتى اقترب الرجل الصغير ليمسح بيديه ما أمكنه من دموع، ويرتمي أخيرا في حضني ليواسيني.

لم يظل أمامي خيار آخر بعد تفكير قصير إلا قصد المرأة الوحيدة التي ستكون مجبرة على رفع هذا الثقل معي.

قرفصت أمام أخي لأراه جيدا، لأشرح له ما سيحدث لاحقا. كان حيّهم على نقيض تام من حينا الراقي؛ حي شعبي تتعالى فيه أصوات مصدرها غير معلوم، ضحكات مدوية يترنّح على نغماتها الزقاق الضيق. كم هو غريب أن أرفض رفضا هستيريا مجرّد زيارة المكان وبقدمي وإرادتي قدمت إليها لأتوسل من الأعداء مأوى. كانت للزقاق رائحة غير مألوفة، تشبه رائحة زمن غابر، لابد أن الوقت توقف هناك، حتى المارّة لديهم أسلوبهم الخاص في المشي والنظر، وحتى أبسط الأمور العادية وجدتها مختلفة. شعرت بأساريري تتغير عاكسة عمق تأثري بالعالم الجديد الذي قذفت بداخله.

لم أعد أذكر منزل عبيدة بعد غياب زياراتي. ولحسن حظي أو لسوئه ربّما، لمحت مجموعة من الشباب، وسطهم شخص بدا لي أقل مكرا لوّحت له بإشارة حتى يقترب. سألته عن العنوان فدلني بنفسه إلى غاية عتبة الباب، اعتبره لطيفا آنذاك.

وقفت متهدّجة عند قطعة الخشب، أحاول استجماع بعض القوة حتى أطرق الباب، في الأخير عددت إلى ثلاثة وفعلتها. ولا أحد غير زوجها فتح الباب،

بوجه لا يخلو من الدهشة أو ربما الذعر الذي خلفته ورائي مع زياراتي الماضية.

هتفت قائلة في انفعال:

- عبيدة هنا؟

كان يبدو عليه التوتر وهو يجيب:

- إنها في الداخل تفضّلي أرجوك.

ناداها بينما أخطو وأخي خطوتين إلى الداخل. كم كان بيتهم صغيرا وضيقا، لم أفهم كيف وسعهم كلهم، نسيت كم يبدو قديما كأنه سيقع في أي وقت. الرواق لا يحتمل ثلاثة أشخاص في نفس الوقت. خرجت عبيدة مما يبدو أنها قاعة الضيوف بينما ترمقني بدهشة يتخللها الأمل، لذلك قررت وضع نقاط على الحروف. أوضحت لها أني سأظل لبعض الوقت وألا تتوقع مني معاملة غير التي اعتادت عليها. وافقت عليها كلها دون تردد، وعلى هذا الأساس سمحت لها أن تحمل عني حقيبتي وتدخلنا إلى القاعة نفسها، حيث كانت قابعة ابنتها الكبرى "عليا"، التي تصغرني بسنتين ولم نتفق يوما، ولأكون صادقة لم يعني لي وقتها الكثير أن تربطني بها أية علاقة كانت ولا سيما الأخوة. كانت هذه الأخيرة تظهر عليها أمارات الانزعاج. تغافلت عن استقبال ابنتها البارد، ورحت أجول بأنظاري الصالة، أبحث عن المكانين الذين اقترحتهما عبيدة عليّ في آخر زيارة لها. وبعد كلمة ترحيب بسيطة من زوج عبيدة نقلنا بأغراضنا القليلة إلى غرفة البنات، حيث تنام عليا ونجية الصغيرة، أما فاروق ابن السادسة عشر ربيعا لابد وأنه ينام في غرفة المعيشة، يا لها من حياة بائسة.

ليلتها أطعمت يوغورتا بسرعة في ذلك الجو المشحون بخليط مزعج من الأحاسيس، طمأنتني عبيدة أنهم أوصوا بسريرين سيحضران في اليوم الموالي، في انتظار ذلك أعطوني سرير الصغيرة، أما أخي ففرشوا له أرضا مع نجية، وبطبيعة الحال هو أمر مرفوض قطعا، فتقاسمت فراشي مع أخي.

في الليل وردني اتصال من عماد. كان لابد لعليا أن تظهر ولو بتأفف استياءها، كأنها تخبرني بطريقة ما أنها المسيطرة وأنها تراقب تحرّكاتي. وضعت الهاتف على درجة منخفضة من الصوت. انتقلت بهدوء إلى الشرفة لأطمئن عماد أننا بخير. راحت تدغدغني النسمات في وجهي وتنشّف العرق الذي تبللت به في الداخل، فهم لا يملكون مكيفا وتواجدي مع ثلاثة أشخاص آخرين في غرفة ضئيلة ساعد في تفاقم الوضع. كانت مكالمة تدبّرت أن لا تطول، ففيها أعرب عن ندم كريمة، لكني رفضت أي اقتراح مساعدة. بينما أنهي المكالمة لاحظت خيال جسم ضخم على السطح المقابل، بدا لي وكأنه يحدّق بي، دون خجل، وجدته جريئا.
سمعت يوغورتا يصرخ فأسرعت إلى الداخل لأجد الأختان قد استفاقتا، ثم نظرت إلي عليا من فوق إلى تحت وقالت:

- لا يمكنك الخروج بملابس نومك إلى الشرفة، خاصة إذا كانت رفيعة. هذا حي شعبي والناس يتحدّثون، أتفهمين؟

لم أجب عليها فقط اقتربت من يوغورتا وأخذت مكانا بقربه، مسحت على وجهه وأنا أقول:

- حبيبي، هل تريد أن أروي لك قصّة جميلة؟

أشعّ وجهه من ثم أومأ برأسه موافقا، لأبدأ مباشرة:

- هل سمعت يوما بالطفل ذي الشعر الأشعث الطويل؟

أجاب برأسه نفيا، واصلت:

- جميل إذن. في زمن بعيد جدا جدا، كان هناك فتى بمثل عمرك ولديه شعر أشعث طويل، كان أصحاب القرية كلّهم يسخرون منه لأنه لا يملك من يمشّط شعره ويقصّه، وذات يوم مرّ بقربه مجموعة من الأطفال وسخروا منه كالعادة، إلا أنه لم يحتمل وراح يبكي تحت ظلّ شجرة أعلى التلّة، وهو ينظر إلى تلك القرية الجميلة التي لم تضمّه يوما، لطالما اعتبره أهل القرية غريبا، لأن شعره أشعث وطويل عكسهم، وأثناء بكائه سمع صوتا يناديه من أعلى الشجرة: "يا صاحب الشعر الجميل، يا صاحب القلب الكبير، أتريد أن ترى شيئا؟" رفع عينيه وإذا بجنية جميلة صغيرة بيضاء تظهر بين الجذوع، فبرقت جوانب أهداب الطفل وابتسم. سألها: "ماذا تريد أن تريه؟" أجابت أنها تملك طريقة لتجعل أي شيء يتحقق إذا أعطاها بعضا من شعره فقد حل بقريتها الصغيرة مرض جعل تقريبا كل الجنيات تتوقفن عن الطيران وطلبت الساحرة منها أن تأتي بشعر من عند فتى أشعث، فابتسم الفتى وأعطاها الإذن بأن تفعل ذلك، قصّت من شعره ومن ثم سألته عن أمنيته، أتعلم ماذا طلب؟

هزّ يوغورتا رأسه نافيا معرفته، فأكملت بصوت غامض:

- طلب منها أن تأخذه إلى قرية الجنيات، فاقترحت أن تجعل بدلا من ذلك أهل قريته يحبونه وهكذا سيعيش سعيدا، ولكنّه رفض عرضها و ألحّ على طلبه، من ثم قبلت لكن سألته قبل ذلك عن سبب قراره، أجابها أن أهل قريته يعرفونه منذ بداية حياته على أنه داء وسيتذكّر كل شيء حتى لو أحبّوه بسبب السحر، أما قرية الجنيات فيعتبرونه دواء، فقامت بتصغير

حجمه وصنعت له جناحان وأخذته إلى قرية الجنيات، أنقذ كل الجنيات، هناك صار بطلا وأحبّه الجميع ثم عاش سعيدا إلى آخر الأيام.

سمعت نجية الصغيرة تقول حين أنهيت:

- واو، قصة رائعة.

سألت يوغورتا:

- وهل فهمت المغزى منها عزيزي؟

لكنّه لم يفهم.

قالت نجية بحماسة:

- أنا أعرف، لقد رفض العودة إلى قريته لأنهم لا يحبونه وقرر الذهاب مع الجنية لأنها جميلة ويمكنها تحقيق رغباته وأيضا يتقبّلونه.

حينها أجابتها عليا:

- إنها لا تسألك أنت يا غبية بل أخيها، كما أن المغزى من القصّة أنه عليك تغير نفسك ليحبّك الجميع، هلا نمت الآن يا غبية.

لحظتها استدرت إلى نجية وقلت:

- إذن فهمت أن المغزى من القصة هو التقبّل؟

فرحت كثيرا عندما أجبتها، فهي فتاة صغيرة ولم أرد إدخالها في متاهة الكبار.



لتسألني ثانية:

- **وهل حقا علينا أن نتغيّر حتى يحبّنا الآخرون مثلما قالت عليا؟**

- **لا، الفتى في القصة هل تغيّر فيه شيء؟**

هزت رأسها نافية، فواصلت:

- **لا، لم يتغيّر، بل زادته أمورا إضافية حتى يقدر أن يطير معهم، فحين يتقبّلك الناس لا يجعلونك تتغيّرين بل تتحسّن، هل فهمتني؟**

- **نعم، أعتقد ذلك.**

صمتت بعد الشيء ومن ثم سألتني:

- **هل لديك المزيد من هذه القصص؟**

بدت كأنها خائفة من أن تسألني أو خائفة مني ولم يكن ذلك من خططي، ابتسمت وأجبتها:

- **لديّ ما يكفي منها، أما الآن فقد تأخر الوقت، ناما.**



كان الوقت منتصف النهار عندما مررت من زقاق ضيق في طريقنا إلى موعد طبيب يوغورتا، كانت أول مرّة أتعرّض للسرقة في حياتي. الحقيبة مليئة بأموال صمّدتها للطبيب ووثائقنا القيمة. لم يكن بوسعي فعل أي شيء إلا الاستسلام للبؤس والحيرة. أتاني صوت شاب يسأل عن حالي، كان نفسه من

أرشدني إلى بيت عبيدة، فوجدت نفسي أشكو له همي وما حلّ بي، في ثورة الغضب ووسط الدموع.

سألني مرّة أخرى:

- هل تذكرين مواصفاته؟

وصفته له بدقة تامة، فقد رسّخت ملامحه بين عيني. خيّل إلي أن الشاب عرف من يكون السارق، ولم أستوعب الوضع برمته حتى رأيته قادما بينما أترقبه مع أخي في العمارة وفي يده أشيائي. كنت كما لو أني شهدت معجزة، ومن فرحتي وافقت أن يقلّنا إلى موعدنا. قضينا الطريق ونحن نتحدّث في بعض شؤون الحياة العامة، أخبرني أن اسمه رشيد. أخفيت عنه بعض الأمور فأنا لا أسعى لشراء شفقة الناس، ومع ذلك كان جيدا معنا. مضى الموعد بسرعة ومنه أخذنا في جولة استمتعنا بها قليلا، على الأقل نسينا مداهمة المشكلات لنا منذ أكثر من شهر. من كلام رشيد الضبابي عن حياته الخاصة ومن تلميحاته فهمت أنه تاجر، فيما يتاجر؟ هذا ما امتنع عن قوله.

هكذا انقضى الأسبوع الأول، بين زيارات الطبيب وجدّة يوغورتا والبلديات، وغيرها من المقرات الرسمية، حتى مركز الشرطة زرته. لم يبد أني سأعتاد بيت عبيدة الخانق. حتى قررت إدخال يوغورتا للمدرسة في الصف التحضيري، لعلّه يستعيد بعضا من طبيعية الحياة، حتى نجية كنت آخذها إلى المدرسة معه.

وفي أحد الأيام دخلت إلى البيت بعد عودتني من مدرسة يوغورتا، وكان رشيد هو من أخذني بسيارته إلى باب العمارة، بعدما لمحت فاروق بين رفاقه يرمقني

بنظرة غضب لم أعرها اهتماما بقدر ما حيّرتني، وأكثر من ذلك بل اقتحم البيت من بعدي يصرخ وينادي أمّه مرارا.

وككل الأمهات لاحقت صوته ويدها بصدرها:

- ماذا؟ فاروق وليدي ما بك؟

تحت صمتي ودهشتي، بقيت أتابع ما يحصل، وبطبيعة الحال كان الأمر يخصّني، عرفت ذلك عندما أجاب فاروق:

- ابنتك تريد أن تلطّخ سمعتنا في الحي، ستغرق رؤوسنا في الوحل، فلترحمنا قليلا أرجوك أمي كلّميها. لقد صرت مسخرة بين أصدقائي. أنت لا تعلمين مع من تمشي؟ لقد رأيتها ترافق رشيد أحد شباب كابوني، وهو يتباهى بعدد الفتيات اللاتي رافقهن، وهذا ما لن أسمح به مع أختي.

قلت في حنق ودهشة:

- ومن جعلك وصيا عليّ، بداية أنت تصغرني سنا، من ثم أنا لست أختك تذكر هذا جيّدا، لا سلطة لك عليّ.

- إذن تحت أي صفة تقيمين في بيتنا؟ استقبلناك لأنك ابنة والدتنا. أرجو أن تعودي من حيث أتيت بسرعة، فلا أنت تناسبيننا ولا نحن نناسبك، لقد قلبت حياتنا رأسا على عقب وحوّلتنا إلى أضحوكة في الحي.

بكيت عبيدة ثم قالت:

- توقّفا أرجوكما، يا بني إنّها لا تعرفه ولا تعرف ما الذي يحدث هنا، أنت تعلم من أين أتت و..

- وماذا أمّي؟ وماذا؟ أتريدين مني نسيان أني رجل وأسمح لها بأن تمرّغ شرفي وشرف العائلة في الوحل؟ هل أدع الرجال يضحكون عليّ وهي تركب وتنزل مع الرجال قرب بيتي؟

- احترم نفسك أفهمت؟ أنا لست مجبرة على شرح الأمور لك، أنت طفل يبحث عمّا يجعله رجلا، وتريد إثبات ذلك لنفسك، أنتم في الحقيقة كلّكم كاذبون، تكذبون على أنفسكم، بناتكم وأخواتكم تتعرّفن بالرّجال خارجا لكن كل ما يهمّكم ألا ترونهن، هذا همّك الوحيد.

- أمي أرجوك أفهميها، فأنا لن أقف مكتوف اليدين في المرّة المقبلة، وليحدث ما يحدث.

لحظتها دخلت عليا من المدرسة، فهي تعيد السنة الثالثة ثانوي. وفورا فهمت من الحالة التي كنّا فيها أنّ الوضع مكركب:

- ماذا هناك أيضا؟

قالت عبيدة:

- أرجوك يا عليا لا تزيديها عليّ، وابقي خارج الموضوع.

- لكني سألت فقط.

نطق حينها فاروق:

- يبدو أن ابنتها العزيزة هي الأهم في هذا البيت ونحن كلّنا بلا فائدة.

ردّت أمّه:

- إنك تخطئ بتفكيرك عزيزي.

ثم نطقت عليا وهي تتجه نحو الغرفة:

- أنت تقامرين بكل عائلتك من أجل جاحدة مثل هذه، وهي حتى لا تعترف بأننا عائلتها.

قررت أن أوقف الأمر عند ذلك الحدق، قلت:

- أتدرون، لقد ضقت ذرعا من تصرّفاتكم معي، سأنصرف غدا وآخذ أخي، لذا اطمئنوا لن أقلقكم بعد الآن.

تطلّعت بهم وجدتهم جميعا مجمّدين مكانهم، كأنهم لم يتوقّعوا جوابي هذا، أتفهم ردّة فعل عبيدة، ما لم أتوقّعه هو ردّة فعل الاثنين الباقيين، لم يبدوا معجبين بتصريحي. كانت الدّموع قد بدأت تملأ عيني، فقد قمت بتصرّف متهوّر في لحظة غضب والآن عدت لأنشغل بالمكان الذي سنقصده.

واصلت السير دون الالتفات ورائي في طريقي لإعادة يوغورتا من المدرسة، بينما كانت سيارة رشيد تتبعني من وراء. فقد كنت أفكر في غبائي وعدم انتباهي لكون هذا الحي شعبي وتصرفات الناس فيه تحسب بالخطوة. ولم أنتبه لرشيد حتّى باشر في مناداتي باسمي. كان هناك ما أقلقني في تصرفات رشيد بعدما أخبرته أني افتعلت مشكلة في البيت بسبب تصرفاتي، ولمح إلى ضرورة الالتقاء بغية توضيح أمر يزعم أنه مهم، ولا يريد لغيره أن يحدثني حوله.

عزلت نفسي وأخي في الغرفة حتى ناداني عمران لمناقشة موضوع الشجار معي. وقفت عند الباب في غير استعداد لتلقي المواعظ، ولكنه أشار إلي

بالجلوس وهو يناديني بابنته، وأتت إجابتي جافة رافضة، بحجة أني أرتاح كذلك.

- على الأقل لا ترديني في هذا، أنا مجهد من العمل، لذا أرجوك اجلسي.

أطعته لسبب واحد وهو استقباله لي ولأخي دون أية شروط، غير أني توقعت أن يشدد اللهجة معي ويوبّخني حتى لا أكرر فعلتي، عندما قال:

- عندما قدمتِ عندنا وعدتك بعدم التدخّل في شؤونك ولا التحدّث إليك ما لم تبادري بنفسك، لكن يبدو أن الوضع قد تغيّر ويجب علينا تعجيل تلك المحادثة.. فهمت أن فاروق عاملك بخشونة كما أنه تدخّل في أمورك، تفهّميه يا ابنتي..

- وأنا تفهمته.

كيف أناديه؟ لا أعرف، لن أناديه، فواصلت:

- هو شاب وعليه أن يدافع عن رجولته أمام أصدقائه، لهذا أعتذر منكم وعلى ما سببته لكم، سأغادر لا تقلقوا، لن يطول إزعاجي لكم.

تدخّلت عبيدة التي بدت خائفة من عينيها:

- أي إزعاج يا ابنتي.. هذا بيتك..

أنزلت عينيها أرضا عندما نظرت إليها، وأجبتها على عجل:

- أبناؤك صاروا يخيرونك بيني وبينهم، أنا لست بشريرة وأيضا لست سيّئة لدرجة وضعك في وقف الاختيار بين من ولدتها وربيتهم، فهم يحقدون

عليك منذ الآن لأني أعيش لديكم، وأنا سيزيد حقدي عليك حين تختارين وكلينا يدرك من ستختارين، فقد فعلت سابقا، أليس كذلك؟

استوقفني زوجها حينها:

- أرجوك لا تعذّبيها يا أسيرم، هي لا تتوقف عن البكاء بسببك ومحروقة الفؤاد عليك.

- وأنا لم أطلب منها ذلك. اسمع، أنت لم تفعل ما يجعلني أتضايق منذ قدومي، وأتفهّم سبب انحيازك لابنك وكما قلت منذ قليل هو محق أيضا، أنا من أخطأ أصلا حين قصدتكم في المساعدة، لكن الأخطاء تحدث، المهم الآن هو أن نتداركها ونصلح الوضع، ولن يصلح إلا برحيلي، لن أدعك تتدبّر الكلمات ولا طريقة قول ما لديك وأنا أفهم عليك.

قال وهو يهز رأسه:

_لم تفهمي شيئا، ما أريده هو الاعتذار لك عمّا بدر من ابني، إنه مراهق ولا يدرك وضعنا، هو يحسبك أخته مهما صار.

شعرت بالخجل بعض الشيء حين صرّح بذلك، وأيضا أشفقت على فاروق، لأسمع باقي كلامه:

- إنه يفعل نفس الشيء مع عليا، لا يحبّ حتى أن يكون لديها هاتفها الخاص، أنا لا أبرر أفعاله، لكنّه مجبر بالنسبة للمكان الذي نشأ فيه، لذا أريدك يا ابنتي أن تعدلي عن قرار مغادرتك، أمّك هذه حزينة ولا تقوى على فراقك بعدما قصدتها برجليك، ها هي تبكي وأخشى أن يصيبها مكروها.

- أن تخسر شخصا خسرته قبلا أهون من أن تخسر من بيدها الآن صدّقني، هذه زوجتك، بالنسبة لي كلّكم غرباء ولا يمكنني أن أجبر قلبي ولا عقلي على الشعور أو التفكير بطريقة مختلفة بخصوصكم، ليست لي نية أن أجعلكم تعيشون في جحيم بسببي، أعلم أنكم لطالما كرهتم زياراتي.

قاطعني عمران:

- أنت مخطئة جدا في قولك هذا.

نظرت إلى عبيدة وقلت:

- لا تقلقي، سأتدبّر أموري. أنا قويّة ويمكنني حمل أعباء عائلة مبتورة الأرجل والأيدي، المهم أن الروح والقلب موجودان، وأنت لا تريدين أن تكوني في عائلة مبتورة الأعضاء، ولا أنا ولا أخي يمكننا الانتماء إلى عائلة كاملة، لم نعد مكتملين بعد الآن.

أنزلت عيني أرضا لأكمل:

- أنتم مكتملون هكذا، لستم بحاجة إلينا، ابنتك تكرهني وابنك لا يتقبّل طريقة عيشي، والطفلة لن تبقي على عفويّتها بعدما تعرف كلّ شيء، أنا بالنسبة لكم مجرّد ورم تنتظرون طبيبا ماهرا ليستأصله، وأنا حقا كذلك، إني أقتل عائلتكم وهذا سيء، لن أدعكم تعيشوا ما عشته، لا يستحق أي شخص أن يحرم من أمّه.

ردّت قائلة:

- لكن قلبي لا يحيا من دونك، أدعو الله أن يأخذ روحي وأرتاح، فأنا لم أعرف في هذه الدنيا إلا المحن.

أمسك زوجها بيدها وقال محاولا تهدئتها:

- يا عبيدة لا تؤذي نفسك بهذه الطريقة.

التفت إلي مترجٍ بأعين مليئة بالخوف، ألهذا الحد يحبّها؟ قال:

- طمئنيها يا أسيرم ابنتي، إنّها أمك مهما كان، لا تريدين أذيّتها، لا تدعيها تبكي طوال الوقت.

شعرت ببعض من الشفقة عليها، لكنّها لم تشفق حين تركت ابنة رضيعة واختارت زوجا آخر وأبناء آخرين عليها، لذا وقفت ثم سألته:

- هل انتهيتما؟ لديّ مشاغل وعلي البحث عن مكان نقصده نحن الاثنان.

صمتا فقط، هي تتطلّع في مندهشة والدموع تنهمر من عيونها أما هو فقد أسقط بناظريه أرضا، كمن لم يشأ حتى التطلّع بي، فقلت قبل المغادرة:

- سامحاني على الإزعاج الذي تسببت به لكما، لم أنوي ذلك هده المرّة، صدقا لم تكن نيتي أذيتكم.

اكتفى الجميع بالصمت، وانسحبت بقهر، إذ حتى لو صعدت إلى القمر وعدت، أو اخترقت السماوات أو مت وحييت، أبقى جزء من عبيدة وهذا ما ليس بيدي تغييره، سأحقد دائما عليها من حبي الكبير لها.

ذرفت من الدموع القدر الكبير، عندما قصدت الغرفة وهناك كانت موجودة عليا ونجية، أخي يوغورتا جالس على تختي الذي جلبوه خصيصا لي، بدا غاليا وجميلا. كان يوغورتا قد أخرج أدواته ليرتّبها ويلعب بالعجينة، فرحت

أصنع منها أمورا بسيطة نالت إعجابه وأيضا نجية شاءت مشاركتنا اللعب، غير أن أختها أمرتها بالعودة إلى مكانها فانصاعت للأوامر.

عليا تذكرني بنفسي، تبدو شرسة، فحين يتعلّق الأمر بالعائلة أنا كل شيء إلا متسامحة مع من يحاول تهديد استقرارها. أما عائلتي تهدّمت ولم يبق لي منها إلا القليل لأحارب من أجله، أما هي فلاتزال لديها عائلتها لتنقضّ عليّ وأنا أهدّد سلامهم. أمي وأمّها لها، أباها وأخوها وأختها بين أحضانها، مثلها لو كنت مكانها لما تركت أيا كان أن يؤذيهم، وقد تسببت بالكثير لهذه العائلة من أجل أمٍ لم تعد أمي بل أمّها.

لم أستطيع النوم وقد تأخر الوقت جدا، كنت يائسة عندما تذكّرت عرض عماد، وقد كان الوقت المناسب للاتصال به ليطمئن عقلي وأنال قسطا من النوم. هبّت الرياح الأولى للخريف وحملت معها شعري وأوراق الشجيرات في الشارع. في لحظة ما وجّه إليّ ضوء من سطح العمارة المقابلة لنا، لاحظت دخانا يخرج من فم الشخص نفسه الذي رأيته من قبل، لا أستطيع تبين ملامحه، لكن جسده الضخم يصعب نسيانه بسهولة، عندما وضعت ذراعي على جفنيّ أطفأها.

كنت على قاب قوسين أو أدنى من إجراء ذلك الاتصال أخيرا، عندما علي صوت في البداية لم أعرفه حتى تبين لي أنه عمران، ينادي باسم عليا. تركت الشرفة لأدخل إلى الغرفة وكانت عليا قد استفاقت توا بنظرة يعلوها الوجل، نظرة ذكرتني بأقسى ما يمكن للإنسان أن يرى.

سألتني بيأس مطلق:

- ماذا هناك؟



- لا أدري، سمعته الآن يناديك.

كان لا يزال يصرخ باسم ابنته عندما استفاق الطفلان، وسمعت صوت فاروق في الرواق، حينها صرخت عليا بصوت مخنوق:

- أسرعي أسيرم، الحقي به بسرعة، ربّما هم بحاجة إلى مساعدة مستعجلة، سأدركك بعد قليل.

كانت الفوضى تسود المكان عندما تبعت صوت عمران إلى غرفتهما. كان مشهدا بائسا الذي رأيته، عبيدة ملقية أرضا تبدو خالية من الحياة. لوهلة بقيت مجمّدة، ولأن عمران وفاروق لم يتمكنا من السيطرة على نفسيهما، أخرجت نفسي من تلك الحالة وتدخلت. انحنيت إليها في نفس الوقت الذي ولجت فيه عليا متفاجئة، وجهها يغزوه الرعب. اتّصلت بالإسعاف بسرعة ففي حالة الذعر التي كانوا فيها جميعا لا أحد كان يفكر بطريقة سليمة، فاستلمت زمام الأمور ورحت أوجّههم، فبينما كنت أضرب عبيدة بخفة على وجهها في محاولة لإيقاظها، أرسلت عليا لإحضار ماء بالسكر قبل أن أفتح جبتها قليلا وأتفقّد نبضها.

أوّل ما رميت على عبيدة من الماء استفاقت ومعها تنفّسنا جميعا، لتشرب بصعوبة ما بقي من ماء مع السكر. انتابني شعور بأنني المتسببة في ما حل بأفراد هذه العائلة والهلع الذي عاشوه.

ثم بدأت عليا تردد:

- أمي، إنها تفتح عينيها.

وهي تبتسم بخشية، تابعت:

- أنظر أبي، إنها حية ترزق، لقد استفاقت..

وحين أخذت تتأوّه علمت أنها عادت لوعيها، فشلت ركبتي ويدي، فوقعت وجلست أرضا، كل عضلاتي ارتخت، كل ما بقي لديّ من قوة ذهب ونزلت الدّموع واحدة تلو الأخرى، اعتقدت أني أشهد نهاية أخرى. أليست النهاية واحدة؟ يبدو أن النهايات لا تنتهي حقا.

وقعت عيني على عين عمران، ثم أومأ برأسه وقال لي:

-شكرا، لأنك أنقذت الوضع.

فأجبته والدّموع تملأ عينيّ:

- سيارة الإسعاف قادمة، على أحدكم أن يلبس حتى يرافقها.

ما كان عمران أن يسمح لأحد غيره بأن يكون مرافقا لها إلى المستشفى. جلس فاروق إلى جانب أمه يقبل يديها وعليا تراقبها وهي تبكي. كأنهم أوّل مرّة يتعرّضون لمثل هكذا صدمة، حتى شعرت بأسف عليهم جميعا كرهت نفسي لأني وضعتهم في مثل هكذا موضع. لابد أني السبب، أعلم.

انسحبنا بقيتنا في صمت إلى غرفة الضيوف ننتظر الأخبار من المشفى، كان يوغورتا ونجية متعبين فندهت إليهما بالاقتراب حتى يناما إلى جانبي، ولم تسمع مني نجية حتى أخذت إذن عليا. ناما بسرعة بينما أقص عليهما قصة صغيرة.

بعد ربع ساعة، سمعت عليا تنادي باسمي. رفعت عيني المتعبتين إليها وكأني أنتظر ما سترميه في وجهي. قالت:

- أمّي مرضت لأني تدخّلت، وأنت قررت الرّحيل لهذا، كدت أقتل أمي، كان ثقيلا على قلبها أن تزيد الفجوة بيننا اتساعا.

صمتت لتضيف وهي تضع عينيها أرضا:

- أرجوك أسيرم ابقي ولا ترحلي، إني أترجاك أن تسامحيني، أنا حقا لن أكرر إزعاجي وحتى فاروق.

التفتت إلى أخيها وسألته:

- أليس كذلك يا فاروق؟ لن تتدخّل ثانية في حياتها.

هزّ رأسه موافقا بشدّة.

آلمتني تلك الكلمات والخوف الذي تملّكهما، شعرت بطعنات تخترق صدري، لابد أن شعور الأخوّة قد استفاق، نزلت دموعي ثانية وكالشلال الغاضب لم تتوقّف.

بقيت أردد لحظتها:

- يا ربي كيف صرت سيئة إلى هذه الدّرجة؟

ثم تطلّعت بهما وقلت:

- أنا حقا أعتذر، آخر ما قد أتمناه في حياتي هو أذيتكم، أخاك على صواب عليا. فاروق، أنت محق، فقد دافعت عن بيتك وأهلك، أفهمك، وأنت لم تخطئي عليا، تصرّفت كأي أخت وابنة لو كانت مكانك، أنا التي قدمت إلى هنا ودمّرت ما بنيتموه خلال سنوات، لم أقرر الرحيل بدافع الغضب بل من

أجلك ومن أجل إخوتك وأمك وأبيك، فبالرّغم من الأمور التي حصلت بيني وبين عبيدة إلا أنكم عائلة ولا أريد تفريقكم أو تدميركم، ووجودي هنا سيحقق كل هذه الكوارث لتصبح عائلتكم هشة سهلة الانكسار.

تدخل فاروق قائلا:

- اعذريني أسيرم لكنك تتفوهين بالحماقات.

سألت:

- ماذا تقصد؟

- وهل تعتقدين أن أمّنا عاشت سعيدة بينما أنت بعيدة؟

لم أردّ عليه، فاستمرّ قائلا:

- قبل قدومك أمنا كانت غائبة، الأعياد لا روح فيها، كان بودي لو أشهد لها سعادة حقيقية في أحد الأيام، أن أراها تضحك، وتفرح عندما ينجح أحدنا، في بيتنا كل شيء يبقى ناقص، هي دائما حزينة، لأنك تأخذينها معك حين ترحلين، روحها تتبعك وتظل هنا جسدا خاويا، أنا أجهل أسبابك في كره أمك، لابد أنه لديك أعذارك، فأنا أفهمك تماما، ومع ذلك تبقى أمّي وأريدها حيّة. الحقيقة إن هذه العائلة ستتحول إلى عدم برحيلك كالعادة، لذلك لا تغادري أرجو..

- لا تواصل من فضلك، لا أستحق ترجيكما. إن كان حضوري لا يضايقكم سأفعل ما تريدانه، سنبقى.

انتفضت عليا وقالت في بهجة:

- شكرا لأنك لم تخيبي أملنا، أنت طيّبة جدا، أمي ستكون أسعد إنسانة.

- لست طيبة لهذه الدّرجة، فقد أخطأت عندما حاولت عيش حياتي المعتادة وأجبرتكم على تقبّلها وأحاول إصلاح خطئي، لذا أريد منكما أن تسامحاني أيضا، وأعدك يا فاروق أني سأنتبه بعد الآن لما أفعله في الحي، هل هذا يرضيك؟

ابتسم وأجابني:

- لم أتدخّل إلا من أجل مصلحتك، ربّما أخطأت في طريقة طرح المشكلة لكنها لم تكن بنية سيئة.

- أعلم، هل نحن على وفاق إذا؟ كلّنا على وفاق؟

ردّت عليا وبوجهها سرور غريب:

- كنّا ننتظرك أنت، هذا ما كان ينقص هذا البيت البسيط.

تغيّرت بعض الشيء تعبيرات وجهها، واصلت:

- نحن نمرّ بين الحين والآخر بأزمات، لكننا لا ندع شيئا يهزّنا، وأنت معنا زدت الأساس متانة وأخيك أيضا لن يشعر بأنه وحده أبدا.

لن أكذب، عندما شملت يوغورتا شعرت بفرحة تغمرني. صرنا ننتمي إلى عائلة ثانية، ولو لم نكن مكمّلين لها بمثالية، لكنّنا تابعين مثاليين لعائلة متماسكة.

وردنا لحظتها اتّصال من العم عمران ليطمئننا قائلا أنها بخير وسيأتون بعد ساعة على الأكثر. لم يزد هذا الخبر الجوّ إلا حميمية وسرورا ووفاقا. انتظرنا عند الباب حين رأينا سيارة التاكسي تتوقف. دخلت عبيدة وهي متعبة مسندة رأسها على كتف زوجها وفاروق الذي نزل ليساعده أمسك بذراعها، عليا اقتربت منها وقبّلتها ونجية حضنتها، فطلب منهما أباهم أن يتوقّفا وإلا أسقطتاها، أما أنا ويوغورتا بقينا نراقب من بعيد. تبعناهم إلى الغرفة حيث وضعوها على سريرها، جلسوا بقربها جميعهم وهي تبتسم إليهم مطمئنة، كان بين يدي أخي، حتى سمعت عليا تعلم والدتها ما تقرر خلال غيابها وزوجها. الاثنين تطلّعا بي والفرح يملأ عينيهما، لم أكن أعلم أن ذلك كان سيسعدهم حقا، تفاجأت. لن أكذب، لطالما فكّرت في أني مصدر إزعاج لهم وانتهى.

ولأوّل مرّة منذ سنوات طوال ابتسمت لعبيدة بودٍ، كأنها لم تصدّق ما رأته فأغلقت وفتحت عينيها، لتبتسم أخيرا وتنزل الدموع على خديها، فمسح فاروق دموعها ونظر إلي بعينيه المتلألئين، هل أنا إلى هذا الحد مهمة لديهم؟ لازلت مهمّة لأحدهم؟ لعائلة كاملة!

2

استعدت روتيني اليومي فور مضي الليل بسلام بعد الحادثة، كنت قد أوصلت نجية ويوغورتا في الصباح الباكر إلى المدرسة قبل أن ألتقي برشيد في طريق العودة، حيث أصرّ بشدّة أن أرافقه ليعلمني بأمر ما فلم أجد مانعا، أيضا، تملّكني الفضول لسماع ما لديه، حتى لم أنتبه إلا لاحقا بأننا نمشي في طريق غير الذي اعتدنا اتخاذه. توقّفنا عند محلّات للألبسة توقّعت أن أحدهم له، خصوصا أنه قام بإفراغه مرسلا العامل أيضا في مهمة ما. وضع عند الباب لافتة تقول أن المحل مغلق حاليا.

وضع كرسيا لأجلي، وكنت أستعد للجلوس بينما أراقب المحلّ، فقد كان يحتوي ملابسا رائعة وغالية، وهذا لم يفاجئني مع تواجده بمنطقة راقية،

بقدر ما وجدته غير طبيعي أن يعيش رشيد في حي كالذي نعيش فيه وهو يملك محلا كذلك.

سألني رشيد:

- أيعجبك المكان؟

حرّكت فقط كتفي كأني لم أستوعب سبب السؤال، من ثم سألته بدوري:

- لماذا أتينا إلى هنا يا رشيد؟

- أريدك أن تعرفي كلّ شيء عني مني، لا من غيري.

صمت قليلا، بعدها واصل:

- انتظري دقيقة فقط، سآتيك بمشروب حتى تسترخي.

غاب بضعة ثوان ثم عاد بكوب من العصير، وأيضا أتى بكرسي آخر وضعه مقابلا إياي.

- ماذا هناك؟ إنك تخيفني، أشعر وكأنك طبيب وستطلعني بأني أموت من مرض خبيث.

- اقتربت جدا من الحقيقة. عملي هنا عمل جانبي، لا يتعدى كونه تمويها، تقوم به جماعتنا لتضليل الشرطة، السلطات، أو بالأحرى لعدم إحراج معظمهم. المهم، ستعرفين عاجلا أم آجلا، وأنا أهتم حقا لأمرك. أنا عضو في مجموعة تتاجر بكل أنواع الأسلحة وتبيض الأموال، كما لدينا

تاريخ في المخدرات، كل أصحاب الحي يعرفون ما هي حقيقتي وفي الأخير سيصلك.

- تقول هذا كأنه أمر عادي، وكأنك تتوقع أن أتقبّله.

- أكيد لا، لكنّك ستتفهّمين مع الوقت.

- لا وقت لديّ لأضيّعه معك، أنا وأنت شخصان مختلفان ولن أعرّض حياتي ولا حياة عائلتي للخطر بسببك، أتفهمني؟

- ليس كأني سأدعك تخرجين من هنا دون تسوية بعدما أطلعتك بكلّ شيء.

تطلّع بكأسي، ثم قال بنبرة آمرة:

- اشربي قليلا من العصير حتى تهدئي.

كان تصرّفه غريبا، فقد بدا عليه التوتّر، فقمت من مكاني وقلت:

- لن أشرب لأني لا أريد أن أهدأ أكثر من هذا، فأنا الآن في أبعد حدود الهدوء صدّقني، وليس هذا العصير هو الذي سيجعلني أتخطى ما سمعته منك الآن.

: صرخ في وجهي بطريقة لم أعهدها منه ولا من غيره

- قلت اشربي.

انتفضت على أنغام تلك الصرخة المجفلة، وقبل أن يناولني العصير، طرق أحدهم على واجهة المحل باستعجال متوتر أو ربّما غاضب. عندما سأله من

يكون أخبره أنه "نعيم" العامل الذي خرج توا. حاول رشيد صرفه وقد سيطرت عليه حالة من الاضطراب الذي لم أفهم نوعه على الإطلاق، عندما كلّفه بعمل آخر ألح الشاب عليه أن يفتح، فأذعن رشيد ربّما خشية من أن يكون الموضوع ذات أهمية. يصعب عليّ وصف وضعي حينئذ والذعر الذي رميت فيه.

بمجرّد أن شق الباب تم دفعه بقوة إلى الوراء، وكان وراء ذلك رجلا ضخم البنية، في طرفة عين تبدل المحل إلى مسرح لا يخلو من الأحداث، والتي وجدت صعوبة في مواكبتها ، كل شيء كان جديدا بالنسبة لي فتجمّدت مكاني. ألقت الدفعة رشيد أرضا كلعبة خشبية. تبع الرجل آخرين بنفس الحجم، وبعدهم رجل قصير أصلع، يرتدي بزة سوداء وحذاء من الجلد بني اللون، دخول هذا الأخير ترك أثرا بالغا على وجه رشيد، الذي تلعثم دون أن يقول شيء، وكادت قسمات وجهه تنفجر من الخوف، لكأنه شاهد ملاك الموت نفسه.

ناداه رشيد متعثرا في حروفه باسم غريب "الدوخة" هذا ما بدا لي حينها، وعيناه المرعوبتان تحدّقان به، والثاني المدعو بالدوخة، بقي يرمقه بنظرة تشقّ الأرض وتخيف أقوى قلب. كلّ هذا ولم ينتبه أيّهم إلى وجودي كأني عدم، تمنّيت أن أبقى معدومة حتى يرحلوا، لم أعرف إن كان عليّ أن أفرح لأنّهم أنقذوني من رشيد أم أحزن وأبكي لأني وقعت بين يدي أشخاص يبدون أكثر شرا منه.

أثناء نظره إلى رشيد، طلب المدعو الدوخة من أحد الرجال الضّخام بأن يتّصل بـ "كابوني" ويخبره أنه موجود في المحل الثاني، بصوته المبحوح، من

بعد وقعت عينيه عليّ، لثانية فقط، وقد وقع قلبي بين يدي لحظتها، لينظر مرة أخرى إلى رشيد.

هذا الأخير قال وبصوت متقطّع كأن النفس لم يعد يدخل إلى صدره:

- ماذا هناك؟ لم سيأتي كابوني؟ ما الذي يستدعي قدومه عندي؟

والآخر يقتله بالصّمت وكأنه يدرك مدى تأثيره على قلوب الناس، والإرهاب الذي يمارسه عليهم بصمته وهدوءه، استمرّ عندها رشيد:

- أرجوك دعني أرحل، لا تجعلني أقابله، أنا لا أفهم ما الذي فعلته حتى يأتي بنفسه إليّ، ربّما قمت بحماقة ما عن غير قصد وفهمها خطأ.

أجابه أحد الرجال الضخام:

- اصمت.

رنّ هاتف صاحب اللقب الغريب، والذي يليق به طبعا فهو يفشل الرّكب من الخوف ويدوّخ بوجهه الذي ينقّط شرا ودمارا. فردّ بصوته المبحوح:

- نعم كابوني، هل وصلت؟ حسنا، أين أنت سأطلب من رضا أن يلقاك.

صمت لوهلة ليواصل:

- مثلما تريد.

تطلّع بأحد الرّجال بعد إنهاء المكالمة وأمره:

- قف قرب الباب، ليراك.

أقفل هذا الأخير الباب ثم التفت إلى رشيد الذي لم يقوى على النهوض، لابد أنه مثلي فشلت ركبتيه، فقد وضع ذراعيه على ركبتيه ورأسه مطأطأ أرضا، كأنه يدرك ما هو مصيره جيّدا.

لم يعد لدي قدرة على التحمّل، فاقتربت من الحائط واتّكأت عليه، ممسكة بطني باسطة ذراعي عليها أما الأخرى أخفيت بها وجهي، كأنه سيغشى عليّ.

عمّ هدوء كبير فجأة، كأن حدثا جللا أوقف الزمن عن التحرك، ما دفعني إلى الكشف عن عيني لرؤية ما يحصل. كان الجميع موجهين أنظارهم نحو الباب، وإذا بشاب قد يكون في أواخر العشرينات أو أكثر بقليل، عليه سمات الوسامة الخشنة، مظهره لم يوحِ بأي نوع من الوحشية، يرتدي سترة جلدية سوداء ككل الشباب، ويملس شعره أيضا إلى الوراء مثلهم، وحدها مشيته تختلف عنهم. لماذا كانت إذن نظرات الرعب تنطق من وجوه الحاضرين بالخصوص رشيد.

رغم غرابة الوضع برمته، زاد الوافد الجديد الوضع غرابة، بالتفاته إليّ ما إن دخل، بدا وكأن قدميه تقودانه إليّ بطريقة آلية، حتى استوقفه المدعو الدوخة عندما قال:

- ها هو رشيد الواعر، مرجعش واعر، مادرنالو والو لحد الآن، كنّا نستناوك.

المدعو الكابوني بدا مترددا في اختيار أحد الأمرين، إما يقترب منّي أو يتعامل مع رشيد، وقد فضحته تطلّعاته التي تنقلت أكثر من مرّة بيني وبين الجماعة. في الأخير وقع اختياره على رشيد، الذي يبدو أنه يدعى بالإضافة

إلى ذلك الواعر، يا لفجأتي! وكم كثرت المفاجآت مؤخرا، كما يبدو أنها لا تنتهي ما أن تبدأ، فلا يمكن الخروج من المستنقع دون أن يلطخ الواحد منا نفسه حقا.

لم تعد لي قدرة على التحمّل، جلست أخيرا أرضا بينما أضم ركبتي إلي بكلتا يدي، فليحدث ما يحدث.

أخيرا نطق المدعو كابوني:

- كيف يا الواعر؟ تكلم.

بدت كلماته مبهمة، ماذا يريده أن يقول؟ دخلوا وتهجّموا عليه ويطلب منه التحدّث.

وكأن رشيد استسلم أخيرا:

- غرّني الشيطان، ماذا أفعل؟

- هل جعلتك يوما تحتاج إلى المال؟

- لا..

- إذن؟

- سامحني أتوسل إليك.

ليصرخ حينها بصوته الذي يشبهه كثيرا:

- تتوسل يا وغد؟! كيف فكّرت حتى في تأسيس جماعة؟ وبطريقتي القديمة، زيادة على كونك خائن أنت أبله وغبي، لو كنت أدرك أنك غبي لهذه الدرجة ما كنت أعطيتك مهام الجندي، كنت جعلتك ممسحة أمر عليها عند بابي.

- أنا آسف.

- اسمعوه، إنه يتأسّف.

بقي يشير إليه أثناء نظره إلى المدعو الدوخة، ليستمرّ بعد ذلك:

- أنت تدرك جيدا أن هذا لن يمرّ على خير؟ لذا ابقى رجلا ولا تترجى ولا تتأسف.

نظرات رشيد قتلتني، كان خائفا بشدّة وهو يدرك تماما ما سيحصل معه، يترجّاه بعينيه، لكن دون أن تحملا أملا فعلي، مع أن كابوني هذا لم يبدو شريرا لهذه الدّرجة، إلا أنه لم يملك ذرّة رحمة في قلبه.

قال لحظتها الدوخة:

- هل انتهيت معه؟

- طبعا، وهو يعلم، لقد خاننا وتدرك ما هو جزاء الخائن، لا سماح لا رجعة مع الخونة.

أجابه الدوخة:

- مثلما تريد، إنك من يقرر.

حينها التفت إليّ كابوني ذاك، واقترب مني حتى لم يبق بيننا الكثير:

- ماذا تفعلين هنا؟

قالها وكأنه يعرفني. رفعت بناظريّ فوجدت تلك العينين بلونهما الأخضر الغامق غير الغريبة عليّ، لكن أين رأيته؟ ومن يكون؟ هل يعرفني؟ ظلّ يراقبني لمدّة، دفئ غريب خرج منه، كأنه شخص آخر الذي أمامي ليس ذلك الذي دفن قلبه منذ لحظات. الكل يتطلّع به وينتظرون ماذا يفعل، وبعد فترة من الزمن، أمسكني من معصمي وهو يقول:

- قومي، هيا قومي.

اتّكأت على الحائط بعدما جعلني أقف والدموع تنزل من عيني كالشلال، اقترب قليلا وكأنه راح يقول شيئا حين هتف رشيد من الجهة الأخرى من المحل:

- دعها وشأنها يا كابوني، لا دخل لها في الموضوع.

وبطريقة غريبة رمقني كابوني ذاك وسألني سؤالا أغرب:

- هل أنت حبيبته؟ تتواعدان؟

هززت فقط رأسي مجيبة سلبا، ليلتفت إلى رجاله ويشير لهم فانهالوا على رشيد بالضرب مباشرة، كان يصرخ ويترجّاهم أن يتوقّفوا. أسمع تلك الضربات كأنها دفات طبول.

وضعت يدي في البداية على أذني وأغمضت جفوني، رغم ذلك وصلني الصوت. تعبت روحي من الألم الذي تشهده بين الحين والآخر، فتملّكتني شجاعة غريبة حينها كنت سأخطو إليهم حتى أساعده وأنا أصرخ:

- دعوه وشأنه، أرجوكم اتركوه.

أمسك بي كابوني ذاك، ولا زلت أحاول الإسراع لمساعدته، عندما ثبّتني بقوة إلى الجدار. أنظر إلى رشيد أثناء تنفّسي بسرعة وأنا أبكي، تطلّعت بعيونه وترجيته:

- اطلب منهم أن يتركوه..

وهو ممسك بي، لفّ برأسه وقال:

- اتركوه.

تفاجأت لإصغائه لكلامي، لم أدرك أن لنواياه خفايا وحسابات أخرى:

- أنظر إليّ يا سي واعر.

التفت إليه ليرى إذا كان لديه انتباه رشيد، فقام بجذب مسدس من وراء ظهره ووضعه على رأسي. ارتعش جسدي كلّه مرة واحدة، ثم توقّفت كليا عن الحراك وأنا أراقب عيني كابوني، لا أدري، لسبب ما كنت موقنة أنه لن يقتلني، لم يكن وقتي قد حان بعد.

بنفسه الباقي قال رشيد:

- لا تؤذيها، حسابك معي، لديها أخ صغير يحتاجها.

- إذا كنت تفكّر بها لهذا الحدّ لم طلبت من عاملك أن يأتيك بمنوّم؟

ماذا؟! منوّم! لهذا كان يريدني رشيد أن أشرب العصير بشدة. ومن جهة أخرى ما الذي يحاول إثباته كابوني هذا. نظراتي بقيت مبعثرة بينهما، أسأل هذا ثم ذاك في داخلي، لماذا؟ ما دخلي أنا؟ دعاني وشأني وتحاسبا بعيدا عنّي، اتركاني، لا أريد أية علاقة تربطني بكما.

قال رشيد:

- لا تؤذها فحسب.

- أصبحت تتحدّث وتعطي رأيك، فلنمتحن إذن مدى قدرتك على الإخلاص.

قال له كابوني ووجهه يعبّر بالثقة التي كانت لديه في النتيجة:

- إليك ما سيحصل، الآن عندك فرصة للنجاة بحياتك، وذلك سيكون بمقابل حياتها، إمّا أنت أو هي؟ اختر. أقتلها وتدعها تخلّف أخاها وحيدا وتعيش أنت، أم أنك ستخلص لها وتدعها تعيش لأخيها؟

ظل الجميع يحدّق برشيد منتظرين قراره وأنا نفسي أتطلّع به، دون توقّعات، أنتظر مصيري ماذا سيكون، وهو بين يديه. توقّفت الدموع، بقيت محجرة وهي تنتظر القرار. في كلتا الحالتين سيخسر أحدنا حياته، وهذه نتيجة ما كنت سأعيش بها وأزيدها لتلك الأولى، التي قتلت حياتي وما عادت لها مغزى يذكر.

مضت دقيقتين تقريبا أو سنة أو سنتين لست أدري، على الأقل هكذا شعرت. ليلحّ عليه كابوني بأن يسرع. رفع رشيد رأسه موجها تطلّعاته إليّ ففهمت منهما ما كان قراره وزادني يقينا قوله:

- سامحيني، سامحيني آسي.

نزلت دمعتي، من ثم أغلقت عيني، لأفتحهما على صوت كابوني وهو يقول له:

- ماذا اخترت؟

ألم يفهم أم أنه يريدني أن أسمع؟

- تعلم ماذا اخترت يا كابوني.

- قلها.. ما لم يصرّح به يُلغى، أريد سماعها هيا.

بينما يحدّق بي المدعو كابوني، كأنه يرغب في إثبات شيء ما لي، لم أدرك سبب ذلك.

أجاب رشيد برعشة ترافق صوته:

- لا أريد أن أموت، اقتلها هي.

قال هذا ثم وضع رأسه بين يديه.

أزاح كابوني مسدّسه عني:

- أترين كم يحبك؟ إنه مخلص أليس كذلك؟

رمقته بنظرة تظهر تقززي من لعبته، فأكمل:

_ماذا تتوقعين من رجل باع ولي نعمته من أجل بقايا نفايات، أخرجته من البقعة التي كان يعيش فيها وجعلت منه رجلا يتباهى بين الناس بما يملكه من وراء معرفتي وتنتظرين منه أن ينقذك ويموت؟ إنّه جبان، أي خائن يكون جبان.

التفت إلى رشيد بعدها:

- أتعلم، كانت لديك فرصة لتنقذها وتنقذ نفسك، أردت إعطائك هذه الفرصة حقا، حتى تبرهن أنك لست نذلا لهذه الدّرجة. لكنّك للأسف بددتها، إنّك من أخطأ ومن عليه أن يدفع الثمن، لو كنت رجلا حقيقيا لتحمّلت المسؤولية وما جعلت آخرون يدفعون ثمن أخطائك. ولهذا انسى الاتفاق، سأكون نذلا مع الأنذال، ولا شيء سينقذك.

سأله الدوخة:

- ننهيه إذن؟

أجابه:

- ننهيه.

لا يمكن لأي شخص أن يتصوّر بما شعرت لحظتها، أحقا لن أموت؟ أعطيت فرصة ثانية، وفي أحضان تلك الراحة، آلمني قلبي لتذكّري أن شخصا ما سيخسر حياته، ليس بسببي أو من أجلي لكنّي سأرى وأوضع بين أحضان الموت ثانية، أرى وأصمت.

وقبل أن يدخل فيه أحد الرجال سكينه، صرخت بأعلى صوتي:

- توقّفوا، توقفوا، ساعدونا أرجوكم، ساعدونا.

عندها صاح كابوني ذاك في وجهي:

- اصمتي، لازلت تدافعين عنه بعدما سمح بقتلك؟ تحبينه؟

استغربت سؤاله، لكني أجبت بصوتي المتقطّع من شهيقي:

- إنه إنسان، له روح. هل من السهل لديك قتل الناس بهذه الطريقة الوحشية؟ أنت لا تدرك كم هو مؤلم أن تجد أحبائك موتى والدم يغطي أجسادهم، فكّر في أهله، ما ذنبهم؟

- لا أهل لديه، لذا لا يوجد من يبكي عليه، أخته ميتة وأمه متزوجة من رجل آخر منذ صغره، لن يشتاق إليه أحد، هل يريحك هذا؟

قال هذا بينما يضحك. وتبعه الآخرون بالضحك.. يستمتعون بمآسي الناس كأنهم حجر، لا يشعرون بغيرهم، مما خلقوا هؤلاء؟ أهم بشر مثلنا؟

حاولت جعله يحنّ، ذبلت عيني متوسلتين:

- أرجوك كن رؤوفا به.

- لا أرأف بالخونة.

لم أفهم دافع شرحه لي أسبابه وحرصه على إثبات مساوئ رشيد أمامي، كأني سأرغب في موته مهما كان. استدار نحو الدوخة وأمره:



-    ارمه بحقنتين.

أعتقد قصد نوعا من المخدرات، حتى يقتل نفسه بهما! ليتطلّع بي، ويواصل:

-    أكثر من هكذا رحمة تصبح ضعف.

بدت جماعته منبهرة من طريقة تعامله معي، وتبريره المستمر لي عن أفعاله، وأنا لم أفهم، وجدته متعاونا معي فحاولت استعمال ذلك وانتهى.

حينها سأله المدعو الدوخة:

-    وهي؟

نطق كابوني:

-    ماذا عنها؟

-    بقاؤها على قيد الحياة يعني مشكلات، لا يجب أن ندعها تعيش، لقد رأتك وهي الآن تعتبر تهديدا لجماعتنا، ألا تراها؟ إنها من النوع الذي يفعل الصواب.

-    لهذا أنا أثق أنها ستفعل الصواب ولن تبلّغ الشرطة، أليس كذلك أسيرم؟

والتفت إليّ.. يعرف اسمي!

أنزلت عيني أرضا، لم أجبه، فقال له الدوخة:

-    أترى، لوكنت مكانك لتخلّصت منها الآن.

أجابه كابوني:

- سأهتمّ بالموضوع، ليس من شأنك يا صاحبي.

- مثلما تريد، فقط شئت أن أذكّرك.

- أعرف جيدا ما أفعله، لا أحتاج لتذكير من أحد.

أمسكني من ذراعي وهو يتكلّم مع رجاله:

- ابقوا هنا حتى تتم المهمّة، بعدها اتّصلوا بي، لا تنسوا أن تمسحوا بصمات الجميع، بصماتها أيضا.

جذبني معه، فرفضت التحرّك، رمقني بنظرة مرعبة وهو يقول:

- تعالي..

مسحت دموعي قبل أن يسحبني من يدي وراءه. أنظر إلى رشيد، لا يهم من يكون، من عصابة أو لقبه واعر أم أنه باعني ليعيش. في نظري يبقى إنسان، وسيرحل عن هذه الدنيا وبأبشع الطرق. حتى رشيد أخذ يحدّق بي أثناء مغادرتي، وكأنه يطلب الصفح منّي وأنا سامحته.

في خارج ذلك المحل قمت بتحرير معصمي من يده. أذرف الدموع بحرقة بينما المارة يرمون بنظراتهم المتسائلة دون أن يتدخّلوا.

التفت إليّ المدعو كابوني وقال بينما يشير إلى سيارته:

- اصعدي بسرعة.



تجمّدت مكاني، وما كان منه إلا أن دفعني إلى الداخل:

- قلت اصعدي، ولا تجعلي الناس ينتبهون إلينا أكثر.

آلمتني جفني من كثرة ما فركتهما، عندما انطلق سألته:

- ماذا ستفعل بي؟ هل ستقتلني أيضا؟ أجبني إلى أين تأخذني؟

- لن أؤذيك لا تخافي، إنما عليّ التأكد من أنّك لن تقومي بأية حماقة تجعلني أندم لأني لم أتخلّص منك.

عندما لم أجبه لوى رأسه نحوي وأكمل:

- انظري إليّ، بس بست، هنا.

فعلت ما أمرني به، ليتابع محذّرا:

- لا تعبثي معي مفهوم، حين أقول أمرا أريده أن يكون مسموعا من المرّة الأولى.

لا أدري لماذا لم أخشاه، كأني واثقة بأنه لن يلمس شعرة من رأسي. أجبته حينها بتلك الثقة التي لا أدري من أين أتيت بها مع أني خجولة مع الناس الذين لا أعرفهم، وقليلة الكلام عادة:

- أنا لست فردا من عصابتك حتى تأمرني، لا يأمرني القتلة.

توقّف على جانب الطريق ثم التفت إليّ ليقول بصوت مرء يكبح حنقه قدر الإمكان:

- هل تتمنّين لشخص كاد يفعل بك أمرا شائنا كالذي كان سيفعله أن ينجو من الموت؟ أنت لا تدركين حتى أنه كان ينوي اغتصابك يا مجنونة.

ضرب مقعدي ثم:

- كيف سمحت له بأن يأخذك إلى محلّه ويغلق الباب وراءكما؟

لم أردّ فقط بقيت أتساءل عن سبب غضبه من هذا الموضوع لهذا الحدّ، ومن أين علم؟ والأهم، لم يهتم لأمري هكذا؟ حينها صرخ:

- ألن تجيبي؟

- وما دخلك أنت؟

إجابتي كانت متسرّعة، فأي شخص في عقله ما كان ردّ بهذه الطريقة على رجل خطير مثله. ثم نزل دمعي لتذكّري، ثم قلت:

- لقد تعبت، قلبي سيتوقّف من كل ما يجري معي، كثير، والله كثير.

كأنه هدأ قليلا:

- اسمعيني، لقد وعدتك بالأمان، لن أضرّك بشيء، فقط لا تدخلي نفسك أنت في متاهات أخرى، ابقي بعيدة ولا تتدخّلي في أمورنا، ما صار قد صار، الواعر اختار مصيره بنفسه.

- لا أحد يختار الموت، أنتم تكذبون الكذبة وتصدّقونها.

- نحن!

- نعم أنتم، تنهون حياة الناس والعائلات معهم، تخلّفون يتامى وتشرّدون أشخاصا، وهل أبي اختار مصيره بمنطقكم حين قتلتموه؟

لحظتها التفتت إليه، وتطلّعت إليه بعمق، ربما أنتظر جوابا يأتيني منه. لكنه لبث واجما لبعض الوقت، كأنه يستفسر من عيوني ويبحث بين أحضان تعابيري عما يكشف عن مكنون قلبي.

وبصوت مختلف تماما صرّح:

- سمعت عن قصّتك.

نظرت إليه كمن تبحث عن جواب لسؤال لم يطرح، فأجابني عليه دون أن أتحدّث:

- بحثت قليلا عن الوافدة الغريبة، لا يمكنني الوثوق بالأشخاص الجدد، الشرطة تبعث بين الحين والآخر جواسيسها.

تنهّد ليواصل:

- دعيني أخبرك أمرا، نحن لا نقتل الناس مقابل المال، هذا ليس عملنا.

-لا بل تفعلون.

بقيت أنظاري ثابتة عليه وواصلت:

- فقط بطريقة أخرى.

- انزلي..

أمسكت بحقيبتي التي رماها إلى المقعد الخلفي ما أن أدخلني، وأنا أخرج وقبل إغلاقي الباب قلت:

- لا تحبّون سماع الحقيقة، إنها مؤلمة صحيح؟

أغلق باب السيارة بقوة من ورائي حتى اعتقدت أنها كسرت، انطلق مخلفا إياي في حالة من الحيرة في أمري، كيف واجهته بلك الطريقة؟ أنا الفتاة التي تبلع لسانها في لحظات الخوف والحياء.

وبطريقة آلية انطلقت قدماي في المشي، وأنا غارقة في التفكير برشيد ومعاناته بينما أنفذ بجلدي لأحتمي بين جدران عائلتي. أتساءل إن كان يستحق المخاطرة بكل شيء ومحاولة إنقاذه. لعلّي وضعت في ذلك الموقف رغما عني لكن القرار كان بيدي، وأبي دفع حياته ثمنا ليعلمني كيفية الكفاح من أجل الحق. رأيت الهاتف العمومي الذي ظهر أمامي فجأة كعلامة تشجعني للإقدام على الاتصال بالشرطة، وقد بلّغت فعلا عما رأيته كاملا بهوية مجهولة، فمنها أنقذ رشيد ويحاسبون لأرتاح، كنت ساذجة طبعا واعتقدت الحياة بهذه البساطة، ألم أكن بريئة؟

ما عادت بي قوة تحملني فلم أتمالك نفسي عندما وصلت إلى غرفة النوم حيث وجدت عليا تحضّر دروسها، لأرتمي فوق سريري. سألتني مرارا ما بالي، لكني امتنعت عن الإجابة، إنما وعدتها بالإفصاح لها عن كل شيء إذا ما أحضرت يوغورتا ونجية من المدرسة، اقتنعت باقتراحي وقبل أن تذهب تركت لي وصية للاعتناء بعبيدة.

في لحظة ما، بقيت أقول في نفسي أنه لكلّ الناس حياة يفكّرون فيها، وأنا لديّ مشاكل تشغلني، دراستي التي كنت سأنهيها بعد سنة، وحياتي التي كنت

سأبدأها بعد سنة، بدأت السنة وستنتهي أيضا ولم ولن أفعل شيئا. لا أفهم لماذا كل شيء انقلب ضدّي، حتى وبعدما خسرت والدي وجميلة، رميت بين بيوت الناس بأخي الصغير المريض، الذي يرفض التحدّث كأنه يعاقب نفسه على مشاهدته ما كان شاهدا عليه، محتاجا حنانا لم أعرف الطريق إليه أنا نفسي لأعطيه إياه، وبعدما توصّلت إلى اتفاق مع عائلة عبيدة ولو بشق الأنفس، وقعت في مستنقع العصابات، كيف حتى أخذني التيار إلى هناك. ليتني لم ألتق برشيد، ليته لم يساعدني على استرجاع حقيبتي وأموالي، لكنت ضيّعت سنة لاسترجاع وثائقي ومالي، لكنه لكان أرحم من مواجهة ما واجهته في هذا اليوم المشؤوم، كنت سأتعرّض للاغتصاب ثم شهدت آخر لحظات شخص أعرفه ونجوت من الموت بأعجوبة.

حاولت تهدئة نفسي قدر المستطاع قبل وصول يوغورتا. فأعددت لهم الغداء، وقبل كل شيء أخذت في صينية أكل لعبيدة مع دوائها. فرحت لرؤيتي كثيرا، لكنّها لم تحدّثني وقد فهمت أنها لا تريد مضايقتي باستهلال حديث معي. ولأكون صادقة لم أكن بعد مستعدّة لفتح صفحة جديدة معها، هناك بضع ثغرات بيننا يجب مناقشتها والتطرّق إليها بجدية قبل أن أحاول حتى.

لدى عودة عليا، وضعت الطفلين إلى الطاولة ليأكلا، من ثم نقلتهما إلى الصالون لمشاهدة التلفاز حتى يحين موعد عودة نجية إلى المدرسة؛ فأخي لديه فترة صباحية فقط، أما نجية فهي تدرس صباحا ومساءً. لتعود عليا وتجلس تحت سريري وتنظر إلي لمدّة.

في الأخير سألتني:

- ألن تطلعيني عن سبب بكائك هكذا؟

- وقعت في مشكلة، ولا أريد إدخال أحد معي فيها، لقد حذّرتموني و لم أسمع لكلامكم.

- أتقصدين رشيد الواعر؟ هل فعل لك شيئا؟

- لا، كان سيفعل، ومن ثم.. أعتقد أنه ميت.

انتفضت قائلة:

- ماذا فعلت أسيرم؟

- لست أنا لا تقلقي، عليا، أريدك أن تحتفظي لنفسك بما سأطلعك به، إنه أمر في غاية الخطورة، لو يدركون أن الكلام خرج سيأتون مباشرة إلى هنا، أتفهمين؟

أجابتني بنعم، فقصصت عليها ما صار معي بالتفصيل.

- آه، يا أسيرم عزيزتي لم وضعت نفسك بينهم؟ واتّصلت بالشرطة؟ تعتقدين أن الموضوع يتكون فقط من كابوني والدوخة؟ لو فكّرت هكذا فأنت ساذجة، إنه يفوقه بأشواط.

أشارت حولها وهي تقول:

- كل بيت في هذا الحي والأحياء المجاورة يملك عضوا من عصابته، ليس كأن الشرطة لا تعلم بأمرهم يا أسيرم، مهما كثر الشهود عليهم لديهم معارفهم وناسهم، ليسوا أشخاص بسطاء مثلنا من يمكنهم إيقافهم.

- وماذا الآن؟ أهذا يعني أني في خطر؟ أنا لا أهتم لنفسي، أخشى أن يصلوا أخي ويؤذوه.

- لا أدري، فلننتظر ونرى، نحن لا نسمع إلا إشاعات عنهم بين الحين والآخر، لا يمكننا التصديق ولا التكذيب، لكن الآن وبعدما رويت بنفسك لي أمرا كهذا، اقشعرّ بدني فقط لتذكّري القصص التي رووها عنه، لابد أنها صحيحة إذن.

- لا تزيدي همي يا عليا أرجوك.

- من الأفضل ألا تخرجي هذه الأيام حتى نرى ما الذي سيحدث، وإذا بقي الوضع هكذا علينا إخبار أبي ليساعدنا في حل المشكلة، فكابوني يحترم سكان الحي ولن يردّ أبي في طلبه الابتعاد عنك.

- لن أدخلكم في هذا الوضع، إنها مشكلتي، أنا من وضع نفسي فيها وسأكون من يخرجني منها، عديني ألا تطلعي أحدا يا عليا، فقد وثقت بك وشاركتك همي.

- أعدك، فقط أخبريني عن المستجدّات حتى أطمئن وأيضا أي شيء تحتاجين فيه مساعدة أنا هنا مفهوم؟

هززت رأسي موافقة، لتستمر:

- وفكّري مليا في اقتراحي، ربّما يمكن لأبي أن يساعد.



اختنقت، اختنقت لعجزي، ضربتني الحياة بين جدرانها ولم أجد طريقة أقف فيها في مكان واحد وأثبت، كالإعصار أصبحت حياتي، لا تتوقف عن تدمير كل ما يحوم حولي، البيوت والأرواح، لا أعتقد أنها ستهدأ حتى تأخذني أنا.

ضاقت بي الدنيا، ما عاد هواء الغرفة يكفيني، وما عاد المكان يحملني، ماذا أفعل؟ وكلّما تحدث معي مشكلة أفكّر تلقائيا في عماد! هل أخبره حتى يساعدني؟ خشيت عليه أن يقع معه مثلما وقع مع رشيد، فهذه المرّة ليست ككل المرات، مشكلتي عويصة ومستحيل أن تحل ببساطة. كنت من وضع نفسي في ذلك المأزق، لا دخل للأبرياء، ماذا أقول! وأنا، ألست بريئة؟

وكلّما نقصني الهواء وضاقت بي الدنيا واختنقت، قصدت الشرفة في حل، لأبحث عما ينقصني، المساحة، الاتّساع، الهواء. حتى خارج البيت لم تكن توجد هذه العوامل، فلا وجود إلا السماء متسعا للأعين، والعمارات القديمة منظرا ومساحة، ورائحة المحرّكات كهواء. رحت أبكي والدمع ينزلق على خدي، وسنين عمري التي تمضي في أشهر، أشعر كأني أشيخ مع كل ثانية تمضي، المشكلات تكبّر.

رفعت عينيّ إلى ذلك السطح وإذا بالمدخّن الغريب الوقح جالسا هناك، بين الظلمات أشعر به يراقبني، مسحت دموعي وقبل حتى أن أنزع يدي من على خدي، وجّه إليّ ضوءً كالمرّة السابقة وأطفأه بسرعة، ثم كرّر الأمر بضعة مرات وأخذ هاتفي يرنّ.

أجبت وإذا بصوت ليس بغريب وليس بمعروف يقول:

- تعالي قابليني، أنا وأنت لدينا ما نتحدّث فيه.

وبتردد وخوف، أجبت:

- من تكون؟

- سأكون كابوسك الخاص بعد اليوم.

صمت قليلا وواصل:

- واشية.

- هل أنت؟ أنت.

كان قلبي يخفق في اهتياج لمعرفته من يكون مذ قال "تعالي".

- هل اعتقدت أن الموضوع سيمر مرور الكرام؟

تنهّد ثم أكمل:

- هيا قلت تعالي. أنا بانتظارك.

- كيف! ماذا تظنني؟ كيف تريدني أن ألقاك في هذا الوقت المتأخر من الليل.

- لا يهمّني، تعالي وإلا قدمت لآخذك بنفسي، تدركين أني قادر على ذلك، ونصيحة مني لا تزيدي غضبي على ما هو عليه أصلا.

أخذت أبكي وقد تغيّر صوتي:

- ألا يمكننا الانتظار إلى الغد.

صمتت لوهلة ثم قلت:

- أنا خائفة، نحن في الليل، ماذا لو هاجمني أحدهم أو رآني أهل الحي.

- لا تخافي، لن يلحقك أي سوء، أنا هنا.

أهذا وعد بالأمان؟ ليستمر:

- أهل الحي نيام وأنت أدرى بذلك، الساعة قد عدّت الواحدة بعد منتصف الليل، هيا لا تتأخّري.

- هل أجدك في الأسفل؟

- أنا هنا.

ثم راح الرّجل الغريب يلوّح بالضّوء صوبي، ففهمت أنه هو، أيضا يكون المخيف!

- ستجدين رجالي في العمارة، ثم يرافقك أحدهم إلى السطح.

لم أكن أعرف رجالا كثر في حياتي والآن صار الرجال يأخذونني ويأتون بي، من مكان إلى مكان. دخلت بحذر للغرفة لأرتدي بنطلون جينز وقد كنت تركته هناك لأغسله، فلو فتحت الخزانة لاستيقظ أهل البيت جميعا من الصوت المزعج الذي تصدره، وزدت قميصا طويلا وأغلقته، كأنه سيحميني ما أغباني!

حرصت على الخروج من المنزل دون إصدار أصوات وقد نجحت. كدت أموت من الرعب، جسمي يرتعد من المستقبل المجهول الذي ينتظرني، أسيقتلني؟ أم ماذا؟ سأنكر، نعم، سأنكر، ما هو الدليل أني من أبلغت الشرطة؟ كان الحي غارقا في عتمة الليل المتقدّم، لا أحد هناك إلا بعض الشباب

في آخر الطريق لم يتفطّنوا لأمري بعد. فأسرعت إلى تلك العمارة، وإذا بي أجد رجلين ضخمين، لم أر وجههم جيدا فخمنت أنهم نفس أولئك الذين كانوا في محل رشيد ذاك الصباح، جالسين على كراسي، ليقف أحدهم ويسبقني دون التحدّث إليّ بينما أتبعه إلى فوق، أفكّر في مصيري، أهذه آخر خطوات أخطوها وهنا تنتهي حياتي؟ لمن أترك يوغورتا؟ لا أحد سيعتني به حقا؟ لن يحبه مثلما أحبه أحدا؟ تزايدت نبضات قلبي سرعة ونفسي يزداد صعوبة.

إلى أن وصلنا إلى آخر السلالم وإذا بالضخم يتوقّف ليقول قبل أن يعود أدراجه:

- تابعي صعود تلك السلالم، وستجدينه هناك.

صعدت تلك السلالم بقلق واضح، لأتمها مستسلمة. وجدته جالسا فوق كرسي متكئ كالعادة. أثناء اتجاهي إليه نظرت إلى بيت عبيدة وإذا به يقابلنا ، يظهر جيدا ما يحصل على الشرفة عكسنا تماما لا نرى شيئا في المقابل.

أخذ نفسا أخيرا من سيجارة كانت بين أصبعيه، ورماها ثم قال قبل أن يلمحني:

- اعتقدت أني لن أراك أبدا.

وقف متجها نحوي:

- لو علمت أنك ستبطئين لكنت أرسلت لك سيارة.

هو يقترب وأنا أبتعد حتى سدّ علي الطريق جدار غرفة صغيرة بالقرميد على ذلك السطح، فلم أشأ أن أحصر نفسي لذا توقفت عن المشي، فسألت سؤالا بغير محله:

- من أين أتيت برقم هاتفي؟

رفعت أنظاري إليه لثانيتين ثم أنزلتهما، فردّ:

- برأيك؟

صمت لبعض الوقت، بعدها واصل سائلا:

- إذن تشين؟

- ما قصدك؟

- لا تحسبيني مغفل أرجوك آنسة أسيرم، إياك وذلك، ليس من صالحك أن تكذبي في وجهي.

دنا أكثر بقليل ليزيد من حدّة صوته:

- تشين بي بعدما سمحت لك بالعيش، أهكذا تردّين الجميل؟ ردّي

صاح:

- ردّي..

اشتعلت أضواء بعض الغرف، وأطلّ من يجرؤ من نوافذهم، ثم عادوا إلى النوم، بينما أسأله:

- ومن أخبرك أني من فعل؟ لست أنا التي وشيت بك، لربّما يكون أحد رفاقك من وشى بك واستعمل فتاة ليمسح السكين فيّ.

أغلق عينيه ثم فتحهما، تنفّس بصعوبة كأنه مغتاظ ويرغب في نسف الدنيا في وجهي:

- قولي كابوني.

- ماذا؟

- قولي.

بدا عليّ التعجّب ومن ثم صرخ وهو يضرب الحائط، ما جعلني أتكئ عليه مرغمة وأنا أغمض عيني، فقد حاصرني هناك بذراعه:

- قولي.

وصوتي يرتعش:

- كابوني.

وبنبرة أكثر هدوء قال:

- اهدئي قوليها مرارا، بصوت ثابت، دعيني أسمعك جيّدا.

كان يتنفّس بصعوبة وكدت أشعر بنبضات قلبه تخفق من شدة غيضه، حتى وفي تلك الظلمة تمكّنت من رؤية عروق يده تكاد تنفجر.

وماذا تفعل المسكينة أنا، قلت لقبه مرارا وكررته حتى يسمعه بعدما أخذت نفسا، رغم غرابة الوضع ولم أفهم سبب طلبه ذلك، استنتجت مباشرة أنه مجنون.

أخرج من جيبه هاتفه من ثم بحث فيه قليلا ووضعه بيني وبينه، ولم يبق بيننا من فراغ إلا حق الهاتف، وإذا بي أسمع تسجيلا لصوتي وأنا أبلّغ عنهم، لا يمكنني شرح ما حدث معي من هول الأمر، ارتفعت حرارة جسمي ثم انخفضت في ثواني، أنزلت رأسي فقط وزادت دموعي غزارة.

- لماذا فعلت ذلك؟ ألم أحذّرك؟ ماذا حسبتني؟ اعتقدت أنك ستتخلّصين مني بهذه السهولة؟

ابتعد عني وبدأ يتكلّم مع نفسه:

- هكذا يحدث حين تفعل خيرا في من لا يستحق الخير، تركتها تعيش من ثم بلّغت عني.

ليعود إلي:

- لو سجنت هل تعتقدين أنهم سينسون لك هذا؟ اشكري الله أني هنا، لكنت الآن في تعداد الموتى ولكانت عائلتك قد صفيت على آخرها في دقيقة، كلّفتني اليوم بطوله بالتحقيقات، وذكرتي اسمي في قضية كان من الممكن أن أتفاداها، والأهم أنك جعلتني أخسر يوما من الربح، أعمالي توقّفت بسببك.

- آسفة، كنت خائفة وفكّرت أيضا في إنقاذ رشيد.

- لم يكن لرشيد أن ينجو بفعلته ولو أنقذته كان سيحين موعده، وأسفك هذا لن يحل شيئا، أحتاج تعويضا، تعويضا حقيقيا.

في السابق مقابل والآن تعويض!

- ماذا تريد مني؟

جلس على الكرسي، فتبعته بخطوات لا أدري كيف خطوتها:

- أنا لست مثلما تعتقد.

- وما هو ظني بك يا ترى؟

- ليس لدي ما أعطيه، لا مقابلا عندي ولا تعويضا.

- وبرأيك أنا أحتاج لجسمك أو مالك؟ وهل النساء قليلات أو مالي ينفذ؟ لدي ما يكفي من الاثنين، النساء تحت تصرّفي وأيما شئت، مالي لا ينفذ ولو أحرقت منه لتدفئي الشتاء بطوله. وتعلمين كم الشتاء طويل.

أخذ سيجارة أخرى وأشعلها، وهو يغمض إحدى عينيه قليلا أثناء نظره إلي وجذبه الهواء لتشتعل، ثم فتحهما.

وقفت أراقبه لبعض الوقت لأقول:

- ماذا تريد مني إذن؟ لست امرأة في نظرك ولا من أجل المال تريدني، فماذا ستجد لدى شخص مثلي؟

_اجلسي..

وهو يشير إلى الكرسي الذي بجانبه. فعلت ما طلبه، ثم أمسك بكرسيي وقرّبني به منه، فأمسكت لا إراديا في معصمه خشية من السقوط. قرّب وجهه مني وقال:

- لست أريد منك شيئا بل أحتاجك.

بصوت أضعف من الضعف سألته:

- لماذا؟

ماذا سيحتاج من ضعيفة مثلي، لا تملك غير قلب وروحا وحتى جسدها منهك.

أجابني:

- لا أدري.

ابتعد قليلا ليعود إلى موقعه الأول ويتكئ، أكمل بصوت أقل فظاظة:

- تواجدي فقط معي حين أستقضيك، في أي وقت، لن تقولي عندي أشغال ولا هذا ولا ذاك، وبالمقابل لن ينقصك شيء، تكونين تحت حمايتي وستعاملين كأميرة.

تعجّبت لأمره لكني وجدت نفسي أقول راضخة لقدر محتّم عليّ:

- إلى متى سيبقى الوضع على الحالة التي تنشدها؟

- إلى أن أثبت شيئا لنفسي ثم تصبحين حرّة.

التفت إلي:

- **لن تتعبيني أليس كذلك؟**

نظرت إليه وعيني تبرقان من دموعي الأخيرة، فأردف قائلا:

- **هل أنت خائفة مني؟**
- **وهل يجدر بي ذلك؟**
- **الأمر بين يديك في الواقع.**
- **لن تدخلني في عملك أليس كذلك؟**
- **وكأني أحتاجك في عملي.**

_ما حاجتك بي إذن؟

زفرت والدمع عاد لينزل، وأخذت أمسحها:

- **تعبت من المشكلات التي تلاحقني، كأني لن أعرف إلا البكاء والحزن في حياتي.**
- **توقفي عن البكاء.**

عاد ليقترب مني، لا أدري لم لكنه بدا حقا يكترث لقلقي وحزني، فضرب بلطف أطراف أصابعه بظهر كفي ليقول:

- **اسمعي، إذا بقيت مطيعة لن يصيبك مكروه، أعدك.**

- وهل تقبل أن يبقى معك الناس بالقوة، أن تجبرهم بإرهابهم أن يظلوا معك وهم في الحقيقة لا يطيقونك؟

- تكرهينني! لكنك لا تعرفين الكثير عني.

- أعرف ما يكفي، لا أفهم سبب رغبتك الشديدة في تعذيبي بهذه الطريقة، ولربما لن أفهما أبدا، لكني مجبرة عليها واعلم أني لست راضية أبدا عن هذا، لا أحب الكذب ولم أحبه يوما ولن أبدأ الآن.

توقفت حين تفطّنت أني أخاطر بقولي تلك الأمور.

- لا تخافي.. تحدّثي، قولي ما تريدين

- أريدك أن تعلم حقيقة مشاعري، أنا أرغب في التقيؤ فقط لجلوسي بقربك الآن، أكره المجرمين أمثالك، بسببكم خسرت عائلتي ولن أسامحكم أبدا، ولو كنت أملك القدرة لجعلتكم تدفعون الثمن غاليا.

- هل من مزيد؟

لم أجبه فأكمل:

- اغتنمي الفرصة جيدا لأنه بعد اليوم لن أسمح لك بالتقليل من احترامي.

صمتت قليلا لأسأله:

- أخبرني عن رشيد، هل..

- انتهى..

- يا ربي.

- يستحق ذلك.

- لا أحد يستحق ذلك.. أيها القاتل.

قال بينما رحت أبكي بشهقة:

- لو تعلمين ما فعله ما كنت بكيت عليه هكذا.

- مهما فعل إنه إنسان، ولابد أنه كان خائفا، المسكين.

- انزلي، اذهبي إلى بيتكم الآن سأتصل بك غدا.

- اتركني وشأني أرجوك، لدي مشكلاتي أصلا لا تزدها عليّ، وأخي يحتاجني كثيرا، إنه مريض وليس لديه غيري.

أمسكت بيده وقرّبتها مني، وهو يرمقني بتلك النظرات التي لم أملك لها تفسيرا حينها:

- أرجوك، ها أنا أتوسل إليك.

- لماذا تعتقدين أني سأغير حياتك؟ هل أنا سيء لهذه الدرجة بنظرك؟

- حياتك وحياتي مختلفتان وستصطدمان شئنا أم أبينا، وثقل آخر على كتفي سيقسم ظهري، اعتقني من هذا الالتزام، كن رحيما حتى يرحمك الله.

حين لم يجب واصلت:

- وما النفع مني؟ قلتها بنفسك لديك النساء والمال ماذا تفعل بسخيفة مثلي لن تأتيك إلا بالمشاكل.

- أحتاج لمشاكلك، أنت لن تفهمي أبدا، اذهبي لتنامي وغدا أتّصل بك.

وقفت من مكاني وقلت بصوت مرتفع بعض الشيء:

- وماذا سنكون أنا وأنت؟ عدوان في علاقة؟

- لك أن تختاري ماذا تسمين العلاقة، فعلاقاتي كثر ولا أجد نفسي مجبرا على تسمية كل واحدة منها.

- لكن العلاقات تبدأ على أساس العمل، الاحترام، الحب، وأنا لا أكن لك إلا الكره.

- إذن اعتبريها علاقة كره.

وتطلّع بعيني فوجدهما تقدحان نارا من الكره الذي طلبه، فهز رأسه مشيرا علي بالمغادرة:

- هيا، عودي من حيث أتيت.

لم يبق ما أقوله أو أفعله، حتى أني ترجيته ولم أترجى إنسانا في حياتي كلّها مثلما فعلت معه. فأخذت كرامتي ودموعي وألمي وجرحي ورحلت مثلما أتيت، إلا أن الثقل زاد ثقلا والقلب أكثر غما والدنيا أحلك ظلاما والروح فوقها حطاما.

على فراشي استلقيت، وصدري عليه زاد الهم، كأن حجارة كبيرة مرساة عليه. ألتفت على يساري فأتنهّد، ثم لا أجد راحة فأعود وأقابل السقف، فلا أجد راحة هناك أيضا، لألتفت يمينا فأجد عليا قد استيقظت وهي تنظر إليّ، لابد أني أيقظتها من كثرة تحرّكي على السرير. إلا أنها لم تقل شيئا. في مرحلة ما أخذني التعب ونمت، حتى ساعة متأخرة من النهار، لم يكن أحد في الغرفة، حتى يوغورتا، فانقبض قلبي وضاق نفسي، اعتقدت أنه اختفى، أخذوه أو فعلوا به شيئا ليعاقبوني. أسرعت إلى غرفة المعيشة فلم يكن هناك أحد، لأتجه نحو المطبخ، نفس الشيء، ثم سمعت صوت عبيدة يناديني، لأجري إلى غرفتها والخوف يعتلي وجهي، وفي الأخير أطلعتني أن عليا أخذته ونجية إلى المدرسة بما أني كنت متعبة ولم تشأ إيقاظي.

استغربت تقبّل أخي لذلك، فهو لا يحب مرافقة أحد غيري. لن أكذب ارتحت كثيرا، فعدت إلى الغرفة قبل أن تمسكني عبيدة بالكلام، فلم أكن بعد مستعدّة لها، ولا لغير المشكلة التي وضعت فيها نفسي مؤخرا.

غيّرت ملابسي بعدما استحممت، وبعيني المنتفختان خرجت من البيت متجهة نحو مركز الشرطة لأسأل عن قضية أبي وأين وصلت، أخبرني السيد شعبان أنهم لم يفتحوها وكرر علي وجوب الاستعانة بمحام جيد لفتح القضية لإعادة التحرّيات.

رحت أمشي والتعب أخذ من قوتي الكثير، رأيت على بعد أمتار حديقة صغيرة يشغلونها بعض كبار السن من رجال ونساء، فيها شجيرات ومقاعد وممرات مرصوفة. جلست على إحدى تلك المقاعد أراقب الأرض الجامدة لمدّة دون التفطّن لما يدور حولي، أفكّر في حياتي الضائعة، مدرستي التي تركتها والمتاهة التي دخلتها.

أحسست برعشة صدفة حين شممت عطرا يشبه عطره، ورغبت في التقيؤ ممسكة نفسي بالقوة. رفعت عيني قليلا لأرى حذاء أسود كبير الحجم، وأرفعهم بعد لأجد تلك الساقين الطويلتان وصولا إلى عرض الكتفين ثم عينيه، تلك العينان دائمتي الشك والتساؤل والحاجبين المتشابكين.

تنهّدت وزاد ألم قلبي والألم الذي برأسي:

- ماذا الآن؟

- ماذا فعلت في مركز الشرطة؟ أتنوين على شيء بعد؟

- يا سيد أرجوك ارحمني، لا أنوي شيئا يخصّك، عندي مشاغلي ومشكال أخرى في حياتي، ألن أرتاح أبدا؟

جلس إلى جانبي وأخذ علبة سجائره، وضع سيجارة بين شفتيه وأشعلها، قال:

- لست غافلا، أعلم لماذا قصدتهم، يصلني كل شيء.

- جيّد، لم يعد هناك أشخاص أثق بهم ولا حتى الشرطة.. وهل تنوي مراقبة كل أفعالي؟

- بما أنك كارهتي، عليّ الحرص بأنك ستكونين بخير دائما.

- وهل أنا في خطر؟

- ربّما تكونين، لم يكن موت والدك وزوجته طبيعيا بل مفتعل، ألم تتساءلي من قد يرغب في موتهما وبتلك الطريقة؟ حتى أنهم بحثوا عنك وأخاك ولم يجدانك، أية عملية سرقة ما كانت لتنتهي بهذا الشكل.

- وما أدراك أنت بكل هذا؟

أطلق ضحكة خفيفة كأنه يستهزئ بي، ليتوقّف مرّة واحدة ويقول:

- يهمني كل من حولي وأنا أريدك بقربي الآن، وإلى أن أشبع منك كل ما يخصّكِ يخصّني شخصيا.

- تحسب حياة الناس لعبة؟ تستعملني حتى تشبع مني ثم ترميني؟ أصلا لا أفهم ما النفع مني؟

رفعت عيني إليه متسائلة.

- دعك من هذا الآن..

حينها فكرت في أنه يعرف الكثير عني وما يخص المجرمين، لربّما أستطيع فهم بعض الأمور منه:

- أخبرني.

التفت برأسه مسرعا إلي كأنه لم يتوقّع مني هذه الكلمة، وبتلك الطريقة الهادئة الراضخة:

- لم برأيك قد يرغبون في أذيتي وأخي حتى بعدما قتلوا أبوينا؟

- على ما يبدو القتلة..

استوقفته قائلة:

- المجرمون.

"وأنت منهم" هذا ما كنت أقوله في نفسي لولا الخشية من مشاكله لأطلعتها من بطني.

هزّ رأسه ثم واصل:

- القتلة..

وكأنه يتحداني ويروّضني، وكأنه من الممكن ترويض خيل هاج بعدما كان مروّضا:

- القتلة لم يأخذوا شيئا، وهذا يدل على عشوائية الجماعة التي قامت بالعملية، وكأنها جديدة في الميدان، فأي قاتل مأجور في عملية ما يحتاج إلى تمويه ما كان خرج دون أخذ شيء غالي على الأقل حتى تبدو كأنها عملية سرقة وانتهت بالقتل، وهذا هو الخطأ الذي وقعوا فيه.

- صحيح، وقد أخبرت الشرطة بهذا، حتى أنا لم أقتنع بالموضوع.

- دعيني أنهي كلامي.

لا، عليه أن يكون متسلطا حتى أثناء حديثه في موضوع يخصّني؟ استمر سائلا:

- هل والدك كان يتعامل في تبيض الأموال أو أمرا غير قانوني تكونين قدد سمعت عنه؟

- لا، بالطبع لا، والدي ما كان لينخرط في مسائل كهذه، إنه رجل نزيه.

تنفست بصعوبة ثم أطلقتها:

- إياك وأن تعيد مثل هذا السؤال.

- سأتجاهل تهديدك، وأتظاهر أني لم أسمعك.

أرجع علبة سجائره إلى جيبه واقترب قليلا ثم قال:

- العملية فيها بعضا من الغموض، وبما أن الشرطة لملمت الموضوع بسرعة فهذا يعني أن يدا ما منخرطة في الأمر.

راح يفكّر لثوان وهو يحك ذقنه:

- لابد أن والدك عرف أمورا لا ينبغي أن يعرفها وقد صفي مثلما يصفّى أي مزعج في مجموعة.

عاد لصمته لوهلة، وقال:

- لابد أن تحذري، فهم اختاروا عائلتكم ليس عبثا، ليجعلوه يصمت عن شيء ما وهذا ما عليك البدء منه حقا، أعتقد ليجعلوا منكم عبرة أيضا، أي عصابة وهي في منتصف عملية كبيرة ستفعل أي شيء لتسير الأمور كما يجب.

رمقني ثم قال:

- أي شيء، وصدّقيني هناك بعض الأيادي الخفية التي تحرّك الأمور من فوق، إنهم من يحمون هؤلاء.

- يحمون أمثالك؟

- لست بحاجة لحماية أحد، بل العكس.

بدا حانقا وهو يقول:

- اسمعي، لا تضعيني في نفس الموقع مع هؤلاء، فأنا أستعملهم لأحقق مرادي أما الآخرون فيكونون لعبة بين يديهم، وهذا أمر لن أقبل به أبد، مفهوم.

هززت رأسي موافقة:

- لكنك لم تخبرني لحد الآن لماذا نحن في خطر بعد؟ أم أنك تحاول فقط إخافتي لأعتقد أني أحتاجك؟

- أنت بحاجتي فعلا، وأنا لا أكذب أبدا.

- نعم، لا تكذب، بل تقتل فقط، لهذا الحد أنت بريء.

أجابني:

- أتعلمين، لست مجبرا على إخبارك بشيء، فأنا في نظرك لست إلا مجرما لا يملك من الذكاء شيء، دعيني فقط أخبرك أنك لا تعرفين مصلحتك أبدا، ففي هذه الثورة التي أنت في خضمها لن يخلصك أحد غيري.

وقف من مكانه وراح يمشي فخشيت أن يكون على صواب فأخسر رأيه وحمايته، لذا أسرعت وراءه، ممسكة بسترته من الوراء:

- توقّف.

أطاعني، فقلت:

- أخبرني المزيد.



التفت وردّ:

- اتبعيني ولن تتعثّري ثانية، سأرشدك إلى طريقك أوصلك حيث ترغبين، فقط لا تكوني غبية.

وراح يمشي ثانية متجها نحو سيارته، بقيت واقفة مكاني معتقدة أنه كلام مجازي، ليستدير ثانية:

- ألن تأتي؟

وهو يفتح باب السيارة. نظرت إليه بضع ثوان قبل أن أرافقه، فورما ركبت:

- ماذا بعد؟ أريدك أن تخبرني أي شيء قد يساعدني.

انطلق بالسيارة، وقال:

- سيأتي يوم ويلحقوكما فأنت وأخاك تعدّون من العائلة وهم ينتظرون الوقت المناسب فقط، أي عندما تهدأ الأمور. أولا لتكونوا عبرة لباقي المجموعة التي تعرف بالأمور السرية تلك ثانية لأنك لم تدعِ الموضوع يدفن وأنت تبحثين بين الأنقاض عما يدينهم، لن يدعوا فتاة مثلك تزلزل أرضهم، أتفهمين قصدي؟

من الدهشة فتحت فمي:

- والآن كيف؟ ماذا أفعل؟

وقد بدا كمن شعر بخوفي:

- أنا معك الآن وهذا ما يجب أن تقتنعي به، وجودي يساعدك أكثر من عدمه، فأنت بحاجة لمن يقف معك، صدّقيني.

- هل أنت متأكّد؟ ماذا لو كان الموضوع حقا عملية سرقة فاشلة؟

لم أشأ التصديق بأني ويوغورتا لا زلنا نعيش تحت التهديد.

- متأكد كل التأكيد، أدرك هول الأمر، وكم يمكن أن يكون صعبا عليك، لكن عليك مساعدتي حتى أتمكن من حمايتكما.

- لكني لا أفهم سبب قيامك بهذا.

نظر إلي ثم عاد وتطلّع بالطريق:

- اعتبريها حسنة، أو نوعا من التجارب بسبب الملل الذي يحيط بي، تحصلين خلالها على ما ترغبين وأحصل أنا على ما أحتاج.

- لكني من يحتاج، ربّما عليك انتقاء الكلمات أفضل من هكذا.

- أنا أنتقيها جيّدا صدّقي ذلك.

- إلى أين تأخذني الآن؟

- عندي موعد مع صديق قديم، سيأتي بامرأته لذا قلت وبما أنك معي سترافقينني.

- هل أنت جاد؟ لم تسألني حتى وبعد ساعة ونصف عليّ إحضار أخي من المدرسة.

_أعيدك قبل موعد خروجه.

عندما وجدني غاضبة وغير قادرة على الردّ، أرادني أن أجيبه:

- ألن تعارضي الموضوع؟

وهو يراقبني مستمتعا، بابتسامة على وجهه، لم أفهم سبب رغبته الشديدة في تعذيبي أو رؤيتي مغتاظة أو خائفة، غريب أمره، أليس كذلك؟

- وهل يمكنني؟ إنك كمن يضع خنجرا على رقبتي ويسأل رأيي، وكأنك تترك لي مجالا للاختيار حتى أعارض أم لا. سأدعك تفعل ما تشاء، لا أفهم لعبتك هذه وأنا متأكدة أني إحدى اللاعبات فقط وسيأتي يوم وينتهي دوري، كالعادة، فلكل لعبة نهاية.

- اللعبة تنتهي حين تصل علاقتنا إلى نهايتها.

- أية علاقة تقصد، أنا لا أعرف حتى اسمك.

- أنسيت حديثنا بالأمس؟

كيف أنسى وأنا التي من كثر ما فكّرت به حفظته، واصل:

- نسيت أنك أسميت علاقتنا وانتهيت؟

ابتسم قبل أن يقول:

- يبدو أنك ستتعبينني هذه المرّة.

ماذا قصد بهذه المرّة؟

- وهل الأخريات كن سهلات؟

- نعم ولا، الأولى أتعبتني أما الأخريات فلا، لهذا عدت إليك.

وهو يحدّق بي كأن عينيه اخترقتاني، أحسست كأنه يريدني أن أفهم شيئا، ما هو يا ترى؟ تطلّع بي والعسل يتقطّر من مقلتيه، دفئا جامحا وصلني منه، استغربت أمري وأنا مأخوذة بهما، أليس هو الشيطان أم أنه ملاك، أيفتنني بشر أو بخير، فيه خير أصلا؟

ما الذي يحدث؟ انزعي عنه عينيك يا غبية، لا أقدر، وهل أنت مجنونة؟ بل أنا مسحورة، لا تكوني متهوّرة.. آسفة.. لا تأسفي تذكري أخيك.. أنت محقّة. فغلب نصفي الأول نصفي الثاني وعقدت حواجبي وعاد تعبير وجهي الغاضب يحتل مكانا كبيرا في قلبي، محاولا سدّ ثغرات أخطائه.

عندما حوّل نظره إلى الطريق كان الطريق مغلقا، حتى كاد يصطدم بالسيارة التي تسبقنا، أخذني الميل إلى الأمام، بينما يخرج صاحب السيارة الأخرى رأسه وهو يشتم كابوني، وهذا الأخير لم يتمالك أعصابه وبطبيعة الحال خرج إليه في حالة حنق لم يسبق لي أن شهدت مثيلتها، أمسك الرجل من ياقته جاذبا إياه بعد أن فتح بابه. انهال عليه بالضرب، ورغم محاولات الرجل اليائسة في رد ضرباته عجز حتى عن صدّها، لم يدع له كابوني المجال حتى أن يقترب منه. لم يستحق الرجل تلك المعاملة، لا يتجاوز الأمر كونه سوء تفاهم بسيط، لذلك خرجت لعلّي أنجح في تهدئة كابوني.

عندما لمحني ثبّت الرجل إلى سيارته بينما يحتشد القوم عليهما، وهو يشير بيده التي حررها إليّ، صرخ قائلا:

- عودي الآن إلى الداخل.

- أرجوك دعه وشأنه.

- قلت ادخلي.

فاغتنم الفرصة صاحب السيارة وضربه على فكّه ليجبره على الابتعاد قليلا، ما أزعج وأغاظ كابوني وبخبطة من دماغه وقع الرجل فاقدا وعيه. بزق عليه. اقترب منّي ليدخلني إلى السيارة قبل أن ينزع سترته ويرميها إلى المقعد الخلفي ثم ركب وانطلق، فقد تسرّح الطريق.

بعدما رأيت في عينيه كما هائلا من الحنان قبل الحادثة، عادت حقيقته لتظهر ثانية حتى تذكّرني بألا أكون سخيفة وأعتقد أنه بشر مثلنا، هو لا يشعر بغيره، كيف سيشعر بي؟ رمقته بنظرات تملأها الخوف، فقلت:

- لقد قتلته.

- لم يمت بل غائب عن الوعي فقط، لا تخافي.

رمقني للحظة بنظرة متعجبة، وجدني ملتصقة بالباب مبتعدة عنه قدر المستطاع:

- اقتربي، لم أنت جالسة هكذا؟

- لا، ماذا لو غضبت وفعلت بي نفس الشيء، فأنا كل ما ألتقي بك تقتل شخصا، لا يمكنني الارتياح وأنا بصحبتك.

- لا تغلي رأسي بهذا الكلام، لست بمزاج يسمح لي بأن أسمع كلاما كهذا والآن اعتدلي في الجلوس.

- لن أفعل.

- حسنا، ابقي هكذا حتى تؤلمك..

تطلّع بي بصمت، ثم قال:

- رجلاك.

كأنه راح يقول كلاما آخر وسحبه في الأخير. هل حقا يقيم اعتبار لأحد ما؟

قصدنا مطعما بالسطاوالي، كان فخما، كالذي يأخذنا إليه عماد أنا وكريمة كلّما نجح في أحد مشاريعه، آه كريمة، لقد اشتقت إلى صديقتي، سافرت إلى انجلترا ولم نتصالح، أخبرني عماد بذلك. رحلت قبل ثلاثة أيام، ليتها هنا لتساعدني، لكنت اعتذرت منها على تقرّب مراد إلي. لأبقيت على شخص في يده أن يحمل معي هموم الحياة، لنصحتني وقالت لي كالعادة أنها ستقف معي إلى أن ينتهي كل شيء.

ملابسي لم تلائم المكان طبعا فقد خرجت مسرعة، ولا شعري كان ولا وجهي الشاحب أيضا، والزبائن لم يغفلوا عن ذلك، أخذوا ينظرون إليّ كأني خارجة عن القانون، آه، أنا برفقة أحدهم، ربّما أكون إذن.

تصافحنا مع السيد والمرأة التي برفقته، بدت ملابسهما أنيقة أكثر من اللزوم، أيحسبون نفسهم في فيلم؟ ولغرابة كابوني ذاك قدّمني على أني صديقته، وهل أتاجر معك في الأسلحة أم ماذا؟ لا أذكر اسميهما حتى فأنا لم أعرهم انتباهي. جلست فقط أتذكّر حياتي سابقا وما كانت عليه، إن في ذلك المطعم شيء يربطني بعلاقاتي السابقة التي محيت في لمح البصر، عماد

المسكين لم ينساني، يتّصل بي دوما مع أني لم أجب عليه منذ يومين، فقد بدأت المشاكل تتراكم على رأسي، فما أن انتهيت من مشكلة عبيدة حتى رمي على رأسي موت رشيد والعلاقة الشهيرة التي يريدها كابوني، أو خليل، مثلما ناداه السيد، يومها عرفت اسمه الحقيقي، هذا يجعله أكثر واقعية، مع أن لقبه يلائمه جدا، فهو ليس وديعا كخليل وشرسا أكثر من أن يكون اسمه بهذه البساطة، لابد أن صديقه هذا حقا ذكّره بأنه إنسان عادي، أليسوا أصدقاء الطفولة هم الحقيقة الوحيدة في حياتنا؟ كل ما يحدث في سن الطفولة هو ما سيرافقنا خلال مسارنا في الحياة، إما يرفعنا أو يوقعنا في فخّه.

قبل موعد خروج يوغورتا بعشرين دقيقة اعتذر منهم وقال أنه لديه موعد آخر، كنت أريد تذكيره لكنه لم يحتج ذلك، في الحقيقة، منذ أن التقيت به وهو يبهرني، أحيانا يكون متفهما ورقيقا بعض الشيء وبين اللحظة والأخرى يتحوّل إذا صادفه عاملا بسيطا لا يريحه، في يومين التقيت بأكثر من كابوني في خليل.

أثناء ذهابنا إلى موقف السيارات، قلت دون سابق كلام:

- خليل.

التفت إليّ كأنه تفاجأ من الأمر:

- تدعى خليل إذن؟

هزّ رأسه إيجابا، ثم راح ليدخل:

- خليل..

- ماذا؟

- لا شيء، فقط أردت التأكّد من أنك حقيقي، أفضّل اسمك هذا، فكابوني ذاك لا يعجبني أبدا.

رفع عينيه إلي متسائلا عاقدا حاجبيه، ليقول كمن تفطّن لأمر:

- لا تدعيني أخدعك، كابوني وخليل واحد.

هز رأسه يمينا:

- اصعدي ودعينا نذهب.

3

بعد أسبوع من اتصالات خليل، والذي سأدعوه خليل من الآن فصاعدا حتى أنسى الوحش كابوني. لم نلتق خلاله ولا مرّة، إلا في هجعة الليل وهدوء الحي من ضوضاء النهار، عندما يرغمني الاكتظاظ في الغرفة إلى الاستعانة بالشرفة وهوائها شبه النقي، فأجد خليل في نفس المكان المعتاد، رغم تقزّزي الشديد منه إلا أن الغرفة تضع يديها حول رقبتي، في بيتنا القديم غرفة كتلك خصصناها للأحذية أما الآن فبتت أنام فيها وأتقاسمها مع ثلاثة آخرين. بعد سقوط كل ليل يسهر على مكالمتي ولو لدقيقتين يسألني عن علتي والتي يقرأها من بعيد، فأود أن أجيب أنه سبب علّتي فأنسحب حتى لا يكون مصيري شبيه بمصير رشيد، الذي خرج أخيرا خبر وفاته غير المتوقّع

لأهل الحي مصدّقين أنها مجرّد جرعة زائدة التي أودت بحياته. حتى نهاية الأسبوع أعطاني موعدا عند زاوية من زوايا الحي آخر الشارع. انزلقت داخل السيارة عندما وجدته ينتظرني. عمّ الصمت لبرهة فأنا لا أملك شيئا يجمعني بهذا المخلوق.

ظل يحدّق بي لبعض الوقت، حتى كسر الصمت وسألني:

- إلى متى سيبقى هذا الوضع قائما؟ اسمعيني، إذا أردت التخلّص مني في أقرب وقت، ربّما عليك التساهل بعض الشيء والانخراط في هذا الذي يحصل.

- وما الذي يحدث؟ فأنا بالفعل لست أفهم.

- اندمجي فحسب، لا تدعيني أشقى.

- فهمت، ماذا تريد الآن؟

نظرت فيه فوجدته يحدّق بي كأنه يشتاق، فقلت:

- لقد تركت أخي يلعب خارجا وأخشى عليه.

- أصحابي في كل مكان هناك، وهم يعرفون أنكم معي، لذا لن يحدث أي مكروه.

اقترب بعض الشيء مني كأنه أراد أن يقبّلني، فابتعدت، فابتسم وقال:

- لا تخافي، كنت أحاول رؤية لون عينيك، فأنا لا أعرف لونهما، تطلّعي بي قليلا.

- أنت غريب.

- هيا أرجوك، أودّ رؤيتهما حقا، افعلي هذا من أجلي.

رفعت رأسي رافضة، ليضحك ويكمل:

- سأعرف لونهما أسيرم، اليوم أو غدا.

- ما الذي ستربحه حين تفعل؟ فهي ليست إلا عيونا عادية ككل العيون.

- أعرف أنهما واسعتان كما البحر، كفنجاني قهوة لذيذة أرغب في ارتشاف القليل منهما، قهوة لم تصنع مثلها قبلا ولا بعد، نقية وصافية، وحتى تثبتي العكس سأرغب في تحويلها ولن أهدأ حتى أنجح، وإذا رأيت لونهما سأعرف الطريق إليهما ربّما، فأنت وقلبك لا تسمحان لي بالدّخول.

رفعت عيني قليلا حتى أراه بطريقة تمنعه من التحقيق في عيني، ليبتسم ويكمل:

- ربّما لن أستأذن بعد الآن.

- كأنك استأذنت قبل الآن.

بصوت منخفض بعض الشيء. ثم التفتت إليه وقلت:

- ألن تدعني أذهب؟ حسنا، ها هي عيوني، لونهما بني، ليستا نادرتين.

قرّبت وجهي إليه فاتحة عيني على وسعهما:

- هل اكتفيت؟ أمن أجل هذا طلبت لقائي؟

تراجع إلى مقعده ثم أجاب:

- لم أطلبك من أجل هذا طبعا.

أخذ من جيبه مالا سلّمني إياه:

- خذي، أنا مسافر لمدّة، أريدك أن تحتفظي بها حتى أرتاح.

استغربت ذلك:

- لماذا؟ لن آخذها.

وبصوت عال:

- قلت أمسكي، لا تغضبيني الآن.

- مددت يدي من خشية أن يغضب، أردف قائلا:

- لن يطول غيابي مثلما قلت، أسبوعين وأرجع، لكن إذا احتجت أي شيء، أي شيء اتّصلي بهذا الرقم.

ثم أخذ هاتفي وسجّله مع اسم صاحبه (سعيد):

- إنه صديقي المقرّب ومساعدي، لقد أوصيته بك لذا، ليس عليك أن تخافي فأنت لن تواجهي أية مشكلة.

- لكني لم أتعوّد على أخذ المال من الناس، الرّجال.

ضحك وقال:

- أنا لست أي رجل تأخذين منه المال، كما أننا في علاقة يحق لي أن أعطي المال لمن تكرهني ومن تكرهني لها حق على رجلها.

ماذا قصد بهذا؟ لم أعد أفهم شيئا، كان المسير الوحيد في هذه العلاقة! حتى أنه أقنعني أننا على علاقة، علاقة كره!

- أنهيت؟

- أجل.

وحين شققت الباب لأخرج، اقترب مني وقال:

- ألن تتمني لي السلامة، سأسافر، وربّما يصبح الوضع خطيرا هناك.

- مع السلامة.

كنت أقول في نفسي وأنا أترجل من السيارة: "طريق السد الي يدي ما يرد". وجدت نفسي ألتفت إليه مرات عدّة، أتساءل في داخلي إن كان بالفعل بحاجة إلي؟ وما الذي يريد إثباته لنفسه بلعبه بي هكذا؟ خطرت ببالي فكرة أنه يحبّني، وفي المقابل، هل لقاتل أن يحب؟

أما قلبي الشقي فقد أشفق عليه آخر الأمر، ليس كأني أكترث لأمره، غير أنه لم يبحث عن الود من شخص يكرهه من عدم إلا إذا تخللت نفسه ثغرة يحاول سدّها. الإفراط في الحب أو لاّ حب يثير فجوة في روح الإنسان، فيبحث عمّا هو مختلف ليحي ما مات فيه، أم لأنه محاط بالنساء دائما يبحث عمن تجعله يتعب؟ ففكّرت ربما كان يقصد هذا حين قال أنه عليّ الاندماج حتى أنتهي منه، ربّما علي أن أكون ودودة معه لأخسره أو أربح الحرب ضدّه.

عدت أدراجي مستعجلة، حينما لمحني أنزل زجاج النافذة وهو يرسم ابتسامة خرافية، عندما انحنيت لأضع معصميّ على حافة الباب، قلت:

- عد بالسلامة.

بابتسامة عذبة، أسقطت نظراتي أرضا لأرفعهما إلى وجهه ثانية وأواصل:

- لأني منذ الآن بدأت أخاف.

وهربت من هناك كأني استحيت، في الحقيقة نعم، استحيت، وكأني عنيت ذلك، لا أدري. استدرت أثناء ذلك مرّة لأجده قد خرج من السيارة وهو ينظر محتار، مأخوذ، وكأنه صدّق كلامي، وكأنه سعيد بذلك، وكأنه أحب ذلك.

عند أول قرنة اختبأت لأسترجع أنفاسي. صرت مخادعة، أنا، أسيرم، أستعمل عيني وابتساماتي لأوقع برجل، وأي رجل، رجل عصابة، كأن ذلك يكفيه يا غبية.

عندما رجعت إلى البيت وجدت عليا تبكي في الغرفة، فسألتها عن سبب بكائها، اعتقدت أن والدتها مرضت وهي خائفة عليها، وقد كان السبب هو الدراسة، يبدو أنها لا تفهم بعض الدروس في العلوم التجريبية والرياضيات وتخشى أن تعيد السنة ثانية، قالت أنها لا تملك المال لأخذ دروس خصوصية، فاقترحت مساعدتها، فرغم أنه لم يكن تخصصي لكني كنت جيّدة جدا في المواد العلمية. سعدت عليا كثيرا بذلك. يبدو أني أتأقلم أكثر مع محيطي وهذه العائلة التي ترغب في ضمي وأخي بشدّة.

انتهى شهر أيلول، وخلال الأسبوعين الأخيرين لم يتّصل بي خليل، بل تواصل معي صديقه ليطمئن عليّ من خلاله ويوصيني بقصده إن احتجت أي شيء، لأنه يتعذّر على خليل الاتصال حاليا، لم أكن أعلم أني صرت أهتم لأمره، فقد شعرت كأني أدمنت في وقت قصير هوسه بعلاقتنا.

رحت مع يوغورتا ونجية إلى غرفة المعيشة لتناول العشاء فلم أجد الطاولة معدّة بعد. تركتهما لأذهب إلى المطبخ فلم أجد أحدا ولا رائحة طعام، وقد كنت بدأت أشعر بجوع شديد. اقتربت من غرفة عبيدة فسمعتها توشوش مع زوجها وعليا. لكني خجلت قليلا فابتدعت عائدة إلى غرفة المعيشة. جلست بقرب نجية وسألتها ماذا يحدث، فقد بدت كأنها تعرف كلّ شيء.

قالت بصوتها الرّقيق:

- والدي لم يقبض راتبه بعد، لهذا ليس معنا نقود لنشتري الطعام.

- وهل تبقون دون أكل؟

- عادي، يحدث هذا بين الحين والآخر، لكن عند نهاية الشهر فقط.

لكنّ أكتوبر دخل، أما يزال الناس يبقون جياع في بلد كبلدنا؟

حينها سمعت صوت عليا من ورائي تصرخ:

- اصمتي نجية، كيف تجرئين على التحدّث هكذا؟

هزّت نجية كتفيها مجيبة:

- لكنّها الحقيقة.

بقيت تهددها بإشارات بيدها، قمت من مكاني متجهة نحوها:

- دعيها تقول ما تريده يا عليا، إنها صغيرة فلا تسكتيها الآن وإلا سكتت طوال حياتها.

اقتربت منها أكثر:

- ألا تعتبرينني من عائلتكم عليا؟

هزّت رأسها إيجابا:

_بلى.

- إذن لم تخفون عنّي أمورا كهذه؟

- ماذا تتوقّعين أسيرم؟ بأن آتي إليك وأقول نحن فقراء ولا يمكننا إتمام شهرنا إذا لم يدفعوا لأبي في وقته. كما تعلمين هو لا يشغل منصبا ثابتا ويعمل صباحا وليلا ليأتينا بما يمكنه، لكن هذا لا يكفي.

ابتسمت بحزن مواصلة:

- وهو لا يريدك أن تشعري بالأمر، المسكين يخشى أن تحتقريه.

وكأنها تعاتبني بعض الشيء:

- لكن لا تقلقي لقد تدبّرنا الأمر، اتّصلنا بفاروق ليستلف بعض النقود عند صديق والدي ثم نردّهم.

- تسببت لكم بالحرج، يا إلهي أنا جد آسفة.

- لا تقلقي.

- اسمحوا لي بأن أساعدكم، لديّ مال لا أحتاجه.

قصدت المال الذي أعطاني إياه خليل، مائة ألف دينار جزائري، لم أشأ استعمالهم في علاج أخي وقررت تركهم للحاجة.

- ماذا تقصدين؟ إياك أن تعيدي الكرّة، والدي لو علم أنك سمعت بالموضوع أصلا سيغضب، ماذا لو اقترحت هذا؟ سيفور حنقا.

- حسنا، أنت ساعديني في الأمر، أعطيك المال وقدّميه له.

- دعك من هذا أسيرم، شكرا على رغبتك الشديدة في المساعدة، لكنك ستساعدين أكثر لولا تطلعي أبي بأنك تعرفين، سيتحطّم، أصلا إنه يشعر بالخجل منك لأن العشاء طال حضوره.

أمسكت بيدي ثم تابعت:

- لا تقلقي، سنتدبّر أمرنا كالعادة، فقط اصبري معنا.

- حسنا، سأفعل ما تقولينه، أنت أدرى.

- سيصل العشاء بعد دقائق، سيأتي فاروق بالبيتزا، سيكون الأمر ممتعا، لم نتناولها منذ مدّة.

- وأنا اشتقت للبيتزا.

التفتت إلى يوغورتا، وقلت:

- حبيبي، سنتناول بيتزا الليلة، هل أنت سعيد؟

أومأ برأسه إيجابا، ثم التفتت إلى نجية:

- وأنت؟

- سعيدة جدا، ميام... ميام.

جاءنا أخيرا فاروق بعلب البيتزا تلك، اجتمعنا حول الطاولة، لن أكذب كنت جائعة فأخذت أتناول قطعة بعد أخرى وكأنني أتيت من غابة بعيدة عن التحضر. وخلال أخذي للقطعة الأخيرة تطلّعت بفاروق لأجده يضحك وهو ينظر إلي، ثم التفتت إلى العم عمران، فوجدته يبتسم وكأنه يمنع نفسه عن الضحك بالقوة يحث أثناء ذلك ابنه عن التوقّف، والباقين يتطلّعون بي بتعجب.

فتحت عيني مستغربة وسألتهم:

- ماذا هناك؟ هل فعلت شيئا؟ أخبروني ماذا يحدث؟

لتنطق أخيرا عبيدة قائلة:

- ربّما عليك مشاهدة وجهك في المرآة.

أسرعت إلى الغرفة وكان وجهي ملطخا بالطماطم، تحوّل إلى حبّة طماطم حتى عندما مسحته، فقد شعرت بالخجل بعض الشيء. أخذت نفسا عميقا ثم عدت إليهم، كانوا جدّيين هذه المرّة. جلست ثانية، وأكملنا لبضعة ثوان في صمت، ثم سمعت قهقهة خفيفة وبدت من فاروق، ثم والده، لأرفع عيني إليهما بثقل، ثم أبتسم وأنفجر ضحكا والباقين بعدي انفجروا ضحكا. لا

أدري كيف حتى تحوّل الوضع من أمر كئيب إلى بهيج، منذ ساعة كان كل منّا خجلا من الآخر بسبب الوضع الذي وضعنا فيه، والآن نحن نضحك وتدمع عينينا من شدة الضحك ونشعر بالألم في البطن، وبينما الجميع يضحك لاحظت تلك العيون المشوّشة، التي تحدق بنا وتطرح الأسئلة. أخي يوغورتا، بدا كأنه يتساءل عن سبب سعادتي وقد فقدنا منذ وقت قصير كل ما كان يربطنا بالحياة. وهل اعتقد أني كنت سعيدة حقا؟ وهل الضحك هو رمز للسعادة؟ حتى رسي عليّ فوجدني أحدّق به، فقلت في نفسي وقد توقّفت فجأة عن الضحك مع الاحتفاظ ببعض من رسماتها على وجهي (أعدك أني سأجد لك ما يربطك بالحياة ثانية، وأيا كان سبب سعادتك سأفعل أي شيء لآتيك به، أعدك). كانت أول مرّة يراقبني لمدّة ويحدّثني بعينيه، أيعاتبني؟ أم يسألني النّجدة؟ لاحظت الهدوء الذي لازم الغرفة، لابد أنهم استوعبوا الموضوع فصمتوا احتراما لألمنا.

لقائي بعماد في اليوم الموالي كان حافلا بالشكاوي مستثنية ظرفي مع خليل وإلا حاول التدخّل، فيما بعد تنزّهنا بين المحلات لأشتري لإخوتي هدايا.

❖❖❖

ما أن وصلت إلى البيت حتى رنّ هاتفي، إنه ذلك المحقق شعبان، توتّرت ثم شعرت بالحماس، ربّما هناك جديد في قضيّة أبي وجميلة، لعلّهم وجدوا الجناة، ولم أعد وأخي في خطر، هل هذا ممكن؟

أسرعت في الرد، لكنه طلب لقائي في أحد المقاهي بالأبيار بدلا من إخباري مباشرة بالمستجدات.

وضعت كل تلك الأغراض في الخزانة، غيّرت ملابسي بسرعة وخرجت ثانية إلى آخر الشارع لآخذ سيارة أجرة. وصلت إلى المقهى الذي اتفقنا عليه بعد نصف ساعة، فالسير بالسيارة في العاصمة ليس بالسهل، دائما هناك زحمة، اعتذرت لتأخّري وتقبّل ذلك.

فورما جلست:

- ماذا؟ أهناك جديد في القضيّة؟

- آه، هل اعتقدت اني اتصلت بك من أجل هذا؟ أنا آسف يا ابنتي حقا أنا آسف لكنه ليس الموضوع.

صمت لبعض الوقت، بينما كنت واقعة بين أمواج الخذلان، تابع قائلا:

- ليتني أطلعتك على الهاتف أنه أمر آخر.

- لماذا إذن اتّصلت بي واستدعيتني إلى هنا مستعجلا؟ إذا لم تعرف من قتل والدي وزوجته فما الذي أفعله في هذا المقهى معك؟

- سامحيني، لكن لديّ اقتراحا قد يناسبك، ونحن بحاجتك.

ما بالهم يحتاجونني هكذا؟ من أكون حتى يحتاجني الجميع؟ ليستمر تحت أنظار التساؤلات التي تغزوه بها نظراتي:

- لقد أتتنا أخبار أن كابوني مهتم بك هذه الأيام.

- انسَ ذلك تماما.

- أعلم أنك لا ترغبين في أن تكوني معه، حدّثتك عدّة مرات وأدرك جيّدا أي نوع من الفتيات تكونين، لن تتورّطي إراديا مع شخص مثل كابوني، مهما فعل ليربحك.

- قلت انسَ، لم أساعدكم وأنتم تركتموني أعاني وحدي؟ على الأقل هو يهتم بي، و لو كان سيئا.

- لا يغرّك باهتمامه وبهداياه وتمثيله فأنت بالنسبة له لعبة جديدة مثل الباقيات، يستعملك لبعض الوقت وعندما ينتهي منك يرميك، إني أتبعه منذ مدّة وصدّقيني هو متلاعب، يلهو ببنات الناس ويرميهم كما يرمي ألبسته القديمة، لا يلتفت حتى إليهم ثانية.

- أهذا ما توصّلتم إليه؟ علاقاته الخاصة، ربّما عليكم إعادة حساباتكم.

- أعترف أننا أخفقنا معه عدّة مرات، وهو لا يترك من هب ودب يدخل مجموعته القريبة، حاولنا بجهد، لكنه أذكى من ذلك، لعب بنا كثيرا.

صمت لثانية ثم واصل:

- إنّها أول مرّة يقوم بخطوة غير محسوبة، كأنه ينوي جعلك تدخلين حياته، تدخلين حقا، تفهمين قصدي؟ أنت فيها، فلتساعدينا وهكذا تتخلصين منه ونقضي عليه.

- ألم تقل أنّي لست إلا إحدى الفتيات اللاتي عرفهن ويعرفهن وسيرميني عندما ينتهي منّي؟ كيف تقول الآن أنه يدعني أدخل؟ تناقض نفسك كثيرا.

- في الحقيقة لقد تحدّثت حسب ما تعوّد عليه مع النساء، فهو لا يولي لعلاقاته أهمية، لا أذكر أنه كان على علاقة جادة بأي منهن ذات يوم، لا أدري إن كان الأمر مختلفا معك أم لا فأنا أحذّرك ومع ذلك أريدك أن تستنفعي من الأمر.

فكّرت قليلا ثم قلت:

- ماذا لو قبلت؟ في النهاية هو سيعرف، عكسكم لديه الكثير من الوشاة عندكم وسيخبرونه بأمري ثم يقتلني دون حتى أن يرجف له جفن.

- لن يحدث، إنها مهمّة سرية ولن يعرف عنها إلا أربعة أشخاص هم لن يخسروا وظيفتهم من أجله.

- المال يشتري الجميع.

- ليس هؤلاء، أخبريني فقط، أتريدين التخلّص منه أم لا؟

- لأصدقك القول نعم، لكني خائفة.

- سنكون معك ونرافقك في كل خطوة.

- وماذا سأربح من هذا؟ أنتم ستأخذون جوائز واعترافات وعلاوات، أما أنا والتي ستفعل معظم المهمة تنفذ فقط بنفسها؟!

- ما الذي تريدينه؟

- مكافأة، خمسة عشرة ألف دولار، إذا وافقتم أنا معكم وإذا لم توافقوا فانسوا، لن أغامر بحياتي من أجل أن أنجو بها فقط، مثلي مثلكم.

هم لن يساعدوني على القبض على قاتلي عائلتي، وأثناء ذلك يمكنني التخلّص من خليل وعلاقتنا تلك.

- تريدين مكافأة؟

سكت لوهلة ليواصل:

- نحن لا نقوم بمثل هذه الأمور، لكني أعدك بأنك ستأخذين هذا المبلغ ما أن تأتينا بالأدلّة التي تضع كابوني وراء القضبان.

وقفت من مكاني:

- حسنا، سأعود إلى البيت، بيننا الهاتف.

- لا، لن أتصل بك، علينا ألا نخاطر، فقط قومي بما عليك، وآتنا بما نطلبه عندما يحين الوقت المناسب.

كنت سأغادر عندما استوقفني:

- احذري منه، إنه شاب وسيم وذكي. سيجد طريقه إليك.

ابتسمت وكلي ثقة:

- لن يفعل.

- إذا كنت تقولين ذلك، أنت أدرى.

بعد كل شيء ربّما هناك أمل، لعلّني سأنتهي من هذه القصّة وأنهي عذاب الكثيرين وهم تحت رحمة من لا رحمة في قلبه، ارتحت بعض الشيء وأنا أعرف بأني سأبدأ في مهمة تصفية حياتي مما يغرقها في الوحل.

كنت قد تأخّرت على أخي فوجدت أن عليا أحضرته عندما أتت بنجية من المدرسة على الغداء، كان غاضبا لأني لم أكن من جلبته. لحقت به إلى الغرفة حيث كان مستلقيا.

جلست إلى جانبه وبدأت أحكّ على ظهره:

- ما بال حبيبي؟ أهو غاضب مني؟

التفت إليّ بعينيه الكبيرتين، ثم عاد غطى وجهه بالوسادة.

- ألن تسامحني؟

هزّ رأسه تحت تلك الوسادة مبديا الرفض..

- إذن لن نذهب هذا المساء إلى مدينة الألعاب، بما أنك غاضب فهذا يعني أنه مستحيل.

أسقط عنه الوسادة ونظر إليّ:

- هل غيّرت رأيك؟

عضّ شفته السفلى، كأنه يريد البقاء غاضبا ومع ذلك يريد الذهاب إلى مدينة الألعاب.

- إذا أخذتك هل ستسامحني؟

أشار برأسه أنه موافق. فقمت بالانقضاض عليه بالقبلات في كل أنحاء وجهه، لتأتي نجية فأرميها على السرير معه وأقوم بدغدغتهما معا، تضحك الأولى بأعلى صوتها والثاني دون صوت، حبيبي يبتسم، هذا هو الأهم. ليت بقدرة نجية مرافقتنا، لكن للأسف لديها مدرستها التي تنتظرها، ومع ذلك وعدتها بإحضار حلويات لها، فهي تحبّ كثيرا الحلوى ودمى الباربي مع أنها لم تكن تملك أي واحدة قبل أن أهديها، تعشق أفلام الأميرات وقصصي على ما يبدو تعجبها أيضا.



عند الظهيرة، كان لدينا موعد مع جدّة يوغورتا فقصدناها قبل أن أنقذه منها فهو يذعن على كره منه، ولكنها تسد فراغ ابنتها به، فأخذته إلى مدينة الألعاب كما وعدته. كانت تنتظرنا مفاجأة، فبينما كنا ندخل من البوابة، ناداني صوت من وراء بدا لخليل، التفتنا إليه كرد فعل لا إرادي، لقد كان فعلا هو، خليل الجميل، الغريب، القاتل. لم تظهر تعبيراته شيئا من الارتياح، كان عابسا كأنه يضمر شيئا من الحزن في قلبه. انزلقت ابتسامة غبية منّي، سواء كنت أعنيها أم لا، إلا أنها تكفّلت بجعله يلين، ووجهه الخشن يرق.

تابع مشيه نحونا والبريق يسنو من عينيه، وهو يقول:

- لي معكما مكان؟

هززت رأسي موافقة، وصل عندنا وهو ينحني إلى أخي ويقبّله على جبينه ثم تابع:

- كيف حالك يا بطل؟ أنت بخير؟

يحدّثه كأنها ليست أول مرة يلتقي به، لكنّها حقا أول مرّة، ويوغورتا ردّ عليه بإيماءة وابتسامة لا يعطيها لأي كان، ليرفع رأسه إلي ويسألني:

- كيف حالك أسيرم؟

رفعت كتفي مجيبة:

- بخير.

لم تهدأ نظراتي وهي تراقب تلك العينان اللتان سرقتا اهتمامي، لا أدري كيف، سألته:

- وأنت؟

ابتسامتي الرقيقة أبت أن تفارقني، وكيف لي أن أبتسم له برقة؟ ألست أكرهه؟

كأن الأمر راقه، فالشعاع الذي انبعث منه فضحه، ردّ:

- أنا متعب.

أعطاني يده لأصافحه، فرفعت يدي وصافحته.

- لم لا تذهب للبيت حتى ترتاح؟

عندها تفطّنت للأمر:

- انتظر قليلا، ما الذي تفعله هنا؟

ضحك وهو يجيب:

- لم تدركي الأمر حتى الآن؟

مسح جفنيه من فرط تعبه:

- أردت تمضية بعض الوقت معكم، اشتقت للعائلة.

- إذن اذهب إلى عائلتك!

- لا عائلة لدي، وأنتما عائلة، ألستما كذلك؟

هززت رأسي بالإيجاب، فقام يوغورتا بجذبي من سروالي، ليريني اللعب التي بدأت بالعمل أخيرا، لذا اقتربنا من لعبة الأخطبوط، في البداية خشيت أن أصعد لكن وبما أنه أصرّ عليّ أذعنت. طبعا أبقيت عيني مغلقتان كل تلك المدّة والناس تصرخ من حولي، تدور وتدور وتصعد أثناء ذلك، حين أفتحهما لثوان أجد خليل يضحك منّي.

كدت أقع ما أن نزلنا بعدما أصابني الدوار، لولا أن خليل أمسكني من ذراعي. أجلسني على أحد المقاعد الخشبية، شعرت برغبة في تقيؤ ما أكلته. ومن أجل يوغورتا الذي بدا خائفا عليّ حاولت التبسم له، نبّهني خليل الذي راح يطمئنه عليّ، لابد أن في داخله منطقة حية في قلبه الميت نظرا لكونه شعر بأخي.

انتظرنا لبعض الوقت حتى مضى الأمر على سلام، رحنا نبحث عن ألعاب أقل خطورة، عليّ على الأقل، فعثرنا على لعبة الأحصنة، صعد يوغورتا فوق واحد، وبقينا نراقبه.

عندما بدأت اللعبة تدور بالأطفال، نظرت للحظة إلى خليل وفي الواقع شعرت بها خرجت معبرة أكثر مما ينبغي، سألني:

- ماذا؟

- أين كنت؟ أقصد، إلى أي بلد سافرت؟

- ماليزيا.

- كيف هي؟

- جميلة ومثمرة، ذات يوم سوف آخذك معي، ستعجبك كثيرا.

- ذهبت من أجل عمل هناك؟

- أتحققين معي الآن؟ لم لا تأتين بمسجّل وهكذا كل شيء يصبح رسميا.

تطلّعت به ونبضات قلبي تتصاعد، هل علم بأمري؟ فقلت كمن يلملم الأمور:

- لم أقصد ذلك، أنا آسفة.

صمت لوهلة ثم تابع:

- نعم، ذهبت من أجل عمل، لم يكن مثلما توقّعته لكني خرجت منه سالما على الأقل.

أطلق ضحكة كأنها لذكرى ما، ليأخذ آخر نفس من تلك السيجارة التي بيده ثم يرميها أرضا.

- لماذا رميتها على الأرض؟ ها هي سلة المهملات هناك.

رحت ولمتها من الأرض، وأعطيتها له:

- خذ ارميها في الحاوية.

- لا.

كرر فعلته، وعندما رحت أحملها:

- توقّفي. لم تفعلين هذا؟

أخذتها ورميتها بنفسي بالحاوية، ليقول:

- أرجوك لا تصححي أفعالي أسيرم، لا أحب ذلك.

- لست دمية تفعل ما تريده فقط، إنني إنسان بأحاسيس وشخصية لن تتحكّم بكل ما أقوم به، دعني أعيش بطبيعتي على الأقل.

- تعنين أني أجبرك على هذه العلاقة؟

- افهمها مثلما تريد خليل، فقط لا تملي عليّ تصرّفاتي، إذا كنت تريدنا أن نلعب لعبتك فلا تحبس روحي، لا يمكنني العيش هكذا، لم يربّني والدي بتلك الطريقة، سأقول مهما كان ما أريده، لذا..

- حسنا، حسنا فهمنا.

سكت قليلا ليستمر بسؤال لم أتوقعه:

- وأنت ماذا فعلت اليوم؟ أخبريني.

أشعل سيجارة ثانية. توتّرت بعض الشيء وبدأت أتأتئ في كلامي:

- أنا! لا، لم أفعل شيئا.



لأتماسك قليلا قبل أن أواصل:

- خرجت فقط للتبضّع، اشتريت حاجيات بالمال الذي أعطيتني إياه ثم قررت المجيئ بيوغورتا هنا كما ترى.

رمقني بطرف عينه:

- ليس إلا؟

أجبته بنعم، فتمتم بكلام لم أسمعه، كأنه يحدّث نفسه. انقطع نفسي من شدّة خوفي، أعلم بأمري؟

- أسيرم، دعيني أعيد صياغة السؤال.

مسح وجهه بكفّه الكبير:

- من الشاب الذي كنت معه هذا الصباح؟

يحكّ ذقنه، ثم ينظر إلي بطرف عينه رافعا رأسه وهو يخرج الدخّان من فمه. سألته:

- أي شاب؟

- لا تحسبيني غبيا أسيرم.. أريد الحقيقة.

كأنه راح يتشيط ثم هدن نفسه بصعوبة، وهو ينظر إلى يوغورتا واللعبة راحت تنتهي، عندها اقترب من العامل الذي يشغّلها قدّم له مبلغا من المال، ليزيدهم جولة أخرى، الأطفال فرحوا أما أنا بقيت بين رياح الخوف أتخبّط، رجع إلي وقال:

- لم لا تجيبين؟

- ماذا، هل لديّ من يتعقّبني الآن؟ هل قمت ببعث من يراقبني؟

- لم أبعث أحدا، لكن ربّما عليّ أن أفعل.

بدوت كأني لم أصدّقه، فاستمر:

- لو لم يخبرني الشباب الذين ساعدوك على حمل الأغراض التي كانت بحوزتك لكنت الآن غافلا.

هدأت أساريري قليلا حين عرفت أنهم الشباب فقط، فلو تبعني أحدهم لعلم أني التقيت بشعبان، فأجبته أخيرا:

- إنّه أخ صديقتي، يساعدني بين الحين والآخر، شاء أن يطمئن عليّ فالتقيت به، هذا كل ما في الأمر.

- من يكون ليطمئن عليك؟ اسمعي، لا أريده بقربك ثانية، لا أهتم بأية صفة يأتيك، لن تلتقي به مرة أخرى.

- سألتقي به خليل.

_ قلت لن تفعلي وهذا آخر كلام عندي.

حدّق بي والشرر يتطاير من عينيه، رمقني من فوق لتحت والعكس ليطلق هذه الكلمة:

- كاذبة..

وراح يقترب ثانية من لعبة الأحصنة وأشار للعامل أن يوقفها، صرخ الأطفال صرخة خيبة، فأنزل يوغورتا وجعله يدوّرها ثانية ليفرح الذين ظلوا. أمسك به من يده بينما ينضمان إليّ. بدا السرور على وجه يوغورتا، كأنه يستمتع أخيرا بأمور الحياة ونسي الموت الذي أمات نظرة عينية. سألت أخي:

- هل أنت سعيد؟

أومأ برأسه أنه كذلك وعرّض ابتسامته بشعره الذي ينزل فوق عينيه، فيرجعه بأصابعه الصغيرة إلى الوراء.

نطق حينها خليل:

- ماذا يا بطل؟ أتريدنا أن نجرّب لعبة الغولة؟

فتح يوغورتا عينيه مبديًا خوفه، فبعثر خليل شعر أخي بيده وهو يجيب نظراته:

- سأكون معك، أحميك أنا من الغيلان لا تخف، ماذا قلت هل تأتي معي؟

فكّر يوغورتا قليلا ثم قبل، اندهشت من أمره. أمسك خليل بيده:

- حسنا، فقط لا تبكي مفهوم، نحن رجال، والرجال لا يبكون.

هزّ أخي رأسه موافقا ثانية.

فاستوقفته:

- لا عزيزي، أنت صغير يمكنك البكاء إذا شئت.

ردّ خليل:

- لا تتدخّلي أنت، نحن صديقان.

كان ينظر إلي وكأنه غاضب مني، وفي كلامه بعضا من المزاح شعرت بأنه من أجل أخي، حتى لا يشعر بالتوتّر الذي بيننا.

ركبا عربة من العربات وراحت تدخل بهما إلى ذلك الغار المخيف، كنت أخشاه كثيرا وأنا صغيرة. وبعد ثلاث دقائق ها هم يخرجون من الجهة الأخرى وأخي يضحك، كأنه يقهقه. أخيرا هو سعيد، هل خرج من تلك الحالة؟ أتمنى أن يعود مرحا مثلما كان. اقتربت منهما وحملته، من شدّة سعادتي به رحت أقبّله في وجهه قبلات سريعة وفي كل مكان، فوق عينيه وأنفه وفمه وشعره، كان يضحك كأنه نسي همّه.

لأضعه أرضا فقد حان موعد الدخول إلى البيت، لم أرده أن يتعب أكثر، في صباح اليوم التالي لديه مدرسة وعليه أن ينام. دون أن يجيب خليل فقط أخذ يمشي ونحن لحقناه، في لحظة لم أفهمها، ترك يوغورتا يدي وأسرع عند خليل ليمسك بإصبعه. انتبه إليه خليل والدهشة ترتسم على وجهه، كأنه لم يتوقّع ذلك. ليبتسم يوغورتا له، والآخر يردّ الابتسامة، كان منظرا لابد أن ينزل دمعة من عيوني، التفت إلي خليل، ضحك معي بفخر. فأسرعت أنا أيضا وأمسكت بيد أخي الأخرى بينما أمسح دموع فرحي.

كالعادة أنزلنا في أول الطريق وبقي يراقبنا حتى اختفينا، ظل الصمت وحده يخيم على الجو طوال الطريق. أعتقد أنه كان مأخوذا مثلي بما حدث مع يوغورتا، بالإضافة إلى غضبه منّي. عندما وصلنا إلى الحي وجدته قد

سبقنا، ينتظر أن ندخل إلى العمارة وقبل أن نفعل، ابتسمت ولوّحت بيدي له. كأني صدمته.

دخلت إلى البيت وانتقلت بسرعة إلى الغرفة لأطل من الشرفة، كان لا يزال هناك، خرجت عندي عليا وأطلّت معي، في البداية أخذت تحدّثني عن أمور حصلت معها، لكنّها وجدتني شاردة بشوشة، سألتني حينها ما بالي.

أجبت:

- لقد ضحك كثيرا اليوم.

التفتت إليها:

- يوغورتا ضحك كثيرا، كان سعيدا. لا يمكنك تصوّر الدفء الذي أشعر به في قلبي، منذ أشهر لم يعرف أخي كيف يكون فرحا أو ببساطة طفلا، لقد جعله يضحك ويسعد.

- من تقصدين؟

- لا أحد، فقط أنا سعيدة وأقول أي شيء الآن، اعذريني.

- سعيدة لأنكم استمتعتم.

- يوما ما، سترافقيننا ونجية، يجب أن نقوم بنزهة لا تنسى.

- أكيد.

- آه، نسيت تماما.

أمسكت بيدها و سحبتها معي إلى الدّاخل، فتحت القسم الخاص بي من الخزانة وأخرجت الأكياس منها، بحثت بينها حتى وجدت الهدايا التي اشتريتها لها:

- خذي.

سألتني بدهشة:

- ما هذا؟

- إنّها هديّة بسيطة، خذي.

- ما مناسبة هذه الهدايا؟

- لا مناسبة فقط أردت إهدائكم شيئا.

انتزعت ضحكتي:

- ألن تأخيها منّي؟

- آسفة أسيرم، لا يمكنني قبولها.

- لكن لماذا؟

لم أفهم سبب رفضها هداياي، حينها دخلت عبيدة مع فاروق، لابد أنهما سمعانا نتحدّث بصوت عال بعض الشيء، فقد غضبت قليلا لأنها رفضت هديّتي، سألتنا عبيدة ماذا هناك فالتفت إليها وقلت:

- لقد اشتريت لهم هدايا، إنها ملابس عندما ابتعت بعضها لنفسي فاخترت لهم ما أعجبني، هذا ما في الأمر، وها هي ترفض أخذها.

أجابت عليا تحت أنظار عبيدة وفاروق:

- ليس الأمر كذلك أسيرم، لا أريدك أن تشعري بالشفقة علينا لأنك تدركين ما نحن عليه.

- وهل تعتقدين أني اشتريتها بدافع الشفقة؟

- كما أنك لا تدينين لنا بشيء، لست مجبرة على شراء أمورا لنا حتى تشعري أنه مرغوب بك مفهوم، أنت، أنت من العائلة أسيرم، ليس عليك أن تشتري مكانك، مثلك مثلنا.

- أقسم أني لم أفكر في أيا مما قلته، ألم تقولا أنت وفاروق أني أختكم؟

هزّت رأسها إيجابا، فتابعت قائلة:

- أنا صدّقت ذلك، والآن أتى دوركما لتصدّقاني، اشتريتها فقط لأني اعتبرت نفسي أختكما الكبيرة.

ابتسمت عليا و فاروق وعبيدة، لتلتفت عليا إلى أمها وتبتسم لها هذه الأخيرة أثناء تشجيعها لأخذها، على هذا، اقتربت وأمسكت بالكيس ثم حضنتني والدّموع تنزل من عينيها، فرحت لحظتها، لذلك حضنتها بدوري.

سألني فاروق:

- وأنا لم تأتني بشيء؟

أجبته بابتسامة على وجهي تكاد تنطق:

- تمزح؟ كيف لا؟

أعطيته كيسه ففتحه بسرعة، بقي يردد:

- واو، ذوقك رائع، إنها جميلة حقا، سأذهب لأقيسها.

كنت قد أحضرت جبتين لعبيدة سلمتهما لها. سعدت كثيرا بالهدية وقبل أن تقول أو تقوم بأي شيء أخذت الأكياس الباقية ورحت إلى غرفة المعيشة حيث يجلس الصغيرين يشاهدان التلفاز الكبير والقديم الذي يعرض الأفلام الكارتونية كأنها من زمن آخر. لأريهما ما الذي اشتريته لهما. كانا متحمّسين جدا وقد بكت نجية عندما رأت لعبة الباربي، طول حياتها الصغيرة رغبت في هذه اللعبة الجميلة، حتى أني اشتريت لها فساتين تشبه فساتينها وأحذية الأميرات التي تحبّها وكلّها زهرية اللون.

تلك الأمسية مضت مختلفة عن الباقيات، كأن الجميع راض، مبتسمين وفرحين، وقد بدأت أرغب في سعادتهم، هؤلاء الذين كرهت وجودي معهم قبل أشهر. لاحظت على أخي سعادة لا توصف أيضا، يراقب الجميع ويسمع، يضحك حين يضحكون، وقبل يوم فقط كان باردا في التعامل معهم، شعرت بأن لقائه بخليل جعله ينتعش، كيف لطفل بريء أن يعجب بقاتل؟ حتى لو لم يكن يعلم، فالأطفال عادة يحسون. طبيبه لم يتمكن من حمله على التحدّث، ولم يتقدّم معه، كما أنه يأخذ مني مبالغ طائلة دون أن يشفيه، وقد أتى الساحر خليل وجعله يضحك ويبتسم ويندمج خلال سويعات قليلات من أول لقاء، يمسك يده بإصبعه الصغير، غير مدرك لما ارتكبته

تلك الأيادي من آثام، بكم من دم تلطّخت وكم من روح سرقت، تلك اليدين اللّتين دمّرتا ناسا وأرواحا وعائلات، يده النظيفة أمسكت بإصبع خليل.

نام الجميع وأنا على سريري أتقلّب، فقط ليس مثل المعتاد، لم يكن السبب هو المشاكل، أخذت أفكّر في خليل. لم يكن بدافع الخوف ولا التخطيط للابتعاد عنه إنما طرق باب عقلي كخليل وانتهى. صاحب الابتسامة الجميلة والوقفة البهية، مالك الحنية والغيرة. بعد لم أكن قد فهمت سبب تعلّقه بما كان يحدث معنا، لم أجد حتى تسمية له. هل أعجبه أم حب التملّك لديه؟ أيريد أن يأخذ مني ما يمكنه ثم يرحل؟ أية لعبة يريدنا أن نلعبها وأنا سيئة في اللعب؟ أكيد سأخسر، تعودت على الخسارة قرب طفل صغير على البلاي ستايشن، فكيف سأربح وأنا ألعب ضدّ رجل يعرف النهايات قبل البدايات؟ وأنا لم أخرج من قوقعتي إلا مؤخرا.

4

بالي مشغول به منذ الآن! وقبل الآن، لكن على الأقل قبل الآن كنت أحضّر له المكائد وأكرهه. وهل توقفت مثلا؟ ارتميت بين الأسئلة والأجوبة ثم

اخترت أن أجيب بطريقة بسيطة. كنت أعلم أنه سيكون على السطح خارجا، يراقب شرفتنا لسبب ما! ارتديت سترة عليا وخرجت، وفعلا كان هناك! والدّخان يطلع من فمه، لم أدرك إن كانت السجائر أم دخان البرد. لا أراه جيّدا، لكنّه يراني. سمعت هاتفي يهتزّ على طاولة عليا ونجية الخاصة بالدّراسة فأسرعت لآتي به قبل ان يوقظ أيا منهم. كنت أعلم من المتّصل.

ولم يخب ظني، رأيت اسمه فرحت أخرج ثانية لأجيب، قال ما أن قلت ألو:

- تبدين جميلة من بعيد حتى في الظلام.

ضحكت بخفة:

- من بعيد فقط؟ لابد أني خيّبتك عندما رأيتني مع نور الشمس..

- النور يغطي عيوب الناس عزيزتي، لا تعتقدي أن الظلام هو من يستر، فالعكس هو الصحيح، لهذا تجدينني أجلس هنا، أقابلك ليلا حتى تريني حقا، والبعد هذا هو القرب الحقيقي.

لم أفهم ما كان يرمي إليه حينها، كيف يمكنني رؤيته وأنا لا أتلقى إلا شكل جسمه وبعضا من حركاته. استمر يضحك:

- اسمعي، تحت ضوء الشمس يحاول الناس أن يبدوا أجمل مما هم عليه، يخفون جلدتهم الحقيقية تحت طبقات من الأنوار، أما هنا، أنا وأنت عراة.

ضحك:

- لا تفهميني خطأ حسنا.

عاد ليصمت وقت قصير بعدها:

- أنا وأنت الآن حقيقيان، تريني من هناك ككومة من الظلمة وأنت تبدين لي كشعلة بين حطام بيت مهجور، أنت أمل وأنا ضدّك تماما، مطفئ الأمل يا أسيرم.

أسيرم يعني أمل، وهل بحث عن هذا أيضا؟

قلت:

- يمكنني رؤيتك قليلا.

- حقا؟

تغيّرت نبرة صوته إلى الحزن بعض الشيء:

- كيف يمكنك ذلك؟

- لديّ أعين خاصة تعبر الظلام وتشقّه نصفين حتى تصل إلى، إليك.

- وماذا وجدت؟ حين وصلت ماذا وجدت أسيرم؟

سكت ثوان، ثم أجبت:

- لم أصل بعد، أنا في طريقي إليك.

- وإذا وصلت إليك قبلا؟ ماذا لو شققت بظلامي نورك وعبرت إليك، فأترك أثرا على الضوء الذي يحيط بك؟ ألم تفكري في هذا؟

- فكّرت، منذ أن التقيت بك وأنا لا أفكّر إلا في هذا.

- تعلمين.

بقيت أنتظر ما سيقوله، فهو يعترف بالكثير هذه اللحظة، وأنا متشوقة لأن أفتح صفحات كتابه وأقرأ منه ولو القليل:

- هذه أوّل مرّة في حياتي أدخل في لعبة وأرغب لو أخسر فيها.

تنهّد:

- دعينا من هذا، أخبريني، كيف كانت الظهيرة، هل أعجبت أخاك؟

- كثيرا، هو لا يتوقّف عن الابتسام والضحك، أريد أن أشكرك على تأثيرك الجيّد عليه على الأقل.

- لا تشكريني يا كاذبة.

- لازلت غاضبا؟

أجابني بصمت، فوجدت نفسي أفسّر:

- إنه أخ صديقتي كريمة، يريد مساعدتي فقد تعوّدنا على بعضنا منذ الطفولة، حتى أني أغضبته مني ولم يسمع مني، سامحني فقط.

- طبعا يسامحك إذا كان يحبّك.

- لا أفهم سبب غضبك مني، هل تغار؟

- لا أحبّ مشاركة ما هو لي، أنت معي الآن، وحتى أقول أنك لم تعودي كذلك فلا يحق لك أن تلتقي برجال آخرين أتفهمين؟

- لن أبتعد عنه، فهو الوحيد الذي يفهمني ويستوعب كلّ ما حدث ويحدث معي.

- أنا هنا الآن، لا تحتاجيه هو احتاجيني أنا.

- الأمر لا يحدث هكذا، إنها مشاكل حقيقية هذه التي تدور حولي، وأنت تنوي اللعب بي أو معي لا أعرف، لن أخلط حياتي بك أبدا ولن أجعلك تدخلها حقا.

- حقا؟

- طبعا، ماذا تعتقد؟

- كيف لك أن تدخلي حياتي وأنا لا؟

- لم أطلب ذلك، أنت من يجبرني.

- مثلما سبق وأجبرتني أنت، عليك أن تدفعي ثمن أخطائك عزيزتي.

- ما الخطأ الذي ارتكبته يا ترى؟

- أنك عدت إلى هنا؟ لم عدت إلى هذا الحي بعد كل هذه السنين؟ ألم تجدي مكانا آخر لتقصديه؟ كيف لك أن تدخلي حياة الناس وتخرجي منها مثلما تريدين؟ هذه المرّة أنا سأقرر كيف ومتى تدخلين وتخرجين.

- أنت حقا غاضب مني، ولسبب لا أعرفه حتى، أخبرني ما الذنب الذي اقترفته على الأقل؟

- لو كنت ترين حولك، لو تطلّعت بالناس أسفلك لربّما كنت رأيتني، أما أنت فلم تكوني يوما سعيدة بقدومك إلى هذا الحي الفقير، ولم تنظري حتى بأعين الناس فيه، لم تلاحظي المارّة أو حتى طفلا يراقبك من بعيد.

- ما الذي تقصده؟ أتعلم، لقد تعبت حقا، سأخلد للنوم واذهب افعل نفس الشيء، يبدو أنك جننت وبدأت تقول كلاما لا معنى له.

أقفلت الخط في وجهه فورا، فقد أزعجني، لم أفهم سبب حديثه معي بتلك الطريقة، يحاول جعلي أقترب منه ثم يدفعني ما أن أفعل، غريب أمره ذلك المخلوق، أليس كذلك؟

فعاد ليتّصل ثانية أثناء دخولي، أجبت فقال:

- سامحيني يا كاذبة.

بصوت صادق مع أنه لايزال ينعتني بالكاذبة:

- أنت محقّة، أقول في بعض الأحيان كلام غير منطقي، سامحيني.

بصوت منخفض حتى لا أوقظ الآخرين:

- حسنا، ماذا تريد؟

- عودي، ارجعي إلى الشرفة، لن أغضبك ثانية.

ضحك:

- على الأقل ليس الآن.

عدت إلى الشرفة وأنا أقول:

- ليس عليك أن تهاجمني في كلّ مرّة، يمكنك أن تكون شخصا طبيعيا في بعض الأحيان، أقصد لطيفا.

_أنا لطيف، ألست لطيفا معك؟

- لا أدري، أحيانا أشعر كأنك تريد أن تعاملني جيّدا، لكنك تنساق وراء مشاعرك وتقول ما تريده دون حساب، فحتى لو كنت تملك القوة فالناس يملكون كرامة، عليك أن تحترمها، هذا رأيي ببساطة.

- أحب حين تقومين بتفسير الأمور بطريقتك تلك.

- أيّ طريقة؟

- كأنك طفلة صغيرة تبحث عن كلمات مناسبة لتقول رأيها، ومن ثم تخبرك أنه رأيها وببساطة أيضا.

ويضحك.

- لم يتسنَ لي منذ مدّة أن أكون طفلة أو أقول ما أريده حقا، أنا حبيسة المشاكل.

تذكّرت أبي، فجلست والدموع تنهمر من عيني.

- تبكين أسيرم؟

زفر وقال:

- أخبرتك أني معك، حتى لو كنت تكرهينني وحتى لو لم نظل معا، سأقف إلى جانبك أعدك أسيرم، لا تبكي حسنا.

- لست أبكي لهذا السبب، لقد اشتقت إلى والدي.

ورحت أبكي بشهقة:

- لقد كان يعاملني كطفلة صغيرة حتى وأنا بهذا العمر، لم يدعني أبدا أصطدم بمطبات الحياة، يحميني ويفعل أي شيء حتى لا تدرك عيني السوء في الناس والشارع. أما الآن، فقد تركني وحدي، مع طفل صغير لا يتحدّث ومدمّر جرّاء ما رآه، جعلتني والدته وصيّة عليه وأنا لا يمكنني حتى أن أكون وصية على نفسي، أريد أبي ويوغورتا يريد أمه.

مسحت دموعي وواصلت:

- أشعر كأني عشت كابوسا وسوف أستفيق منه ذات يوم، أخبرني خليل، هل حقا أنا هنا؟ في هذه الشرفة أحدّثك أنت، لست أحلم، لن يكون للأمر نهاية؟ وفي صباح ما، لن أستفيق لأجد والدي يبتسم لي وهو يراقبني أثناء نومي، كأنه يؤكّد لنفسه أني لازلت معه.

- كل ما حصل حقيقة، وكل ما تأملينه الآن لن يحدث أسيرم، حياتك تغيّرت وانتهى، تقبّلي أنت حتى يتقبّل أخاك، لايزال لديك ذلك الطفل الذي يعوز منك أن ترسمي معه مستقبله، اجعليه ينسى أنه بلا أم ولا أب، كوني كل شيء بالنسبة له، أعرف أنك تقدرين على مسؤولية كهذه.

- لم أنت متأكد هكذا؟

- صدّقيني، لابد أنك كنت كل شيء بالنسبة لأحدهم، وعرفت كيف تزينين حياته فقط من خلال رؤيته لوجهك، وهذا الصغير لن يختلف عنه، بنظراتك اجعلي لحياته بداية، من لمساتك حنان، ومن ابتساماتك فرحة، ومن حضنك أمل، كوني بالنسبة له مثلما تكونين لذلك الشخص، يوغورتا طفل رائع ويبدو ذكيا، سيفهم عليك ولن يتعبك.

- وماذا عنّي؟ صحيح أن عائلة عبيدة تعاملني كأني واحدة منهم، رغم أني أتعبتهم كثيرا معي، لكنّي أحتاج أبي، فهو وحده يعرف كيف يخرجني من المتاعب، حين أضع نفسي في مأزق لا أتدخّل حتى، هو يقوم بكل شيء.

- وهل فتاة مثلك تضع نفسها في مآزق؟

- طبعا، مثل تلك المرّة التي قتلت عصفور جارنا بالخطأ، أو تشاجرت مع ابن عمّتي وكنت أفعل دائما بما أن أمه تعايرني باستمرار، أو حتى لمّا خططت لجعل القسم كلّه يغيب عن المدرسة حتى أشاهد فيلما كان سيعرض لأول مرّة، دائما كان ينقذني من أخطائي وهفواتي.

- لا يمكنني تصديق ذلك، فأنت تبدين جدّ مطيعة.

وبصوت جدّي بعض الشيء:

- أسيرم، لا تقلقي، ضعي نفسك في مآزق لا تعد ولا تحصى، سأخرجك منها واحدة بعد واحدة، لن أدع أي شخص يعكّر صفو مآزقك، وإذا ما استطعت سألج فيها معك أو أدخل فيها عنك.

- لم تفعل شيئا كهذا؟

- ليس لديّ ما أخسره، أما أنت فلديك كل شيء لتربحيه، نحن أخذت منا الحياة وانتهت، أما أنت عندك أمل يا أمل.

- وهل الأمل والحياة سيرجعان أبي.

- هذا أمر لا عودة فيه، ما حدث قد حدث، عيشي من أجل ما بين يديك، لا تبخلي على أخيك بشيء واحرصي أن يعيش عيشة جميلة، وأنت يا ضوء الظلام لا تخافي، ستنسين، هكذا هي سنة الحياة، يموت أشخاص نحبّهم ويرحلون عنّا آخرون، ننسى ونتذكّر، نحزن ونفرح، نتعايش مع موت الميتين ونبقي في قلوبنا من رحلوا حتى يوم يعودون.

- لن أبخل عليه بحياتي لو ألزمني الأمر.

- وأنا ما كنت لأبخل بحياتي على أخي.

تنهّد:

- لم يكن إلا طفلا، ترسله إلى الشارع ليعمل تحت الأمطار في الشتاء والشمس الحارقة بالصيف. مرض المسكين لكنّها لم تأبه لذلك ولا هو حتى، كأنه مجرّد من مشاعر الأبوّة، لا بل يضربه أيضا، وهو يسعل والدم يخرج من فمه، كان مصابا بمرض السل، كان بإمكانهما إنقاذه لكنهما تركاه يموت تحت عيوننا، سامحتها لما ضربتني وكوتني بالنار وكل شيء فعلته بي. لم أكن لأسامحها على قتلها لأخي، دمّرت كل شيء في عيني.

اندهشت لسماعه يقول ذلك، من تكون هذه التي يتحدّث عنها، هذه حقا قصّته!؟

- تتحدّث عن والدتك؟

- لا.

علت نبرة صوته قليلا بقوله لا، ثم هدأ وبعض الحنان رقق نبرته:

- أمي ملاك، أطيب امرأة عرفتها في حياتي، أمي لم تكن لتنزع الابتسامة على وجهها وهي تنظر إليّ أو أخوي، فما بالك بأن تفعل أمرا كهذا.

- إذن من تكون؟

_زوجة الرجل الذي شارك في إنجابي، لا يحق له أن يكون أبي، أحبّه الله لأنه مات قبل أن يكون لي أمر بيدي، لجعلته يعدّ النجوم خارجا، لجعلت حياته جحيما.

- تقول هذا فقط لأنك غاضب، ففي الحقيقة ما كنت استطعت أذية والدك، مهما كان.

- لكنت أنهيت حياته صدّقيني.

نسيت مع من كنت أتحدّث لوهلة، اعتقدت أنه إنسان مثله مثلي، فأيقظني بوعده ذاك. استمر في حديثه:

- ليس رجلا ولا إنسانا حتى من يضرب امرأة على فراش الموت، لم يرها يوما جميلا في حياتها، كانت أمي تخاف حين يأتي وقت عودته من العمل، نظراتها لازالت تلاحقني لحد الآن. أوصتني بأخوي مع أني كنت أوسطهم، أمي تعرفني، تعلم أني صاحب شخصية قوية، وهذا ما أتاني بالكثير من المتاعب معه وزوجته، جسدي مليء بآثار تعذيبهما لي، ما كنت سامحتهم لو وضعت مكاني.

وبصوت مرتجف وقلب معصور قلت:

- كل هذا؟

- وأكثر، لا أريد أن أفتح عينيك أكثر أسيرم. داخل هذه البيوت يوجد الكثير من الأسرار، لربما سمع الناس بظلم أبي وزوجته لكنّهم لم يسمعوني وأنا أتألم من فقدان أعز الناس على قلبي، صرت وحيدا بعدما كنت أملك ما تملكيه، لهذا أنصحك بألا تبكي على ما فات، فكّري فيما بين يديك.

حين لم أجبه ولربما وصلته دموعي، وأنفاسي المتقطعة، سألني:

- تبكين، أسيرم، تبكين عليّ؟

ضحك، وقد حملت الضحكة استهزاء، بدا الاستهزاء من نفسه أكثر مما هو مني:

- أنا بخير، كل شيء تحوّل مثلما يجب أن يكون، لا تبكي، أجبيني الآن.

فهم تعذّري على ذلك فصمت معي لبضعة دقائق، في ذلك السكون الحالك حيث لم أعرف ما إذا عليّ أن أشعر بالشفقة عليه أو أبغضه كالعادة، من السهل أن نكره الناس بسبب أخطائهم، لكن من الصّعب أن نتقبّل أخطاء من نكرههم، وذلك اليوم تقبّلت أخطائه وشخصه وما آل إليه. وأنا بصدد أن أخونه، أمقته وأشفق عليه. أحب نفسي وأخي وعليّ أن أختار، إما هو أو نحن؟ إما أدخل في حياته ويجرّني إلى ما لا قدرة لي عليه، أو أحاول الخروج قبل أن يتمكن..

بعد مرور تلك الدقائق:

- قلت أنه لديك أخوين، والثاني ماذا حصل له؟

- لا شيء، إنه بخير، يدرس الطب في الخارج، لا يريد أية علاقة بي مع أنه يدرس الآن بمالي وجهودي، ومع هذا أنا سعيد لأنه أصبح رجلا يمكنه الاعتماد على نفسه.

- بسبب ما تفعله؟

- بل بسبب أمران فعلتهما، فهو لم يهتمّ لمصدر أموالي.

وعندما امتنعت عن الحديث فهم أني أتوقع أكثر منه:

- حسنا، لقد جعلت ابن أبي وزوجته يصبح مدمن مخدّرات، ثم أدخلته السجن، كما أني طردتها، لقد جعلتها تذوق الألم بابنها الذي صار يضربها ويجعلها تعطيه المال بالقوة. لن أكذب كنت أضحك في سري كثيرا، وبعدما عاشت القليل من البؤس أخرجتها من هنا نهائيا، لم أعد أطيق رؤيتها حتى عن بعد، لو لم تكن امرأة لأريتها الويل.

هكذا إذن يفعل بمن يؤذيه، في أي مأزق وضعت نفسي؟

لم أجد ما أقوله، فسألني:

- تحسبينني سيئا أنت أيضا أليس كذلك؟

سكت، فإذا قلت نعم سأجرحه وإذا قلت لا سأكون كاذبة، حينها استمرّ:

- حسنا، سأقفل الآن، أتريدين شيئا مني؟

- لا، لا تقفل خليل.



- ماذا هناك؟

- الحديث بدأ يحلى معك، أم أنك تريدني أن أكره أحاديثنا أيضا في علاقة كرهنا هذه؟

ضحك ثم:

- إنك من اختارها..

- لكنك من سمّاها.

- أنا لا أكذب على نفسي، أنادي القط قطا والحب حبا والكره كرها، مع أن خير الأمور أوسطها، لكنك لست ممن يحبون الوسط.

- كيف تعرف ذلك؟ لم تحدّثني قبلا حديثا آدميا.

أجابني:

- عيناك تكشفانك أحيانا حبي، فنجاني قهوة، مليئين بالوعود والآمال، كأنك لا تدركين مدا سحرهما؟ خبرتي مع الناس علّمتني أن أقرأهم من عيونهم، فمثلا إذا أتاني شخص يريد فائدة مني أفهم، يكون سيئا أفهم، إذا كان يحمل أهدافا غير تلك التي أتاني بها أفهم أيضا. ومن ثم أنت تأتين، وبعينيك الكبيرتين أرى بحرا من الاحتمالات، ماض وحاضر ومستقبل، لمحت فيك الإصرار، والكثير من الأمور، لكنّي أبحث فيك عن.. كيف أقول ذلك، عن الاحتمال الآخر، الذي لم أره بعد وأنا متأكّد أنه فينا كلّنا، ربّما لدي نمى أكثر من الآخرين، لكنه فيك أيضا، أريد أن أثبت أنك مثلنا عزيزتي، مثلك مثلي.

- تقصد الناحية السيئة فيّ؟ بالطّبع هي موجودة، ككل إنسان، لكنّي أعرف كيف أضبطها، ففي الأخير لدينا عقل وعلينا استعماله لمعرفة الصواب من الخطأ، ولن تثبت أبدا شيء عليّ.

- لم عليك أن تكوني مثالية هكذا؟ لم عليك أن تجعلي منّا، نحن الباقين حثالة لا نستحق حتى نظرة منك؟

- لم أفعل شيئا كهذا في حياتي، فأنا أحترم الجميع، وما كنت لأقلل من احترام الناس مهما كانوا، لست أبدا متعالية، إنك تظلمني.

- أنت لا تذكرين، ولا حتى تعلمين، ربّما لم تلاحظي حقا وجودي يا كاذبة.

- ماذا أذكر؟ هيا أخبرني.

- أنت يا صاحبة الحذاء الأبيض بجواربها الوردية، عمّا تريديني أن أخبرك؟ عن مدى غيرتي منك وأنت تأتين إلى حيّنا بلباسك الأنيق، فستانك المطرّز والمليء بالورود الجميلة، بشعرك المثالي والحريري، تمشين في شارعنا و كأنه لا يستحق أن تضعي قدميك العزيزتين عليه، حياة مثالية وأبوين يريدانك، يتشاجران عليك، لا تميلين حتى رأسك لتلاحظي أمثالي، حتى أني تلقّيت ضربة بالطابة على وجهي بسببك.

أخذ يضحك.

اندهشت من الأمر، كل هذا وأنا نائمة، طبعا يعرفني، فقد عرف اسمي منذ أول يوم، فأخرجت هذه الكلمات من فمي بصعوبة:

- تصدّق.. أذكرك، ولم أتجاهل تطلّعاتك، بل كنت أشعر بالخجل منك فقط ،كنت تعجبني يا سيد خليل.

- تكذبين، لا تشعري بالأسف عليّ قلت لك.

- لهذا الحد تعرفني؟

- وأكثر.

صمت قليلا ليواصل:

- لكن شكرا على المحاولة.

- أنا حقا آسفة، لم أدرك أني أذيت أشخاصا بمروري من هنا.

تفطّنت لأمر ثم ضحكت:

- لكن، انظر إلى الجانب المشرق، الآن لم يعد عليك أن تغار منّي، فلا أملك شيئا، لم أعد ألبس الغالي والجديد لا أملك أبوين يتشاجران من أجلي ولا حتى بيتا أسميه حقا بيتي، لم يبق إلا القليل منّي.

- بل لديك أكثر ما أردته في حياتي، براءتك أسيرم، أنت كنت طفلة في طفولتك وأنا كنت أرى ذلك، سلبوا مني طفولتي وجعلوا مني رجلا قبل أن أبلغ حتى سن العاشرة. أعمل في الصباح وأُضرب بالليل، فقدت ذلك البريق والبراءة، أتدركين ما هو الأمر المضحك؟ أني لم ألتق بك منذ سنوات، فقد كنت خارج الوطن ثم سمعت أنك لم ترجعي، حتى وصلني خبر قدومك لتعيشي في حيّنا، أنت وعينيك الكبيرتين في بيت قديم ضيق، فقدمت إلى هنا، حيث كنت آتي لأراقبك في صغري، فقد مثّلت كلّما أردته، أراقبك في

العتمة وأنت تبكين وتمسحين دموعك. ولم يتغير شيء بعد كل هذه السنوات، وجدت نفس الفتاة تقف على نفس الشرفة، أحييت الكثير من الذكريات أو المفجعات يومها وكم كرهت عودتك. والمضحك حقا هو أن أعلم بمرافقتك لرشيد ولا يمكنني الصّبر على هذا، جعلت من يتبعكما، وقد كنت أبحث في أموره قبل قدومك، فعلمت بمخطّطه، قدمت ورفاقي، أولا لأراك..

وبصوت حزين:

- وهل تعلمين ما هو المضحك حقا، حقا؟ عرفتك من عينيك، لم أقترب منك قبلا فأنا أجهل تفاصيل ملامحك، كنت جدّ خائفة، ترتعشين كأنك تتوقّعين مني الأسوأ.

تركته يقول كل شيء حتى أعلم أين أكون في تخطيطاته، ففهمت أني اللعبة واللاعبة حقا، أم أني حقيقة يبحث أن يمحيها من حياته، لكن بطريقة مختلفة؟

أجبت عليه بسؤال:

- ألم يكن هذا هدفك؟ وضعت مسدسا فوق رأسي، كاد قلبي يتوقّف.

- لو رفعت عينيك إليّ لعلمت أني ما كنت لأقتلك، لكنك دائما ما تفسدين الأمور بتجاهلك الناس، حتى وأنت تحت تهديد القتل تحسبين نفسك أفضل من الكل.

- كيف لشخص تسميه بريئا أن يكون متعجرفا في نفس الوقت؟

- لا أدري اسألي نفسك، يا كاذبة.

- ألست من يعرف الكثير من أعين الناس؟

- الناس أسيرم، أعين الناس ليس عينيك.

صمت لثانية ليستمر:

- سأتركك الآن أسيرم، عليّ الذهاب للنّوم.

تنهّد:

- لقد تعبت.

- تصبح على خير.

- كاذبة.

ضحكت بدوري وأقفلت، ما الذي سأكذب فيه بقولي (تصبح على خير)؟ رأيته يلوّح لي بيده، فقمت بنفس الشيء ودخلت، لأستلقي على سريري وأنام، دون تفكير ولا أخذ ورد، فقط نمت.

□

5

استعدت أخيرا قسطا من صفاء بالي، عندما أكّد لي طبيب يوغورتا النفسي في اليوم الموالي أنه حدث تطورا خفيفا لديه، وفي المقابل أعلن عن عدم قدرته على تقديم المساعدة له بعد الآن، الأمر في الواقع ليس كذلك، فنحن زبائن لا ندر عليه بالمال الوفير، فلم يعد بحاجة إلينا. كان يوغورتا سعيدا بالخبر. ربّما زاد وضعه سوءا وأنا حزنت لأنه لم يعد يريد معالجتنا. جلسنا نشاهد التلفاز في غرفة المعيشة، لتدخل عبيدة وتجلس معنا. ظلت صامتة طوال الوقت، تبدو دائمة الخوف مني، فبادرت بين الحين والآخر على التحدث إليها في موضوعات ليست ذات أهمية، لم أردها أن تتعوّد عليّ ولا أن تخافني. وأخي يشاهد الأفلام الكرتونية، لكنه يتعذّب مع تلك التلفاز القديمة ونوعيتها الرديئة، كصندوق كبير يخرج منها الصوت بصعوبة.

التحقت لاحقا بعليا لأرجوها مرافقتي في مشوار مع عماد، الأمر الذي وافقت عليه بكل سرور. وهذا حتى لا يفتعل لي المشاكل مع خليل. بقيت عبيدة في المنزل لتحرص الطفلين، وخرجت مع عليا التي كانت بكامل أناقتها بالثياب التي ابتعتها لها، باختصار كانت جميلة، بينما أنا أهملت شعري ووجهي.

قدمتها لعماد فور انزلاقنا داخل السيارة، وكالعادة ينتظرني بعيدا عن أنظار سكان الحي، بديا خجلين فقلت:

- والآن تصافحا ودعانا ننطلق.

ضحك عماد والتفت إليها حتى يصافحها:

- تشبهك كثيرا أسيرم، ربّما أجمل منك بقليل.



قالت عليا ووجنتاها محمرتان، تكادان تنفجران خجلا:

- لا هذا غير صحيح.

أجبتها مبتسمة:

- طبعا هذا غير صحيح، سيحاول نيل إعجابك عبر مدحك وأنا الآن في حال يرثى له لذا لا تفرحي كثيرا.

ردّت عليا:

- أعلم.

ثم توتّرت:

- لا أقصد أني أعجبه، لا طبعا، أعني..

قلت، لوضع حد لمعاناتها:

- أمازحك فقط اهدئي.

وأخذنا نضحك ثلاثتنا بينما ننطلق.

قصدنا حديقة عامة من حدائق زرالدة. جلسنا عند بحيرة بها إوز، الكبيرة منها تتبعها الصغيرة والناس يرمونهم بالأكل بينما العاملين هناك يطالبونهم بالامتناع عن ذلك، يفهمون حينها لكن ما أن يغادر العامل حتى يعودوا لإعطائهم الأكل. جلسنا صامتين في البداية ثم شرع عماد في محادثتي عن كريمة، قائلا أنها بدأت الدراسة وهي تتأقلم جيّدا مع الوضع، إلا أنها تشعر بالخجل مما فعلته بي وقد ندمت كثيرا. كنت لازلت غاضبة

منها، بعدما رمتني بالشارع مع أخي الصغير في منتصف الليل وبتنا حقا تحت السماء والبرد يأخذ من جلدتينا ما تبقى فيها من دفئ. مع أني اشتقت إليها أيضا، حتى أروي لها ما بي وحل بحياتي، أشكو أموري إليها. مع ذلك كنت سعيدة من أجلها، لأنها تمكنت من إكمال دراستها، ولم تبق من أجل شخص لا يقدّرها. مع أن الله عوّضني بعليا التي تسمعني وتحبّني أيضا، أشعر بذلك، نعم أشعر بذلك، لا أدري كيف ومتى لكنّها تعتبرني أختها وأنا التي رميت بعيدا بهذه العلاقة الجميلة قبلا، لكني لن أفعل مجددا، إنهم إخوتي أيضا، رغم أن يوغورتا سيحتل مكانا وحده في قلبي فهو ابني زيادة على ذلك، إلا أني أحبهم.

أثناء جلوسي بين عليا وعماد، لاحظت حرج الأولى الشديد وتطلّعات الآخر إليها بين فينة وأخرى، وأنا أبتسم بخبث أحاول إحراجهما قدر المستطاع. لابد أن عليا أخذت عقله المسكين.

وبينما أفكر بمكر عن طريقة أخرى لأجعلهما يشعران بغرابة، رنّ هاتفي، وإذا به خليل، ضربات قلبي أخذت تتسارع، ماذا يريد؟ هل علم؟ آه، إلى متى؟

تقدّمت نحو البحيرة تاركة إياهما على المقعد:

- نعم خليل.

- أين أنت؟

وعندما صمتُ لأفكر قال:

- لا تكذبي، قولي أين أنت فقط.

- أتنزّه مع أصدقائي.

- أصدقاؤك أم صديقك؟ لم لا تسمعين كلامي أسيرم، لم عليك أن تكوني عنيدة هكذا؟ طلبت منك ألا تلتقي به لكنك تلحين على حرق دمي أليس كذلك؟

- أنا لا أفهم حقا.

بأي حق يتحكم في بمن ألتقي ولا؟ هو ليس زوجي ولا حبيبي، لكني ما كنت سأقول ذلك، لولا أنه استفزني لاحقا ودفعني إلى ذلك دفعا.

- هناك رجل من رجالي قرب باب المخرج، سيأتي بك عندي، هيا، اتركي ذاك الأبله.

- لا، لا يحق لك اختيار بمن ألتقي خليل، أنت لا أحد بالنسبة لي حتى تقرر عني، أخبرتك.

وهنا أقفل. لم أصدّق أنه أقفل في وجهي.

عدت وطلبت رقمه، أجاب:

- ماذا تريدين؟

- اسمع أنا لست معه وحدي، رافقتني عليا.

لم أدرك كيف قلت ذلك، شعرت بحاجة للشرح له وانتهى. شعرت ببعض من الراحة في صوته وهو يرد:

- وما دخلي أنا؟ ألم تقولي بأني لا شيء بالنسبة لك؟ لماذا تبررين؟

- حسنا، أنا آسفة لأني اعتقدت أنك ربّما سترغب في معرفة هذا.

سكت لثانية ثم قلت:

- وداعا.

- إلى أين؟ لا تقفلي.

امتنعت عن الاقفال، ثم واصل:

- بالطّبع يهمني أن أعرف يا كاذبة.

وبصوت أكثر عذوبة:

- احذري إذن، ولا تبقي خارجا حتى تظلم، مفهوم.

- عدت إلى أوامرك.

- لم تكن أوامر أسيرم، أنا لا أصدر أوامر إنما أنفّذها بنفسي، لو كان أمرا حقا لأتيت وأخذتك دون إخبارك، حسنا، اعتني بنفسك.

وقطع الاتصال، هذه المرّة كنت مرتاحة لأنه لم يكن غاضبا، صرت أرتاح لراحته الآن!

يبدو أنه في غيابي قد اختصر المعجبين المسافة، وأخذا مكاني. انخرطت معهما في الحديث عن دراسة عليا التي أوصلت تخوّفها حتى إلى الغريب الذي التقت به لأول مرّة. كنت أساعدها لكن يبدو أن يدا أخرى قدّمت لها! يا إلهي، إنه أمر غريب، كيف ستفهم من شاب وسيم وأيضا يعجبها. لن يحدث، أدرك أنها ستعود إلي حتى نعيد الدرس، مع ذلك، فليفعلا ما يريدانه.

عدنا إلى البيت، وبدت أمرات السعادة على وجهها، تسألني عن أمور تخص عماد وأجيبها بكل سرور. جاء يوغورتا ليجلس بقربي ونحن نتحدّث عن عماد، أراد أن ينام فلم أدعه حتى نتعشى، لهذا أسرعت لتحضير العشاء بما نملكه من خضر في البيت، ثم قدم الجميع وأكلنا. مباشرة بعدما انتهينا عندنا إلى الغرفة ثانية حتى ينام الصغيران ونواصل بمتعة حديثنا.

على الساعة التاسعة ليلا، استلقينا أنا وعليا لأقول:

- عليا، أخبريني عن خليل، ماذا تعرفين عنه؟ حقا قاسى في صغره مثلما سمعت؟

_قاسى!

سكتت ثم تابعت:

- بل قولي في أي جحيم كان يعيش، الكل يعرف قصّتهم هنا، أنا كنت صغيرة لذا وصلت فقط على مجده، أخبرتني أمي ذات مرّة عن الأمور التي يفعلها والده وزوجته به وإخوته في صغرهم، يبدو أن والدهم كان يحرقهم ويجعلهم يعملون. قالت أنه لا يمرّ يوما دون أن تسمعي صراخهم بالليل وهم يعذّبون، يجعلهم يبيتون بالشارع ويجوّعهم.

- يا إلهي الطف بنا، ما هذا؟ وحش.

- لا تتفاجئي تحدث أمورا كهذه في أحياء كهذه.

- هذا ليس صائبا.

استلقيت على ظهري وبقيت أفكّر فيه، سمعت الشتاء تمطر، فآلمني قلبي، لابد أنه عرف البرد في صغره والجوع والقهر. نزلت دموعي رغما عني، رغبت لو أنه بقربي لأحضنه، كأني سأحضن ذلك الطفل الذي بداخله، الذي لم يسمح له يوما بالخروج، رغم أني، كنت أمقته.

غفوت وجفوني تحمل دموعي الثقيلة، حتى دقت الساعة الثالثة صباحا. استيقظت جرّاء كابوس أتاني في المنام، طبعا قد كان منظر أبي وجميلة، ملقيان أرضا والدماء تسيل منهما، دائما كنت أقول: "ليتني كنت معهما، ثم من سيعتني إذن بيوغورتا؟" والعرق يتصبب من جسمي خرجت من تلك الغرفة الحارة إلى الشرفة الباردة جدا، أغمضت عيني ورحت أستنشق الهواء النقي، نعم، كان ذلك اليوم نقيا بعض الشيء فقد غسلت الشتاء بعضا من هواء الحي القديم.

وخلال الساعتين اللتين بقيتهما هناك لم أشعر بالبرد، إلا أنه عندما استفقت في الصباح وجدت نفسي مريضة، رأسي يؤلمني طبعا وحنجرتي مبحوحة، وعيناي حمراوان. سألت عبيدة إذا كانت لديهم أية أدوية فأخبرتني أنهم يملكون مسكنات فقط، أخذت منها وعدت إلى النوم، لم أستطع البقاء واقفة لمدّة طويلة، أما أخي فقد أخذته عبيدة مع نجية إلى المدرسة.

بعد ساعتين من عودتي إلى النوم أيقظني هاتفي، لقد كان خليل، طلب مني لقاءه في المساء، علم أن صوتي كان غريبا فقلت أني استيقظت من النوم توا، فاعتقد أنه السبب في بحة صوتي. وحين خرج يوغورتا عند منتصف النهار، أخذته مباشرة من المدرسة ووضعت مئزره داخل حقيبته المدرسية.

كان ينتظرنا عند الحي المجاور، متكئ على سيارته، يتحدّث عبر الهاتف. اقتربت من يوغورتا وأوصيته أن يسرع ويحضنه، فليحضنه عنّي.

حين رآه مسرعا إليه أقفل الخط مباشرة، ليرتمي يوغورتا على رجليه مطوقا إياهما بذراعيه الصغيرتين، فيجثم خليل ويحمله بسعادته البادية على وجهه، قبّل جبين أخي ثم التفت إلي وقال:

- ما مناسبة هذا؟

اقتربت أكثر من يوغورتا، مسّحت على شعره:

- يحبك فقط.

قرّبت وجهي من أخي والذي كان قريبا بما يكفي من خليل:

- أليس كذلك حبي؟ أنت تحبّ خليل؟

أومأ يوغورتا برأسه موافقا على ما قلته ثم حضنه بشدّة إليه، لم أفهم سبب تعلّق الفتى الشديد به.

ليضمّه خليل وهو ينظر إليّ قال له:

- وأنا أحبّك، جدا.

كان مبتهجا. نعم، صرت أهتم لسعادة الغريب، الشجاع، الأحمق، القاتل، المظلوم. وضعه داخل السيارة ثم نظر إلي:

- شكرا.

- على ماذا؟

صمت وهو يبتسم إلي، ثم سألني:

- ما به صوتك؟

- إني مريضة بعض الشيء.

- طبعا تمرضين حين تبقين أكثر من ساعتين في الهواء والشتاء تمطر.

- جعلت من يتجسس علي خليل.

- لا أسيرم، ليس حين تكونين في البيت؟ لا أدع غيري يستمتع بتلك المناظر.

فتح لي الباب الأمامي:

- ادخلي.

قصدنا أولا مطعما، كنّا جياع فالتهمنا أنا وأخي كل ما أتى به لنا، بعدها مشينا في شوارع العاصمة، إلى أن وجدنا ملعبا، في أحد الأماكن الخالية بعض الشيء، وهناك شباب يلعبون كرة القدم.

قال حينها خليل وهو يلتفت إلى أخي:

- أتريد لعب كرة القدم؟

هزّ يوغورتا رأسه بقوة وسروره يرتسم في عينيه، لأقول:

- إنه يعشق كرة القدم، لاعبه المفضّل هو كريستيانو، لديه صوره في بيتنا القديم، فنيلته، ويشاهد كلّ مبارياته.

لأرمق أخي بحنان ملأ قلبي، ثم إلى خليل وواصلت قائلة:

- والدته لم تحبّ يوما أن يلعب بخشونة، فقد كان مريضا و..

- أعلم.

قال وهو يراقب أخي ثم ينظر إلي:

- كان مريضا والآن هو بخير، أليس كذلك يا بطل؟

هزّ يوغورتا رأسه ثانية موافقا:

- تعالى معي إذن.

وحين رحت أتكلّم أوقفني:

- لا تقلقي سأعتني بالموضوع.

خرج أخي، ثم تابع خليل كلامه:

- سأوصيهم. دعيه يكون طفلا.

وهذا ما كنت أقوله لوالدته. أمسكه من يده، بجسمه الطويل القوي وأخي الصغير جدا جدا قد بدا أصغر حجما بقربه، والرياح تأخذ معطفه الكبير إلى الوراء، بمشيته المرهبة والمهيبة تلك. كان يوغورتا يجري حتى يصل خطاه رغم أنها ما كانت كبيرة. كلّم أحد الشباب على انفراد، بدا وكأنه

يوصيه، والآخر يهزّ رأسه موافقا فقط، ثم اقترب من أذنه ليحدّثه، ربما حتى لا يسمع يوغورتا الذي كان متحمسا طبعا. خرجت وقتها لأقترب منهم وأعرف ما يجري، لكن عندما لمحني خليل ربّت على كتفه، ليأخذ الشاب أخي من يده ويتقدّم خليل إليّ.

- إلى أين يأخذه؟

- قلت لا تقلقي، سيبقى بين عينينا، دعيه فقط يستمتع ونحن نجلس هنا، تعالي.

أعطاني يده، ماذا أفعل؟ أعطاني يده، لا جواب، مددت كفي وأمسك به، ابتسم وسحبني وراءه. كان هناك شباب جالسون، ما أن رأونا حتى أخلوا المقاعد لنأخذها نحن.

- لم يكن عليهم المغادرة.

جلس فتبعته، بينما أقول:

- تعرف كيف تدخل قلب ذلك الطفل.

- وقلبك ماذا عنه؟ ألا زلت مكاني؟

لم أجبه فقال:

- لا عليك، أخبريني أسيرم.

- ناديني آسي، هكذا يسميني والدي رحمه الله.

كانت أول مرّة أترحّم عليه، هل اعترفت اخيرا أنه، رحل.

- لكني أحب مناداتك أسيرم.

توقف لثانية:

- ماذا كنت تفعلين على الشرفة بالأمس، ألم تبردي؟

- سمعت قصّة آلمتني وحلمت بأخرى أيقظتني وبسببهما لم يتمكن البرد مني.

- يبدو أنه تمكن منك دون أن تشعري، أنت لا تلبسين الكثير من الثياب، عليك أن تحذري.

- أنت حذر أكثر من اللزوم.

- لا يوجد حذر أكثر من اللزوم، عليك فقط أن تتوخي الحذر.

قلت في نفسي أنه سيعلم في الأخير بأني قصدت مركز الشرطة، ففكرت أن أخبره وأضع كحجة قضية والدي وجميلة:

- بعد أسبوع سأذهب عند ذلك المحقق، لربّما يجد لي حلا مع قضيتي.

تغيّر صوته ونظراته، كأنه يدرك ما يدور حوله جيّدا، أيقرأ العيون حقا مثلما قال؟ ليجيبني:

- لا تذهبي أسيرم، لا أريد أن تزوري ذلك المكان ثانية، هم لن يقظوا لك شيئا، سيجعلونك تجرين حتى تنسين، لا تقحميهم في الموضوع، أنا أهتم لك بالأمر وآتي لك بحقك، كلّه ليس نصفه.

- حقا!

فتحت عيني:

- كيف ستفعل ذلك؟

- لقد بدأت منذ الآن، لكني أحتاج بعض الوقت، فقط اصبري على الشباب الذين يخبروني أين تكونين أحيانا.

- لكنهم لا يخبرونك كل شيء، مثلا بالأمس كانت معي عليا ولم يطلعوك.

- لا تهمني عليا، تهمينني أنت.

ابتسمت له لتمحى تلقائيا تلك الملامح الصلبة التي تبينت على وجهه حين قلت أني سأقصد المحقق شعبان. تطلّع بيوغورتا وقال:

- يبدو سعيدا.

- إنه كذلك الآن.

التفتُ إلى خليل وبقيت أراقبه لمدّة وهو يشاهد أخي يلعب. فسألني بينما يحافظ على جلسته:

- ماذا هناك؟ أعجبك شكلي؟

حدّق فيي، وفي نقطة من وجهي وجسمي، مثلما كان وداع الأعين، وهو يبتسم فترتسم على خدّه ندبة قديمة صغيرة.

ابتسمت:

- أريد أن أطلب منك شيئا يا خليل، لا أحب عادة التماس الأمور من الناس لكني تعودت مؤخرا على ذلك، لذا.

- اطلبي ما تريدين، ما بيدي بيدك.

- لكن، لماذا؟

- أخبرتك، أنت معي الآن وكل شيء يمكنني تقديمه سأقدّمه لك.

- أذكر، لقد قلت شيئا كهذا.

واصلت قائلة:

- حتى ينتهي كل شيء أنا معك.

وأنزلت عيني أرضا.

- ماذا تحتاجين؟ قولي أسيرم.

- أنا لم يعد بمقدوري دخول بيتنا، لكن به أشياء أريدها، مثلا ملابسي وصور والدي وصورنا، لا أملك مكانا أضع فيه كل ما في البيت.

_تريدين بيت؟ لا مشكلة في ذلك، اعتقدت أنه أمرا مستعصيا.

_ليس بيتا ما أحتاجه منك خليل، لن أعيش في منزل وحدي مع أخي، اسمعني فقط، أريد صورنا وملابسنا، دمية سبونج بوب وتلفازين، مع لعبة الفيديو الخاصة بأخي، وما أريده منك هو أن تدخل وتحضرهم لي، سأثق بك.

ربّت على ظهري وقال:

- مثلما تريدين، سنذهب الآن إذا شئت؟

- ليس اليوم، لا أريد من يوغورتا أن يتذكّر ما عشناه في تلك الليلة، ستتدهور حالته أكثر وأنا لم أصدّق أنه يضحك ثانية ويلعب أيضا.

- الأخوات البنات طيّبات، ليتني ملكت واحدة.

سمعت مثل هذا الكلام قبلا من رشيد المسكين، كلّهم كانت لديهم بدايات مضطربة وأخي مثلهم، لكني لن أدعه ينتهي هكذا، سوف أفعل المستحيل حتى يكبر باستقامة.

- أنا هنا! اعتبرني أختك.

- أبدا لست أختي، لا تكرري هذا أمامي.

نهض من مكانه وهو يقول:

- غيّرت رأيي لا أريد أختا، آه يا إلهي ما الذي سمعته.

راح يحك أذنه ويقول:

- عليّ الآن أن أسمع الكثير من الأغاني حتى أنسى ما قلته، مقززة.

ما الذي جعله يتصرّف هكذا يا ترى؟

أضحكني أمره فوقفت وراءه، وبقيت أردد:

- ما الأمر أخي؟ أخي، أخي.

وهو يبتعد عني رحت أتبعه:

- انتظرني أخي خليل.

يمكنه أن يكون مجنونا بحق.

عاد إلي وهو يبتسم:

- توقّفي أرجوك، لست أخاك ولن أكون أبدا كذلك.

- لكنك تريد أختا وأنا أجيد ذلك، أنا أخت جيدة وطيبة ولطيفة.

- اكرهيني وفقط، لا يمكنك أن تكرهي أخاك، أفضل أن تبقي كارهتي على أن تصبحي أختي.

- حسنا، لن أكون أختك إذا بقيت عاقلا ولم تأت بالمشكلات.

أثناء ضحكي، لاحظت تغيّر ملامح وجهه إلى الجدّية، نظراته استبطنت ضحكاتي وأوقفتها، يا لها من أعين دافئة. يا للرّجل السيء حتى تطلّعاته قاتلة، حتى حنانه سما وكل ما تقوله تعبيرات وجهه سهام تهشّم جسدي قطعا قطع، وأنا أقف هناك، سرق ضحكتي رجل العصابات هذا، سرق لحظة نسيان، سرق دقائقي وأيامي، سرق السارق كل شيء عندي، وأنا هناك أقف لا أدرك ما حل بي!

سألني وقتئذ:

- لماذا أنت تأتيني بالمشاكل إذن؟

ابتسمت بتوتر:

- عن أية مشاكل تتحدّث؟

حدق في وكأنه يقول (تعلمين) استدار حينها واتجه نحو يوغورتا وأخذ يلعب معه بالكرة، والباقين ينظرون إليه مستغربين أمره، مثلما تكون أول مرة يشاهدون هذا الخليل. لم أفهم أصلا كيف يعرفونه حتى في تلك المنطقة، في ذلك المكان البعيد جدا. حتى أنا بقيت متسمرة مكاني والابتسامة لا تفارق شفتي، طفلان صغيران يلعبان، كل بجروحه وآلامه محصور في الزاوية، يبحث عن طريقة يخرج بها من سجنها.

في الليل ونحن نتحدّث عبر الهاتف أدركت أنه يسمع موسيقى، فسألته ماذا تكون؟ لم يجبني حتى، فزاد صوتها وإذا بها أغنية "أحبيني بلا عقد"

بقينا صامتتين. في داخلي أتساءل لم يسمع هذه الأغنية بالذات وهو يكلّمني؟ يا له من تناقض، مجرم يحب نزار القباني وأغاني كاظم.

لأسمع أخيرا صوته يقول:

- أنا أهتم للأبد.

سمعته طبعا، لكنّي تظاهرت العكس:

- ماذا قلت؟

- لا شيء، ماذا تحبين أن تسمعي عادة أسيرم؟

- لربّما يخيب ظنّك بي، لكنّي أحب كل ما يجعلني أرقص، وهذه الأغنية الآن.

- لن يخيب ظني بك مهما فعلت، إذن تحبّين الرّقص؟

صمت كأنه يفكّر، تنهّد وهو يقول:

- لديّ ملاهي ليلية إذا رغبت يمكنك مرافقتي.

- ليس هذا ما أعنيه، أنا لا أقصد أماكن كتلك.

- ولماذا؟

- أخاف طبعا، كما أن والدي لم يكن ليسمح لي بذلك.

- لم يعد والدك حيا، ثم سأكون معك لن يحصل شيئا لك، لا أحد يقترب منك وأنت معي.

- لكن المكان لا يناسبني خليل.

- أي مكان يناسبني يناسبك، من تحسبين نفسك حتى تقرري أنك أفضل من كل الأشخاص الذين يقصدونه.

- إنهم يختارون ذلك، لا أحد يجبرهم.

- هناك من ظروفهم هي التي تجبرهم يا آنسة، ليس لأنك وجدت من يجمعك تحت سقفه ومن يحميك تتحدّثين هكذا، ماذا لو الجميع تخلى عنك حين احتجت إليهم؟ ماذا كنت ستفعلين لو وجدت نفسك وحدك في الشارع؟ الشارع سيدفعك لفعل أمور لا تريدينها صدّقيني، ليست الحياة بالسهولة التي تعيشينها.

- لا أحد أجبرهم، كان بإمكانهم العمل في أي مكان غير تلك الأماكن وللناس أن يستمتعوا بمحال غيرها، إنهم من يختارون.

- سترافقينني غدا وترين بنفسك ما يحدث حقا، عندي لقاء مهم هناك ومنها ترقصين.

وكأنه يستهزئ بي.

- لن أرافقك ولن أرقص في مكان كذاك، إذا شعرت بالشفقة عليهم، لم تدعهم يعملون لديك؟

- لست من سيحرم تلك النساء من لقمة عيشهم، إذا كانت تلك الطريقة الوحيدة ليعلن أبناءهن وعائلاتهن، كل ما يمكنني فعله هو عدم تقاضي مقابلا مثلما يفعل الباقين، كل ما يربحنه لهن، أما الرجال، ربّما لم يجدوا نساءهم جميلات مثلك عزيزتي.

- أرجوك توقّف عن التحدّث عن هذه الأمور، من جمال الفن إلى العفن، لا تحدّثني أبدا عما يحدث هناك.

- لن أسمح لك بالتقليل من احترام الناس أسيرم، لديك كل شيء مثالي، إلا هذا الأمر، تحسبين نفسك أفضل من الكل، لهذا سآخذك معي غدا لتصبحي مثلنا، تدخلين أماكن كتلك، سيئة.

- أرجوك خليل.

- أرجوك أسيرم، دعيني أريك حتى أراك كذلك.

- أتجرّبني؟ لن أفسد خليل، لن أفسد مهما فعلت، لن تسوء طباعي فقط لتشعر بتحسن مع نفسك، حتى تثبت أنك لست الوحيد الذي تغيّره الحياة.

صمت فقط، كأني كنت محقة، وأنا بدوري سكتُ لثوان، بعدها واصلت:

- تعدني بالحماية ثم ترميني وسط المخاطر، ترفعني ثم تسقطني.

- لن أدعك تسقطين، فقط، أثبتي خطئي، ولن أزعجك بعدها.

- حسنا، أرافقك خليل إن كان هذا سيساعدك.

- تريدين مساعدتي وأنت تعتقدين أني أريد إفسادك؟

- بالطّبع أساعدك لو أمكنني.

- لست أريدك أن تفسدي، أكثر ما أخشاه هو أن يكون الناس كلّهم عرضة للفساد، لذا، كوني قويّة مفهوم؟

حقا! يرميني في النار ويطلب ألا أحترق؟ حتى يشعر بأن أمثالي موجودون.

قلت مستسلمة:

- اهم، فقط أنت لا تكن ضدّي أيضا.

أقول هذا ولا أدرك حتى هل أنا في حلم أم حقيقة، أنا في ملهى ليلي!

- سنرى إلى ما تؤول إليه الأمور أسيرم، اذهبي لتنامي الآن.

_انتظر.

أغلق الخط. لم يعطني فرصة للتّحدّث إليه، لمحاولة إقناعه، ما بال هذا الشخص وتقلباته، في لحظة يكون شخصا وفي أخرى يتحوّل، لم عليّ أنا أن أتقبّل؟ كيف لي أن أخرج من هذا الجنون؟

دخلت وأنا أمسح دموعي، اعتقدت أني عقدت هدنة مع تلك المواقف، لكنها لم تكن طويلة على ما يبدو. أتقلّب وأفكّر في أبي، وما الذي كان سيفكّره بي بدوره لو علم أني سأقصد مكانا كذاك، أسيرم، ابنته المدللة والمتربية والتي أخفى عنها حقائق الدنيا حتى تعيش في سلام، تدخل وكرا للمحرّمات وتلامس قدميها أرضا لامستها أقدام البائعات، هل صرت للبيع الآن؟ هل هذا ما يراه فيّ خليل؟ أم كابوني الذي حدّثني منذ قليل؟ يقول أنه يثبت بي لنفسه شيئا، وماذا عن نفسي أنا؟ إذا كان يغار مني فلما لم يقتلني لينتهي؟

6

بعد منتصف الليل وصلتني رسالة نصية، يعطيني فيها خليل تعليمات عن المكان الذي سأجده فيه ينتظرني. بصعوبة خرجت من البيت دون إيقاظ أهله. ركبت السيارة في صمت، شعرت بنظراته تغرس في وجهي وعيني اشمأزتا منه ولم تعد لي رغبة في التطلّع إليه، عدت أكرهه، أكرهه، أكرهه، أحمق. ينطلق مستعجلا دون أن ينبس بكلمة، كأنه يخشى، أقلت يخشى؟ نعم، يبدو أني فعلت. لا لم يخشى، بل لم يرد أن يمدّني بفرصة لإقناعه، أليس لهذا السبب امتنع عن الاتصال؟ بدلا من ذلك بعث رسالة نصية. ألا يعرف نفسه الشقية، كانت ستجبرني مهما ألححت وترجيت، هكذا هم الطغاة.

أمضينا مدّة نصف ساعة في الطريق قبل أن يركن في ساحة قرب بناية معزولة من طابقين. كانت الموسيقى قوية تقرع طبلتي أذني ولو من بعيد. كنت أصارع بكل قواي لأظل قوية، لكن عندما خرج ليفتح بابي ثم يسحبني برفق ولكن بما يكفي من قوة ليحملني على التحرّك، كنت على وشك السقوط أرضا، مع ذلك حرّرت يدي. كالغزال بين الأسود أو الذئاب، إما تفعل ما يريدونه وتموت أو تفعل ما يناسبهم وتعيش، تحدث المعجزات ففي بعض الأحيان، يحن قلب الأسد على الغزالة ويرافقها إلى حين.

تملّك الخوف جسدي كلّه. ابتلعت ريقي ورحت أمشي وراءه بمتر،

كان بعض الشباب خارجين من ذلك الملهى وهم سكارى. أحدهم يصرخ في وجه الثاني، والآخر يدفع الأول. ما هذا؟ هل أنا فعلا هنا؟ خطوت خطوة سريعة لأكون قريبة على الأقل من خليل، إني معه، حتى شعرت بيده تتسلل بين أصابعي وتمسك بيدي، كأنه يطمئنني، إذا كان يخاف على مشاعري، لم يفعل هذا بي إذن؟

قبل أن ندخل أوقفني، أوصاني:

- اسمعي، لا تنزعي عنك معطفك مفهوم.

تطلّعت به وأجبت مستهزئة:

- أضحكتني.

رمقني بنظرة غاضبة بينما يتابع جره لي وراءه داخل ذلك المكان. في الباب يقف رجلان يشبهان أولئك الذين قتلوا رشيد. أخذا يرحّبان به بحرارة، وأنا خلفه مستحية من نفسي. انتقلنا إلى مدخل ضيق بعض الشيء، لكنه طويل، حتى وصلنا إلى قاعة كبيرة مظلمة، تملؤها الأضواء الملوّنة، التي تظهر القليل مما يدور هناك. طبعا مغني راي على المنصّة وفريقه، طاولات مليئة بالناس يشربون الخمر، رجال في أحضانهم نساء، كأنهن لابسات. هناك يوجد راقصات وحولهن الرّجال يرشونهن بالمال. لعلّ أولئك يحرمون أبناءهم منهم ليلقوهم على الغرباء، تقززت للكثير من المشاهد والتي لا أرغب في تذكّرها حتى بيني وبين نفسي.

كانت الدموع تملأ عيني، لم ألاحظ وصولنا إلى إحدى الطاولات المعزولة عن الأخريات. أجلسني وهو متمسك بيدي بقوة، كأنه يخشى أن أضيع منه في تلك الغابة المليئة بالوحوش. وأنا لم يطاوعني قلبي أن أترك

يده، حتى أصابعي الباردة ما كانت لها قدرة أن تتحرك.

طلب شرابا لنفسه وكابتشينو مع عصير كوكتيل لي. أخذ علبة سجائره بتوتر ووضعها على الطاولة، يتناول سيجارة ومن ثم يرى إحدى الفتيات اللاتي تعملن هناك. ناداها، وطلب منها الجلوس معنا وأثناء ذلك وصل شرابه أو أنواع الخمر الكثيرة التي أرادها. لم أتوقّع أنه سيشرب الخمر ويأخذني معه في السيارة بعد ذلك. كان القلق ينهشني. قرّبت الفتاة وجهها مني وسألتني إن كنت بخير، فهززت فقط رأسي بالإيجاب.

لتعلّق على ملابسي، بصوتها الصاخب والمزعج:

- انزعي معطفك، لست في المدرسة هنا عزيزتي.

أجابها خليل بعدما وضع كأسه الذي أفرغه تماما:

- لا لن تفعل، هي ليست هنا لتستمتع إنما لتتعلّم يا حنان.

سكت قليلا وهو يحدّق بي بنظرات غامضة، ليستمر:

- إنها تقوم ببحث عن الأشخاص الذين يعملون في هذه الأماكن، مثلك ونسيمة والفتيات.

- إنها مراسلة! آه لا أنا لا أريد أن أظهر في أي مكان، لا على التلفاز ولا الجرائد، اعفني من هذا الأمر أرجوك.

- لا تقلقي، إنها ليست كذلك، فقط تقوم ببحث وتريد سماع قصصكم إذا أمكن.

قالت أنها لا مشكلة لديها إذا كان الأمر كذلك، ليكمل:

- ها هي أمامك.

وهو يشير إلي. ألهذا أتيت بي إلى هذا المكان خليل؟ حقا؟

حينها بدأت تروي لي بصدق. لم أكن في تلك اللحظة مهتمة لغير الظرف الذي وضعت فيه، إلا أني اندمجت مع قصّتها المؤلمة فيما بعد. المسكينة، زوجها ميت ولديها أبناء، لا أحد يساعدها على تربيتهم، فهي بالصباح أم وفي الليل تعمل عكس الأم. نادت صديقتها سمية، هذه لم تكن لديها أبناء بل أم مريضة وأخوات تحتجن لمن يعيلهن. أخرى طردها والدها بعدما أخطأت وأنجبت طفلا والده رفض الاعتراف به وبها، فوجدت نفسها وحيدة بين الذئاب هذا يستغلّها باسم الحب وآخر يجعلها تطمع بالستر والزواج، لتجد نفسها في الأخير تعمل لدى امرأة تبيعها مقابل المال، لاحقا هربت منها وعملت في ملاهي خليل، قائلة أنها على الأقل ما تكسبه يكون لها، وحتى دون أن أسألها أجابت على سؤالي، قائلة أنها كلّما حاولت الابتعاد عن تلك البيئة، والبحث عن عمل تجد من يحاول استغلالها. خاصة وهن لا تملكن شهادات ولا ماض نقي. أصدّقها فحتى صديقي مراد طمع في وحاول استغلال وضعي، لذا غالب الرجال لا يؤتمنوا أينما كانوا. أخرى خرجت من السجن بعدما قتلت زوجها الذي كان يضربها ويكسر يدها وأنفها وباقي أعضاء جسدها، فقط لأنها جميلة. نعم شعرت بالحزن عليهن شعرت بالشفقة عليهن، حتى في حالتي تلك وصمتي ذاك عرفت أني أخطأت في حقّهن، لسن إلا نساء مجبرات على فعل ما لم تردنه، من سترغب في أن تكون لعبة بين الأيادي؟ فمهما كان لكل إنسان كرامته.

عادت الأولى لتخبرني أن الفتيات الأخريات مشغولات وستقصدني إحداهن ما أن تنهي عملها.

جلست أنظر إلى خليل الذي نسيني وراح يشرب ويشرب، كأنه ثمل في مرحلة ما، بعد وقت من تطلّعاتي المتخوفة التفت إليّ وقال بصوت ثقيل وعينين شبه نائمتين سألني:

- هل أعجبك؟

اقترب شيئا فشيئا مني وجعل وجهه مقابلا لوجهي، عيونه المترجية تراقب عيني عن كثب، ثم أمسك أطراف أصابعي بظهر كفّه وتابع قائلا:

- أعطني قبلة.

ابتعدت عنه وقد تملّكني الأسى. امتلأت عيني دموعا، أشعر بها لكني لا أسرّحها. تفاجأت من سؤاله ذاك، أيتوقّع مني أن أقبّله، بأية صفة؟ وعلى أي مبدأ؟ على مبدأ علاقتنا؟ علاقة الكره تلك؟ أرسى عينيه أرضا ما بدا خجلا، لا أدري إن كان لديه هذه الصفة أصلا. لكنه عاد فورا اعتدل في جلسته.

تقدّمت إحدى الفتيات إليه والكأس في يد و السيجارة في الأخرى. ابتسم لها بندبته تلك وهي تضحك إليه محاولة إغواءه بطريقة مشيها المقززة، كانت تلبس فستان قصيرا جدا، يكشف أكثر مما يغطي، بشعرها الملون بالأصفر ويديها محمّلتان بالذّهب، لكن لأعترف تبدو راقية، عكس الفتيات اللاتي قابلتهن. وأنا أراقب، لامست خدّه بيدها وراحت تداعبه، وهو يضحك لها كالأبله، وأنا أراقب، وضع كفه على خصرها. نعم وضع كفّه على خصرها بكل بساطة، يتحدّثان بالأعين، يفهمان بعضهما، أنا لم أفهم تلك اللّغة، ماذا يقولان يا ترى؟ لم عليّ أن أكون بهذا الغباء؟ أمسكت بيده، ودونما أي اهتمام، قام ورفع كأسه ليتبعها كالأحمق من وراء. تركني

وحدي هناك، بين الذئاب، والذئاب تراقبني ما أن وقف عن المقعد، فأي فريسة جديدة تكون مثيرة للاهتمام. أنظر إليه وهو يخطو تلك الخطوات مبتعدا.

قدمت إليّ حنان الفتاة الأولى التي حادثتني، وهي تبتسم:

- ما باله كابوني؟ تلك الفتاة تلاحقه منذ مدّة وهو لا يعبأ بها، اليوم هو يوم سعدها إذن، تمكّنت أخيرا من الوصول إليه.

- من هي؟ إلى أين تأخذه؟

- أخيرا تفضّلت علينا وتحدّثت؟ إيه أيه، إنها زبونة وهي تأخذه إلى فوق يا عزيزتي.

وراحت تلعب بحواجبها من فوق لتحت أثناء قولها:

- وتعلمين أنه سيحدث الكثير فوق يا حنونة، الكثير.

- لا أعلم ما يحدث.

وهززت رأسي يمين وشمال، ما الذي سيُعْلِمني؟ لم أدخل يوما إلى تلك الغرف، لم أدخل يوما إلى مكان كهذا، أنا لست مثلها؟ لا أدخل تلك الغرف. نعم فهمت ما الذي كانت تلمّح إليه، وفهمت ما الذي سيفعلانه فوق.

شعرت برغبة شديدة في التقيؤ، مع أني لم أكن أسمع حتى ضميري يتحدّث إلا أن الأحداث المتسلسلة جعلتني بطني يتضرر، اختنقت، حتى آلمني قلبي. نهضت من مكاني بينما أسألها عن مكان الحمام. استعجلت الخطوات مبتعدة، إلى حيث أختبئ بين أربعة جدران، حيث أشعر بالقليل من الأمان الكاذب.

تقيأت بالفعل كل ما أكلته في ذلك الحوض، وحينما انتهيت غسلت وجهي، لأتفاجأ بوجهي على المرآة، ها هو المسكين شاحب، مرمي في حمام ملهى ليلي. فانفجرت باكية. دخلت في هيستيرية لا يمكن وصفها، أبكي كالطفل المهجور في مكان غريب ولا يعرف طريق العودة إلى بيته. هربت من المرآة واتّكأت على الحائط وانزلقت مع الجدار، ثم على الأرض جلست ممسكة بطني لأوقف ألمه، ثم قلبي، وأمسح وجهي، لأرفع في الأخير ركبتاي إليّ وأضمّهما بذراعي.

سمعت الباب تفتح لكني لم أشأ أن أنظر، لا يهمّني شيء لا أريد أن أرى بعد الآن، لست مهتمة بالتّعلم عن هذه الأمور، لا. والخطوات الثقيلة تقترب مني، قمت بإغلاق عيني أكثر مما كانت مغلقة، والدموع تسيل منها كشلال على صخور.

صوته كهربني:

- أسيرم، ماذا تفعلين هناك؟

كأنما كان مصدوما. اقترب أكثر ثم نزل إلي:

- ما بك أخبريني؟

تنهّد، ليمسك بذراعي:

- ما بك عزيزتي؟

- اتركني لا تلمسني.

ورحت أبكي بحرقة أكثر وأكثر:

- أبعد يديك القذرتين عنّي.

- أنا آسف أسيرم.

كأن صوته يرتجف:

- سامحيني يا عمري.

واقترب مني ثانية ليمسك بيدي ويأخذها، حتى يقبّلها، رفعت عيني إليه والدموع بأصواتي الغريبة تخرج مني، حررت ذراعي منه مرة أخرى، ليقول:

- سامحيني لأني أحضرتك إلى هذا المكان، أنا حقا آسف، أنت محقة، أنا قذر، وهاتان اليدان لا يحق لهما أن تلمسانك، لكن دعيني أخرجك من هنا، هذه آخر مرّة، أعدك.

شعرت بأنفاسه على شعري ووجهي حين اقترب ليضع يده على ظهري وذراعه تحت رجليّ. رفعني عن الأرض فلم أجد نفسي إلا وأنا ألف عنقه بذراعي. ضممته بقوة، إذ كنت مرعوبة، أرتعش رغم أن درجة الحرارة في ذلك المكان مرتفعة لأقصى الدرجات. تتسارع أنفاسي كأني جريت لأميال. أشد أصابعي ببعضها حتى لا أفلته بينما أغمض عينيّ كي لا تلمح أنظاري أكثر.

قلبه ينبض بسرعة على قلبي، وهو يتنفّس باضطراب واضح. تلك الثواني بدت كالأزل تأبى أن تمضي، حتى بدأ يخف صوت الموسيقى الصاخبة، وصراخهم. بعضهم يسأله ماذا يجري وهو لا يجيب، ربّما حتى لا يفضح صوته المرتعش، حتى لا يبدو ضعيفا مثلما كشف نفسه أمامي.

وضعني بمقعد السيارة الذي بجانب السائق، وانطلق، رافقتني الدموع

والشهقة. التفت كليا للنافذة وأعطيته ظهري، ظللنا صامتين. وفي منتصف الطريق السريع توقّف على اليمين، كان المكان خاليا ولا تمرّ سيارة إلا مرّة في زمن، ازداد خوفي بعض الشيء مع أني لم أتوقّع منه أن يؤذيني بأية طريقة من الطرق، إلا أن تلك الظلمة والغابات التي تحاصرنا على اليمين والطريق السريع على اليسار. لكني بقيت مثلما كنت، مائلة كل الميل إلى النافذة، ولم أتحرّك.

خرج من السيارة وقدم إلى جانبي عندما فتح الباب، بقي ينظر إليّ لمدّة وهو واقف، وأنا مأخوذة في صمتي، لم أرد حتى أن تقع عيني على عينيه. كنت غاضبة منه أشد غضب، لا يمكنه التخيّل إلى أي مدى، لكني لم أتوقع أن يجثو إليّ ويبقى يحدّق بي لوقت أطول.

قال بصوت رقيق لم أعهده:

- انظري إليّ، تطلّعي بعيني أسيرم.

رفضت، فقرّب أصابعه من ذقني ورفع وجهي حتى وصلت عيني إليه:

- ألن تسامحيني عزيزتي؟ لقد أخطأت، أقسم أني تقطّعت هناك، شعرت كأني أترك طفلي وحده، أقسم لك، كنت غبي أناني لا يفكّر إلا في نفسه، كنت أفكّر أني سأجعلك تشبهينني، لكني لن أقدر أبدا، ولا أريدك أن تشبهيني، أنت هكذا جميلة.

راح يمسك بيدي:

- دعني وشأني، سأمرض أكثر لو لمستني.

- أنا آسف.

- أنت سكران، لست آسفا، غدا ستستفيق وتجعلني أزور قذارة أخرى، لن تدعني أعيش حياتي بسلام.

- أنا لا أسكر أسيرم، تعتقدين أن الشراب مازال يؤثّر بي؟ اسمعيني.

لم أتطلّع به، ليضع كفه خلف رأسي ويقرّبني إليه، تابع:

- اسمعيني جيدا، لديك عندي مصالح، سأقضيها لك، أساعدك على حلّ موضوع أبيك ثم، بعدها لن أزعجك أسيرم، لا تريديني في حياتك، أفهمك، ولن أزعجك، أعدك، وعد شرف.

حينها نظرت إليه برضاي:

_حقا؟ ستدعني وشأني؟

- نعم، نعم سأبتعد عنك، لكن اعلمي أني سأكون دائما بين يديك حين ترغبين في شيء، لن أبخل عليك بحياتي، ثقي بهذا أسيرم.

- لن تتّصل بي بعد الآن؟ ولن تجعلني أذهب إلى أماكن لا أريد قصدها؟

- سأنصرف عنك وانتهى، لن أتدخّل في شؤونك أبدا.

_ولن تغيّر رأيك؟

_إذا لم تريديني فلن أغيّر، هل سامحتني الآن؟

كأنه يترجاني، رحت أخبره أني سامحته، إلا أن أمرا ما لفت انتباهه إلى الوراء، وحين أدرت رأسي وجدت دراجة نارية قديمة تتوقّف وهي تحمل شابين، نهض من مكانه ويقترب مني:

- أسيرم، أغلقي الأبواب بإحكام من الداخل واهربي، أتسمعين، شغّلي السيارة واهربي.

فتحت عينيّ من الرّعب، ما هذه الليلة التي لا تنوي أن تعدي على خير، ومن أين سيأتي الخير حين يقصدك الشر؟ أغلق خليل الباب عليّ وفعلت تقريبا مثلما طلب، أقفلت الأبواب من الداخل وجلست في مقعد السائق، لم يطاوعني قلبي على الرحيل دون أن أعرف أنه بخير، لست من ذلك النوع من الناس.

بقيت أشاهد من مكاني إلى الوراء، راح حتى يحدّثهم لكن أحدهم تخطّاه واقترب من السيارة، ليتبعه خليل ويطلب مني ثانية الرحيل مشيرا بيديه، لكنّي هززت رأسي رافضة والدمع ينزل من عيني ثانية. فأمسكه خليل من الوراء والشاب الثاني اقترب وهو يحمل سكينا في يده، كان سيضرب خليل لكنه امتنع عن تلقي الطعنة عبر وضع الفتى الأول بينه وبين الشاب الآخر. وعندما وقع الشاب الذي كان بين يديه إثر تلقيه الطعنة مكان خليل، راح الثاني يهرب لكن خليل أمسك به. ضربه بشدة وقد صار الشاب الذي بين يديه دماء ولم يعد يتحرّك حتى، نهض الأول من مكانه بينما ينزع من سرواله سيف، وهو يقترب من خليل.

يا إلهي سيقتله، سيقتل خليل، فتحت النافذة وما أن وصل إليه ناديته وحذّرته، وعندما استدار لوّح بالسيف، أمسك خليل بالمنطقة الحادة من السيف وهو يدفع الشاب الذي وقع أرضا. تبعه بضربات متكررة برجله، حتى أغمي عليه. كان الشابين ملقيين أرضا عندما أخذ السيف وهو يراقبهما.

فهمت ما الذي كان يفكر فيه، خشيت أن يفعلها، ففتحت باب السيارة وأسرعت إليه:

- لا تفعل، خليل لا تتهوّر.

- كانا سيقتلاننا، هل أتركهما حتى يفعلان نفس الشيء بآخرين؟

هززت رأسي وأنا أقول:

- هي نتيجة عملك.

لاحظت حزنه على جوابي فأكملت:

- دعنا نذهب وانتهى، لقد تعبت، حقا تعبت خليل.

أخذ ذلك السيف في يده ورماه في صندوق السيارة، ليفتح لي الباب وأدخل ثم رجع إلى دراجتهما وحطّمها. شغّل السيارة فلاحظت الدم ينزل من كفّه. كانت في حقيبتي مناديل ورقية، ملأتها بالعطر، لآخذ يده حتى أمسحها.

قال:

- لا تزعجي نفسك أسيرم، عندما أصل إلى البيت سأهتم بالأمر.

_لكنّها تحتاج إلى تقطيب.

وتطلّعت به، ببقايا الدموع تلك في عيني.

- أنت طيبة أسيرم، أشكرك لأنك موجودة في الحياة التي أعيشها، أشكر الله لأول مرة في حياتي لأنه وضعك عقبة تفهمني أنه ليس كل الناس يتغيّرون، البعض يحمل البراءة في روحه مهما حدث لهم، انظري إليك، بعد كل ما فعلته بك اليوم، لم تتركيني ولم تدعيه يقتلني وها أنت قلقة على جرحي وتريديني أن أقطبه، هذا كلّه رغم كرهك لي.

بقيت أشاهد التعابير الكثيرة التي اجتاحت وجهه أثناء قوله هذه الاعترافات الخطيرة من رجل غريب، شجاع، أحمق، قاتل. ينتقل من الابتسامات إلى عدمها بين الثانية والأخرى. غارقة أنا كنت في نظراته الصارخة، أبحث فيهما عن جواب لتساؤلاتي، كيف له أن يكون إنسان ووحش في آن واحد؟ أحيانا يكون أرق من الندى وفترة أخرى يكون أشد لهيبا من النار، يحرق الأخضر واليابس، لا يفهم ويحقق إلا ما يريده، لا يهم كيف وبأية طريقة.

كانت الثالثة صباحا، فقلت وأنا أرجع يده إلى المقود:

- دعنا نذهب وإلا كُشف أمري.

لينطلق فورا، ونعود إلى الحي، نزل معي في آخر الطريق ورافقني من الخلف، حتى دخلت العمارة. فتحت باب البيت بهدوء وعدت إلى فراشي حتى دون تغيير ملابسي، شكرت الله أن لا أحد تفطّن لما اقترفته وإلا افتعلت مشكلة أخرى وأنا التي بدأت أتأقلم وأخي مؤخرا. لم أكن لأفسد الأمر لو كان بيدي. لكنه لم يفسد. لكن على الأقل سأتخلّص من خليل وكل ما يتبعه من مشاكل والتصادمات التي حدثت والكوارث التي حلّت بي من وراءه، من ورائه صرت أختنق وأبكي وأغار.



رغم محاولات يوغورتا، لم أتمكن من الاستيقاظ، إلا أني سمعت همس عليا وهي تطلب منه أن يتوقف، قائلة أن عبيدة ستأخذه ونجية. لأغمس رأسي تحت الغطاء أكثر وأقول في نفسي: "احمني يا غطائي من كل شيء."

بقيت مستلقية حتى الظهيرة، أحاول تعويض ما فاتني من راحة بسبب ليلة الأمس المنحوسة.

شربت قهوتي، من ثم قصدت غرفة المعيشة حيث عبيدة وأخي يشاهدان التلفاز، لابد أنها أحضرته قبل ساعة، رأسي يؤلمني بشدّة، أمسك به أحيانا، وعيني متورّمتان، من البكاء والسهر. نهضت عبيدة من مكانها ورجعت بعد دقائق لتقدّم لي مسكن الآلام مع كأس ماء.

- خذي، سيوقف ألم رأسك.

أخذتها من يدها ثم استمرت بوشوشة:

- السهر مضر لك يا ابنتي.

تطلّعت بها متفاجئة:

- هل رأيتني؟ تعلمين؟

هزّت رأسها بالإيجاب لأقول:

- أنا حقا آسفة، لن أعيد الكرّة.

قابلتني بابتسامة، أيقظت في نفسي حاجتي لأبي، أبي الذي ما كان سيمرئ الأمر بسهولة، لربّما بكى من هول ما تحولت إليه. وفي المقابل فهمت عبيدة

التي تحاول كسب ودّي بشتى السبل، مع ذلك لم تكن حاجتي لمن يرخي الحبال بل لمن يشدّها، ليد تشد شعري حين أخطئ وقلبا يقسو عليّ حتى ألين، تماما مثل أبي. صحيح، لم أعطها فرصة لتلعب دور الأم معي فكيف لها أن تمدّني بكل هذا؟ كما تبدو رقيقة وطيبة جدا، لم أفهم كيف هجرت أبي من أجل رجل آخر.

اقترب المساء وجاء الليل والفجر ولم يتّصل خليل، حتى أنه لم يقصد السطح الذي يراقبني منه، أيعقل ذلك؟ هل حقا قرر أخيرا إعطائي حرّيتي؟ خلال ذلك الأسبوع كذلك، لم ألتقي حتى به في الشارع، لابد أنه مسافر. فقد وعدني أن يأخذني إلى بيتنا لنأتي بأغراضنا، يمكنني طلب ذلك من عماد، لكني أخشى غضب خليل، حسنا لم يعد يتّصل وقد قال أنه لن يزعجني بعد الآن. ماذا أفعل؟ أنتظر قليلا وأرى.

وقد وصل يوم الخميس، قرّر عماد أخذي في جولة لكنّه طلب منّي اصطحاب عليا، ضحكت فقط عليه، خاصة بطريقته في فعل ذلك. التقينا به في آخر الشارع، حيث لاحظت سيارة خليل إلا أنها كانت فارغة، دخلت إلى سيارة عماد وأنا أنظر إلى الأخرى. عندما انطلقنا مررنا بقربها فلمحتها مفتوحة، يعني خرج لدقائق فقط، إذن هو في الحي، لقد عاد، هل سيزعجني ثانية؟ أم سيفي بوعده؟ الاقتراح الأول لم يشعرني بشيء أما للثاني قفز قلبي.

وحين اقتربنا من الخروج من ذلك الزقاق وجدته واقفا مع بعض الرجال، صمت عن الحديث وهو ينظر إليّ. كدت أبتسم له، لكني امتنعت. فقط أبقيت على ملامح وجهي ثابتة، لا يظهر عليها شيء!

يتبعني بلفّ رأسه باتجاهنا بينما أشاهده من المرآة الجانبية، رفاقه يكلّمونه وهو لا يعبأ بغير تلك السيارة التي مرت بالقرب منه، هل سيجعله هذا يتذكّرني الآن؟

تنهّدت، لا أعلم لم، كأني اشتقت إلى تلك الأعين، مع أنها تؤذيني كثيرا، كلّما اقتربت مني أحرقتني وجذبتني إلى عالم غير عالمي، لا أنتمي إليه، لم إذن جذبتني نظراته؟ جعلت في قلبي حسرة مريرة يومها، رحت أحاول إعدام تلك المشاعر الغريبة التي اعترتني.

أيقضني حال وصولنا إلى مكان يدعى "الشفّة"؛ هناك قردة والناس يلتقطون صورا، خرجنا من السيارة وأخذنا نمشي في الأنحاء، ممسكة بيد عليا بينما يمشي عماد على يميني.

بعد صمت غريب دام دقائق، نطق أخيرا:

- هل تريدان أن أحضر لكما شيئا؟

أجبت بلا، ثم استمررت:

- لم لا تذهبان أنت وعليا في جولة مشيا ودعاني هنا أستريح، فأنا متعبة قليلا، ستجدانني أنتظركما.

عماد بدا مرحبا بالفكرة، أما عليا فهزّت رأسها معارضة:

- ماذا لو أزعجك أحدهم؟ لن يدعك الشباب في حالك تعلمين.

- لن يزعجني أحد وأنا في هذه الحالة، أبدو كالمتشردة لن يقربني أي شخص.

بدت متردّدة، فقلت:

- هيّا اذهبا، أنا ها هنا، إذا احتجتكما سأتصل، حسنا.

قال عماد:

- لم لا ترافقينا؟

- أخبرتك، لقد تعبت، لدي بعض الأمور أفكر فيها لوحدي وأنتما في الحقيقة تزعجانني، هيا، اذهبا الآن.

تعلّمت الأوامر.

- حسنا، حسنا.

أجابني عماد والسعادة بادية على وجهه، ليلتفت إلى عليا ويكمل:

- دعينا نذهب في هذه الجولة قبل أن تنفجر أختك في وجهينا.

غمزت له فضحك، أما هي كالمسكينة صامتة لا تفهم ما يحدث حولها، أو تفهم ولا تظهر.

جلست بعد مغادرتهما تحت تلك الشمس التي طلّت بخجل فوق الغيوم الملبدة والسماء بألوانها المختلطة، الناس برفقة عائلاتهم، أحبائهم، أزواجهم، أصدقائهم، أحب رؤية الناس مستمتعين عادة لكن ذلك اليوم غرت بعض الشيء. فأنا لم أعد أملك تلك العائلة التي عشت فيها، أجبرت على التأقلم مع علاقات كثيرة لم تناسبني قبلا، أم لا أرغب فيها وزوج أم لم أحتمله يوما، أخوات لم أعترف بوجودهم وغريب جعلني أنسى موت والدي بهموم جديدة.

أضحك أحيانا على الأطفال الذين يتدافعون ليروا القردة من على تلك الصخور الكبيرة مع شلالات رقيقة تسقط منه وسياج على الصخور لم أفهم سبب تواجدها هناك أصلا، لكن يبدو أن القردة أعجبتها، استعملتها لتسلّقها بسهولة، مع أنها شوّهت المنظر بعض الشيء.

لبثت وقت معتبرا وحدي، حتى بدأت تمطر، لأجد عليا وعماد يتّجهان نحوي، يبتسمان من عينيهما، يبدو أنهما قضيا وقتا جميلا، على الأقل هما فعلا. ابتسمت لهما أثناء تقدّمهما، كنت مغطاة تحت شجرة، مع أن عماد ترك لي مفاتيح السيارة لكني لم أرغب في الدخول. فتح لي عماد الباب ودخلت ثم تبعتني عليا.

قال وهو يقفل بابه وراءه:

- نقصد الآن مطعما قريبا، نأكل شيئا ما ريثما تتوقّف الأمطار، يحضّرون أسماك مشوية رائعة.

- يبدو أنك قصدت هذا المكان كثيرا عماد.

قلت له، وهو أومأ برأسه مجيبا بالإيجاب، لأستمر:

- لابد أنك أتيت بكل فتاة عرفتها إلى هنا.

تطلّع بي غير مصدق أني أتلفظ بذلك:

- صدّقي أو لا، لم أحضر أي فتاة إلى هنا، دائما آتي مع أصدقائي.

- آه حسنا، يعني أني وعليا صديقتان وانتهى؟

- ما الذي تنوين الوصول إليه أسيرم؟

التفت عماد حينها إلى عليا:

- لا تصدّقيها ولا تسمعي كلامها، إنها مجنونة.

أجابته عليا:

- إذن لا أصدّقها حين أخبرتني أنك شخص صالح؟ مثلما تريد.

فأخذت أضحك لأتوقف مرّة واحدة:

- هيّا الآن، أخبراني ما الذي يحصل؟

أدرت رأسي إلى عليا فوجدتها حمراء كحبة طماطم، ثم إلى عماد:

- أنا أدرك جيّدا أنكما معجبان ببعضكما، أنت تطلب مني إحضارها معي وهي تسألني عنك.

صرخت عليا متفاجئة:

- أسيرم!

- ماذا؟ أليست الحقيقة؟ لا تقولا أن مشيتكما تلك لم تأتي بأية ثمار؟

- أنت مريضة حقا.

بقي يردد عماد والابتسامة عريضة على وجهه:

- حقا مريضة.

- إذا لم ترغبا في مضايقتي لكما أطلعاني فقط ماذا حدث مرّة واحدة، حتى لا أسمع لنفس القصّة مرّتين وبطريقتين، ونفس العينين الذابلتين.

- حسنا توقّفي أسيرم أرجوك، فقط توقفي.

جعلت عليا تخجل مني، آها... هذا خبر.

- أتريدين أن نطلعها؟

سألها عماد، هزّت رأسها موافقة ثم تابع:

- إذن اعلمي يا مشاغبة أننا قرّرنا التعارف بشكل أكثر، تعلمين، أكثر.

- هذا فقط؟

سألته، فلم يجب، لذا أكملت:

- اسمع عماد، هذه أختي، أعرف أنك شاب لطيف ولست لعوبا، لكني لن أقبل بأن تبدأ علاقة مع أختي لا تنوي فيها أن تكلل بالزّواج، أتسمعني؟

- لو تقبل، سأخطبها غدا من والديها أسيرم.

وهو يتطلّع بها منتظرا إجابتها. قالت:

- ليس الآن، لازلت أدرس، ولست أفكّر في الزواج بعد.

- لا يهمّني عليا، أن ترتبطا الآن أو بعد الآن أو ابدا المهم عندي النية.. ألا تبدآ علاقتكما على أساس أنها نزوة تنتهي ما أن تموت فيكما الرغبة، لو لم

ألاحظ أمرا حقيقيا يدور بينكما ما كنت شجعت على هذا، لكنّي أثق بكما، لن تجعلاني أندم، أليس كذلك عماد؟

هزّ رأسه موافقا:

- أليس كذلك عليا؟

فعلت نفس الشيء، ثم التفتت إلى عماد ثانية:

- أليس كذلك عماد؟

- لم سألتني مرّتين!؟

- فقط لأنك رجل.

وانفجر الاثنان ضحكا.

لم تكن تغطّينا في تلك الطاولات إلا مظلات صيفية كبيرة، الحمد لله لم يكن هناك رياح! حسنا، لكنّا رحلنا ببساطة، مع ذلك جوّ العاشقين كان جميلا رغم الأحوال الجوية المضطربة، فمن أكون أو تكون الرياح لنعكّر صفوهما؟ طلب عماد ذلك السمك المشوي، وحقا كان لذيذا، ليس كأني لم آكل يوما سمك مشوي لكني لم أحبّه من قبل كما فعلت يومها.

وعند انتهائنا من التهام آخر لقمة كما لو أننا أتينا جياعا منذ أيام، فلنقل أنا وعماد، فعليا استحت ولم تلمس منه إلا القليل، لابد أنه أعجبها، لكن بروتوكولات العلاقات وصلتها، من يهتم يا غبية، كلي مثلما تريدين، لم هو يحق له أن يبدو في أسوأ حالاته وأنت لا؟ غريب هو أمرنا نحن النساء، نتقبّل الرّجل حتى لو رأينا منه سوء، ونتوقّع منهم أن يرفضوا ما نفتكره

نقائص لدينا، كأننا خلقنا لنكون مثاليات، وكأنه إذا أكلنا قلّت أنوثتنا، غريب!

سألتها:

- لم لا تأكلين عليا؟

- لست جائعة.

- نعم، صحيح.

تطلّعت بي محدّرة وكأنها حفظتني في أشهر، علمت أني سأحاول إحراجها بطريقة ما. فصمتت. إلى أن تذكّرت، التفتت حينها إلى عماد:

- عماد.

- ماذا عنّي؟

- آه، الآن وبعدما عرّفتكما وسهّلت الأمور لكما صرت مصدر إزعاج؟ حسنا لن أرافقكما بعد الآن.

- تتحدّثين بجدية؟

ووجهه خال من التعابير إلا المفاجئة.

- لا تفرح كثيرا يا غبي، أريدك في أمر عماد.

سألني ماذا، فاستمررت:

- أريد إحضار بعض الأغراض من بيتنا. إذا أمكنك أن ترافقني وتدخل بنفسك حتى تأتيني بها سأكون ممتنّة.

وبصوت شعرت فيه ببعض الحزن، مثلما يكون قد تذكر تلك الليلة المشؤومة:

- طبعا، وقتما تشائين.

- ربّما بعد غد، السبت، هل يناسبك؟

هزّ رأسه موافقا فعدنا إلى حديثنا الساخر ومع مرور الوقت شاركت عليا أكثر، يبدو أنها تحدّثه كثيرا حين يكونان على انفراد، ما كشفته الساعات التي تلت خلال معرفته ما يكفي من الأمور عنها. حسنا، لم أعلّق على هذا حتى لا أجعلها تنطوي ثانية على نفسها حين تكون برفقتنا نحن الاثنين، ربّما تشعر بالخجل مني، هذا منطقي وطبيعي، فأنا أختها الكبيرة، نعم، أختها الكبيرة، قلتها وفكّرت فيها مرارا هذه الجملة. لكنّي فضّلت معرفتي بالموضوع حيث أتمكن من حمايتها إذا أمكن وأشجّعها وأنصحها حيث تحتاج، فالشباب يتعرّفون شئنا أم أبينا ببعضهم لذا من المستحسن أن نعرف كأولياء رحت أقول، لكن عليّ أن أقول كعائلة. نسيت أني شابة تكبرها بسنتين فقط. قضينا ما قضيناه في ذلك المكان السحري من وقت، كان يوما ممتعا على العموم. ثم أوصلنا إلى حيّنا ومن حيث أخذنا وضعنا. صعدنا تلك الطلعة التي تبدو كالجبل من بعيد.

ربّما كنت وحدي أراها كذلك و أتعذّب أثناء مشيي، ألهث و أتعرّق رغم رشاقة جسمي.

7

عندما بلغنا حينا وأثناء تنفّسي بصعوبة من شقاء الصعود، رأيت خليل واقفا بقرب يوغورتا ونجية، لابد أنه وجدهما يلعبان في الشارع فاقترب منه. رآني يوغورتا فأسرع إليّ. رفعته عن الأرض وقبّلته، لأضعه ثانية وتقع عيني على خليل، هذا الأخير، وضع يديه في جيبه وانصرف، أفلت أخي يدي وتبعه بخطواته الصغيرة، لكنّه لم يتمكّن من الوصول إليه.

حتى سمعت صوته الحلو ينادي:

- خليل، خليل انتظرني.

فتحت عينيّ من الدّهشة، أخي يتحدّث! رجع صوت يوغورتا، إنه يتكلّم! هل هذا حقيقي؟ وقفت مكاني من تفاجئي الشديد. أما خليل فاستدار، من نظراته لم يكن يتوقّع أن يكون أخي هو الذي يناديه، لم يسمع صوته قبلا ولا يعرف كيف هو.

عندما أدرك أنه يوغورتا فتح عينيه ورفع حاجبيه، لينظر إليّ ثم إليه، عاد أدراجه ونزل عند أخي، حضنه بشدّة كأنه انتظر تلك اللحظة مثلي، أيعقل أنه أحبّ يوغورتا بحق؟ أخي الصغير بين ذراعي خليل وهذا الأخير يحدّق بي منتظرا مساعدة مني. ومن سيحمل رجليّ على المشي إليهما؟ أنا عاجزة.

اقتربت منهما والناس من كل جهة يراقبون، مستغربين ما يحدث، لابد أن الجميع سمع بأني كنت أرافق خليل، كيف لا وهم يعاملونني أكثر من جيد بسبب ذلك، وهم يتطوّعون لمساعدتي وإسعادي. أطلق خليل سراحه، ناديت باسم أخي والتفت إليّ ذلك الصغير المبهج.

- حبيبي، عمري، أتدرك ما الذي فعلته منذ قليل، تعال.. تعال.

ضممته إلى صدري، أثناء ذلك وقف خليل وبقي يشاهد مثله مثل الباقين. حين أبعدت يوغورتا وضممت بكفيّ كلا خديه:

- قل شيئا، تحدّث ثانية.

وبسنّيه المنتزعتين، أجابني رافعا حاجبيه واللعاب يخرج من فمه:

- ماذا تريدينني أن أقول؟

وراح يعض إصبعه، لم يدرك الانجاز الذي قام به، جذبته ثانية إلي وحضنته.

نظرت إلى عليا فقلت:

- إنّه يتحدّث.

ثم إلى خليل:

- عاد ليتكلّم خليل.

أومأ برأسه، بعدها غادر وخلفنا هناك. كأني أوّل مرّة أسمعه يتحدّث، لا أدري لم لطالما توقّعت أن يقول اسمي بما أني أهم شخص في حياته مثلما هو في حياتي، فأول كلمة قالها كانت "ماما" ككل الأطفال ثم "أسيم" أي أسيرم،. إلا أنه قال وبكل بساطة "خليل" وكم كرهت ذاك الخليل لأنه سرق أول كلمة مني وكم أحببت ذاك الخليل لأنه أرجع صوت أخي لي.

سألني يوغورتا:

- إلى أين سيذهب خليل؟ لقد أحضر لي سبايدر مان، أنظري كم هو رائع.

وأنا أردد على مسامعه نعم، قاصدة نعم تكلّم، نعم، تابع قائلا:

- أردت أن أقبّله مقابل ذلك.

لم تكن وحدك عزيزي. أخذ يكمل:

- فأنت كلّما أحضرت لي لعبة تطلبين قبلة مقابلها.

رحت أضحك وحضنته ثانية، ليطلب مني:

- ناديه أسيرم.

بعينيه الكبيرتين أخذ ينظر إليّ، فلم أجد إلا بأن أعده:

- ما قولك لو نتّصل به بعد العشاء ونشكره؟

هزّ رأسه موافقا:

- ويمكنك إخباره ما تريد.

رحت أقبّله مرارا، كأنها أول مرة ألتقي به منذ مدّة.

❖ ❖ ❖

من فرحتي عدت إلى وسط حينا واشتريت دجاجتان مشويتان مع بطاطا مقلية وزدت مشروبات غازية وعصير. حملتها إلى البيت كي نحتفل معا بهذه المناسبة، فرح الجميع طبعا. قبّلوه لذلك وهو لم يفهم شيئا وأنا لا أدرك كيف لم يفهم، ألم يعي أنه نسي التحدّث لأشهر؟ تناولنا عشاءنا في جوّ مرح جدا، حيث الضحك يملأ المنزل، ما نقص إلا فاروق الذي أصبح يطوّل ببقائه خارج المنزل يوم بعد يوم، تبدو عبيدة قلقة عليه لكنّها تصمت حتى لا تزيد على زوجها المشاغل. لاحظت ذلك رغم أنهم لا يخبرونني. وأنا بدأت أقلق بشأنه، خاصة بعدما عرفت خبايا ذلك الحي وما يمكن أن ينتج عنه.

فورما دخلنا غرفتنا أنا ويوغورتا مع نجية حتى اقترب مني:

- أسيرم، فلنحدّث خليل، لقد وعدتني أتتذكرين؟

ابتسمت له، وأخذت الهاتف..

- انتظر قليلا.

بحثت في قائمة الاتصالات حتى وقعت على اسمه، تنهّدت وضغطت على الرقم، أخذ وقتا طويلا حتى أجاب بصوته الخشن بعض الشيء، فقلت بصوتي الخجل:

- يوغورتا يريد محادثتك، إنه يصرّ على شكرك على اللعبة التي قدّمتها له.

- حقا! أعطني إياه.

كأن الحياة دبّت في صوته.

وراح يصرخ أخي:

- أعطني، أعطني.

وهو يفتح ويغلق أصابعه منتظرا ذلك الهاتف بفارغ صبر، وحين أمسكه، وضعه على أذنه:

- خليل، هذا أنت؟

صمت قليلا ثم قال:

- لقد أحببت سبايدر مان كثيرا، لكنه لا يقوم بأية حركات، لقد جعلته يطير من النافذة، لكنّه لم يعد حتى الآن.

فتحت فمي، لم أدرك أنه رماه، سمعت صوت خليل يضحك في الجهة الأخرى من الخط، واستمر أخي في نكته غير المخطط لها:

- يا ترى أين ذهب؟

أخذت الهاتف من أخي وقمت بتشغيل مكبّر الصوت بسرعة..

ليجيب عليه خليل:

- لا تقلق يا بطل، لقد أتى عندي.

- لماذا؟ ألم يعجبه المكوث لديّ؟ أخبره أن يعود وسأبقى مطيعا.

- لا بل أعجبه المكوث لديك لكنه فقط اعتقد أنك لم تعد تريده حين طردته من النافذة يا صديقي، دعه يرتح اليوم وغدا سأرسله لك موافق؟

- موافق.

صمت قليلا ثم:

- خليل، هل تحبّني؟

- طبعا أحبّك، وأنت؟

قال أخي أنه يحبه، فاستمرّ خليل قائلا:

- كم تحبّني؟

- كثيرا، كثيرا، كثيرا.

- إذن بذلك القدر احضن أختك، أتفهمني صديقي؟

- حاضر.

نظر إلي وقال:

- تعالي.

أمسكني وحضنني بشدة كبيرة بالنسبة لطفل بعمره. ليقرّب فمه من هاتفي ويرشّه بلعابه الذي يخرج من الفتحتين اللتين تركتهما سنتيه وهو يقول:

- لقد فعلت ذلك خليل.

- دائما افعل ذلك، لا تغضبها ولا تتعبها مفهوم، كن ولدا مطيعا.

- نعم أعلم، أنا أصلا أحبّها.

ضحكت على هذا التعليق البريء منه، والآخر سمعته يقهقه في الطرف الآخر، ليواصل:

- كما أن أمي أخبرتني بأن أتّصل بأسيرم وألا أغضبها أبدا.

فهمت يومها أنه رأى أمه حقا قبل أن تموت يوم الحادث.

ناديته والرّعشة تذهب صوتي يمينا و يسارا:

- يوغورتا.

حضنته أثناء بكائي.

صمت خليل لبعض الوقت كأنه فهم الموقف كلّه وبعدما طال الأمر قال:

- لا تبكي أسيرم، كل شيء ينسى مع الوقت..

أجبته:

- أنت لم تنسَ.

وأخي في حضني، غير مدرك ما قاله أو فعله.

ليجيبني عبر ذلك الهاتف الموضوع على السرير:

- لا تخيفيه على الأقل.

أدركت أنه محق، فابتعدت قليلا عن أخي، وقال خليل:

- يا بطل، ماذا يحدث هناك؟

- إنّها تبكي، آسي تبكي.

- امسح دمعها إذن يا بطل، لا تتركها تبكي، فكلّما دمعت عيناها خسر سبايدر مان قواه، لا تريده أن يصبح عاجزا أليس كذلك؟.

أجابه نفيا فأكمل:

- أنت تعرف النساء كم هن عاطفيات، عليك أن تكون قويا لتحميهن، كن رجلا.

خلال مسحي عيوني وافق أخي على ما قاله ثم أجبت:

- لا تكن رجلا، بل عش طفولتك يوغورتا، أنت طفل.

- لا بل أنا رجل، وأنت امرأة عاطفة.

حتى عاطفية لم يعرف كيف يقولها ويريد أن يكون رجلا، ثم استمر:

- أنا رجل مثل خليل.

- وأبي، عليك أن تكون مثل أبي أيضا.

وفي نفسي أقول: "خذ من خليل الشجاعة فقط أما الباقي من أبي"

- نعم، مثل خليل وأبي.

بعد صمت دام ثوان، ناداني خليل:

- أسيرم، أغلقي مكبّر الصوت أرغب في محادثتك قليلا على انفراد.

- حاضر.

فعلت مثلما قال، ثم طلبت من أخي الجلوس مع نجية، ورحت أنا إلى الشرفة:

- أنا وحدي الآن، ماذا هناك خليل؟

- أنت بخير الآن؟

أجبته أني كذلك، فاستمر:

- لا تجعلي يوغورتا يشعر بحزنك، منك يستمدّ قوّته أسيرم، أنت من يريه ما عليه أن يشعر به.

- لم أطلب منه أن يحبّك.

- إلا هذه..

توقّف لثانيتين، ليأخذ نفسا، بعدها:

- أسيرم، لقد طلبت مني منذ مدّة مساعدة في إحضار أشيائكم من بيتكم، لديّ وقت غدا إذا رغبت.

- آه نعم، لكنّي طلبت من عماد اليوم أن يأخذني.

- حسنا إذن، يسعدني أنك انتهيت من الأمر.

- لا، لم أحضرهم بعد، طلبت منه مرافقتي بعد غد، لذا سنقصدها يوم السبت.

- يمكنني أخذك غدا.

- حقا! حسنا.

- هكذا إذن، نلتقي غدا بعد صلاة الجمعة، كالعادة، أبلغك حين أصل، تصبحين على خير أسيرم.

- تصبح على خير خليل.

أقفل الخط، ثم عدت إلى أخي حتى أفرح به وأسمع وأشبع من صوته الغالي على قلبي، لا بل الأغلى من قلبي. وبعد ساعتين نام الطفلين وبقينا أنا وعليا نتحدّث على عماد حتى سمعت هاتفي يرنّ ويطلب مكالمتها، لم يكن لديها هاتف نقال لذا اتصل من عندي، فذهبت إلى الشرفة حتى تكلّمه براحة أكبر. أمضيا ساعات كذلك، وهي جالسة في ذلك البرد وهو لابد أنه في غرفته، آه لتضحيات الحب. حسنا، إني أمزح فقط، لكننا كنساء حقا نضحي أكثر من الرّجال، نتخلّى عن راحتنا من أجلهم، عن أحلامنا وحتى أحبائنا في بعض الأحيان.

لاحظت أنه حين يكون الفرد مشاهدا فقط يتعلّم أكثر من لو أنه داخل العلاقة أو الحدث، حين تعيشها يبدو لك كل شيء غير حقيقي وجميل أو العكس، أما المشاهد فهو يتلقى كل الأمور التي تفلت بين يدي الذين يعيشونها حقا، يرى كل شيء على حقيقته، سواء جميل أو قبيح. فبقيت أتعلّم منهما عليا وعماد.

عندما أنهت المكالمة عادت لتروي لي ما تحدّثا فيه، والبريق في عينيها، يبدو كأنها تحبّ، بدأت أسأل نفسي لم أنا لم أشعر يوما مثلها يا ترى؟ لكني تلقيت من الحب في بيتي ما كفاني عن حب الرجال، على الأقل ليس أي

رجال، على من أحب أن ينتزع حبي مني، فككل حرب الحرية فيها تؤخذ ولا تعطى وأنا وطن يحتاج لمن يعرف كيف يسلب منه حريته.

ككل ليلة لم يدخل فاروق بعد، حتى ساعة متأخرة من الليل، أسمع والده يسأله أين كان وهو ينتظره قرب الباب، والآخر يتهرّب من الجواب، شاجره قليلا وطلب منه ألا يعيد الكرّة، لكن عبيدة تخرج و تجعلهما يصمتان، ثم يذهب كل منهم إلى مكانه وينام.

في الصباح استفقت، رحنا إلى حمام النساء بالحي حتى نستحمّ أنا وعليا ونجية. أمنت يوغورتا لدى عبيدة، في البداية قالت عليا أنه يمكنني أخذه، وجدت الأمر غريب حقا، سيكبر ذات يوم، ولن أزيد مشاكله النفسية! طبعا لم يكن ذلك مقبولا وما كنت سآخذه لو اضطررت للبقاء معه في البيت. رحنا سيرا على الأقدام بما أنه قريب، وفي طريق العودة مرّ شاب بسيارة فخمة وراح يحاول استمالتنا، يسأل أرقامنا ومن ثم يطلب مرافقته. رآه شباب الحي، في البداية أتى اثنين منهم أخرجوه من سيارته وضربوه، شعرنا بحرج شديد أنا وعليا فأسرعنا بخطواتنا إلى العمارة، الكل يطلّ من النوافذ والشرفات، والشباب الباقي يجرون إلى مكان وقوع المشاجرة، لا أدري إن كانوا يقصدون المكان للمشاركة أو حل المشكلة.

بعد عشر دقائق هدأ الوضع، ثم راح كل في سبيله وعمله. جلسنا نحلّل الموضوع مع عبيدة التي كانت تستقبل جارتها، والتي يبدو أنها لم تكن راضية عن الموضوع أبدا، قائلة أنه عليهم تلقينه درسا، وما الذي فعلوه يا ترى، ماذا يعد؟ حين انتهينا من ذلك رحت عند أخي وحمّمته، طبعا نجية طلبت منّي أن أحممها وأقوم بتمليس شعرها بالمجفف، مثلما أفعل. ودون شعور مني وصل وقت الغداء، تناولناه جميعا معا وكالعادة بيوم الجمعة يحضّرون

الكسكس بالدجاج، أعترف بأن طبخ عبيدة أفضل من طبخ جميلة رحمها الله. أسرعت لأجهّز نفسي. ارتديت ملابسي ومشّطت شعري، ثم عدت لأربطه على شكل ذيل حصان، وجلست أنتظر ذلك الاتصال من خليل، حسنا، لم أتلقاه حتى الساعة الثانية زوالا. قائلا أنه ينتظرني.

وصّيت عليا على أخي ورحت أجري إلى المكان الذي نلتقي به عادة وهو متكئ على سيارته يتصفّح هاتفه، عندما رفع رأسه ليراني. لم يبتسم لي ولا ألقى التحية عليّ بل اقترب من باب الراكب وفتحه، لأدخل ويغلقه ورائي.

انطلقنا في صمتنا ذاك، وبعد خروجنا من المنطقة، قال:

- ماذا قلت تحتاجين من بيتكم؟

- تلفازان وصوري مع ألعاب يوغورتا. حين نصل إن شاء الله أخبرك بالتفاصيل.

صمتت قليلا ثم واصلت:

- لكن حين تدخل غرفتي إياك أن تبحث في أغراضي، اقصد فقط الأماكن التي أخبرك عنها.

- لم قد أبحث بين أغراضك، أعرف كل شيء عنك، لا حاجة لي لمذكراتك.

- من أين تعلم أنه لديّ مذكّرات؟

- تبدين ذلك النوع من الأشخاص أسيرم.

- حسنا.

بقيت صامتة لمدّة قبل أن أقول ودون مقدمات:

- هل جرحك أصبح أفضل؟ أقصد، ذاك، أنت تعلم.

لم أتمكن من تدارك نفسي، فقد قلتها دون تفكير ووضعت رأسي في مأزق.

- ها هو.

أعطاني يده وأمسكتها، آه. أردت أن أبكي، لم أمسكتها، غبية، غبية، وتطلّع بي بعينيه بحنان يتقطّر منهما، لا لن تخدعاني بعد الآن، وقال:

- الآن أصبحت وكأنها لم توجد حتى.

رميت بيده بعيدا فضحك. يا له من شرير، يحن ويضحك، ويقسو ويجعلني أبكي.

- جيّد، جيّد أنها شفيت.

وبعد ذلك رميت بقنبلة أخرى:

- ماذا عن تلك الفتاة التي قصدت معها الطابق العلوي، هل أصبحت تقابلها الآن؟

استغرب سؤالي، لاحظت ذلك في عينيه، ثم أجاب:

- لم قد أقابلها يا أسيرم؟

- لا أدري، كنتما معا، أقصد، اختليتما ببعضكما، ولابد أن أمورا أخرى حدثت بينكما.

ثم جمّعت قواي:

- خليل، لم رافقتها؟

ابتسم وهو يجيب قائلا:

- كنت سكرانا، لم أكن أريدك أن تري ذلك، هذه هي حياتي وهذا أنا، ماذا أفعل؟

- ألم تقل أن الخمر لا يؤثّر فيك؟

- قلت هذا؟ متى؟

- لا تذكر!

ثم استمررت ساخرة:

- تذكّرت وعدك ولم تتصل لكنك نسيت أفعالك وأقوالك، كاذب.

- أسيرم! أصلا، لم تصرّين أن تعرفي؟ نحن هكذا نعيش حياتنا وأنت لا تريدين تقبّلنا، ثم، هي يمكنها أن تعطيني ما لن تعطيه أنت لي.

- ماذا تنتظر من حطام أن يعطيك؟ ألم تأخذ ما تحتاجه منّي؟ أثبتت ما أردت إثباته وانتهيت مني، ما الذي تحتاجه من فتاة مثلي؟

- كل ما فيك، كنت أريد كل شيء فيك، احتجت إلى حبك لأخيك وكرامتك وحزنك على أبيك، احتجت لغضبك وكبريائك، لابتساماتك أيضا، أنت كنت السعادة تمشي أسيرم. لكنّي أدمّر كل ما أنت عليه باقترابي منك، أنت تتقزّزين حتى من التواجد بقربي، أدرك، أدرك، خاصة بعدما رافقت تلك الفتاة، أصبحت في عينيك أكثر من حثالة.

لم أجب عليه وذلك بدا قد أزعجه، كأني أكّدت كلامه بسكوتي. حين وصلنا إلى سيدي يحي، حيّنا القديم الجميل، الرائع والراقي، تنهّدت. ليت حياتي بقيت مثلما كانت، هذا ما كنت أقوله في نفسي، تمنيت لو أني أرجع بالوقت إلى الوراء حتى على الأقل أودّع أبي كما ينبغي.

توقف بالقرب من بيتنا، ظل خليل صامت وهو يراقبني وتعبيرات وجهي تتغيّر، بينما عينيّ الدامعتين مثبّتتين على جدران بيتنا، لم أدرك قبلا كم هو كبير حتى عشت في بيت عبيدة.

أيقضني خليل:

- أسيرم، أسيرم، أعطني المفتاح.

أعطيته إياه وقلت:

- ستجد التلفاز بغرفة المعيشة وأحضر الخاصة بأخي، ستتعرّف إلى غرفته بسهولة، فهي مليئة بالألعاب، لا تنسى أن تحضر صوري خليل، تجد ألبوم صور كبير في خزانتي، ذاك هو، وعند طاولتي إطار فيه صورة لعائلتنا متجمّعة، أرجوك أن تأتيني بها.

- حاضر.

وأستمر في إفهامه وهو يقول:

- حاضر.

لابد أني الوحيدة التي سمعتها منذ مدّة، لا أحد يرسل كابوني ولا أحد يطلب منه، إنه من يأمر والناس يقولون (حاضر).

دخل إلى الحديقة الأمامية ثم البيت، ترك الباب مفتوحا، ربّما لعادته، وبعد ربع ساعة أتاني بألبوم الصور والإطار الذي طلبته، قائلا أنه وجد التلفازين ولعبة الفيديو وقام بفصلهم، ثم سألني إن كنت بحاجة إلى شيء آخر، قلت نعم في قلبي، قلت لا بفمي، أنا بحاجة إلى من يضمّني، هذا بيتي، أريد أن أبكي على من فارقتهم عيني، أريد صدرا يخفف عنّي ويدا تربّت على ظهري. وبين يديّ ذكريات من كانوا يوما سكان هذا المنزل. عاد إلى الداخل فرحت أنظر إلى الصورة بالإطار، كم كنّا سعداء، فرحين ومرحين، لا شيء يعكّر مزاجنا، دائما نضحك ونسخر من بعضنا. كنّا عائلة جميلة، مثالية. ليأتي خليل بالتلفاز الأوّل، ويعود إلى الدّاخل. أمسكت بألبوم الصور فوجدت صورة أبي هي الأولى، بعينيه المليئتين حياة، قد مات. ثم أنا ويوغورتا، هذه في رحلتنا إلى وهران، الأخرى عندما قصدنا بجاية، الثانية لما تخرّجت من الثانوية واحتفلنا، في عرس ما، في البيت فقط، كنّا في كل مكان ورافقتنا السعادة إلى كل تلك الأماكن. نزلت دموعي على ذكراهم، ذكرى أحبائي ومن رأتهم عيني بأبشع المناظر، أتنفّس بصعوبة وكتفيّ تصعدان وتنزلان، قلبي ينبض بسرعة.

وصل خليل، ووضع التلفاز الثاني في السيارة عندما اقترب مني وأغلق ذلك الألبوم، قائلا:

- لست مستعدّة للصور بعد.

رماه على الكرسي الخلفي، نزل عندي وأمسك بيدي ليمسح بأصابعه دموعي:

- لا تبكي أسيرم، كل شيء سيكون بخير، هذه هي الحياة وعلينا تقبّل ما يجري فيها.

- لكنّي اشتقت إليهم.

والدموع تزيد سيلانا، أضفت:

- ألا تشتاق لعائلتك؟ أنت تعرف ما معنى أن تخسر أحبائك، مثلي.

- بالطّبع أشتاق إليهم أسيرم، وكيف لا أفعل؟ لكن عندي طريقة جيّدة للنسيان.

رفعت عيني إليه وقلت:

- ما هي؟

- أفكّر فيما يزعجني وأنا حي وهي حيّة، أفكّر فيمن ينقّم عليّ معيشتي ومن يمكنه أن يحسّنها أم يجعلها كاملة، لا أترك مجالا لتلك الأفكار أن تطال عقلي، لذلك أخذتِ مساحة كبيرة في حياتي أسيرم، بك تعلّمت أن أنسى، لذا فكّري بمن يزعجك لتنسي أنت كذلك، أنا مثلا.

ضحكت كأنه قال نكتة:

- أنت محقّ، لقد تمكّنت من تخطي محنتي بعض الشيء بسبب مشاكلك، فما جعلتني أعيشه أنساني قليلا ما رأيته.

- إذن، فكّري بي، حسنا.

- لكنّك لم تعد تزعجني، أقصد، وعدتني بأن تتركني وشأني.

أنزل عينيه أرضا ثم استمررت سائلة:

- وهل، هل لازلت أنسيك موتهم؟ أقصد، أتفكّر بي؟ أزعجك خليل؟

- نعم لكل أسئلتك، وستظلّين تزعجينني إلى آخر لحظة في حياتي، وصدّقيني أحب مضايقتك لي، مزعجتي أروع ما حدث لي.

ماذا يقصد؟ أنا مزعجته، أيعني أنه يجدني أروع ما حدث له! فمسح وجهي:

- ألن تتوقّفي عن البكاء؟ توقّفي، توقّفي، توقّفي.

ضحكت وقلت:

- صرت مثلي، تعيد الكلام كثيرا.

- تعلّمت منك، هل نسيت تعذيبك لي بأخي، أخي، يا مقزّزة.

وهو يبتسم، حتى تظهر ندبته الصغيرة تلك على وجهه، رآني أنظر إليها، فقال:

- هذه إحدى آثار الذكريات.

ومن بين المرات القلائل التي أكون فيها مرتاحة معه، مددت بإصبعي لألمس تلك الندبة، فأغلق عينيه، كأني وضعت دواء شافيا عليها، فقلت:

- رغم ذلك أجدها جميلة عليك.

فتح عينيه:

- إذن أصبحت آثار ذكريات غير تلك التي انقضت.

ليتني كنت دواء يشفيه حقا وأشفي نفسي معه وأخي، ليتني أمثّل وأجسّد نظراته، أحيانا قوية ومرعبة أكون وفي أخرى حنونة ورقيقة، أشعر كأني امرأة خارقة وأنا أراني في عينيه، هل أمثّل ما يراني حقا؟ هل أكون بتلك المثالية التي يعتبرني بها؟ لم أحسب يوما نفسي كذلك على الأقل. ومع ذلك لم أدرك إن كان قد انتهى حقا من لعبته، أم أنه يتخبّط مثلي في كيفية اعتبار ما حصل ويحصل بيننا؟ أعليه أن يكرهني أم يشعر بالشفقة عليّ أم، أم يحبّني!

نزعت يدي من على ووجهه وأجبت:

- ربّما تلك الفتاة تعرف كيف تصنع لك ذكريات جميلة وحقيقية.

بدا وكأنه انزعج من كلامي، فنهض وقال:

- ربّما ستفعل.

واصل خليل رحلته في إحضار ما بقي من أشياء في البيت، وبقيت أنا أتساءل عمّا يقصده، أيعني أنه يلتقي بها؟ أم أنه سيرافقها؟ لن أكذب آلمني قلبي للفكرة فقط، وما دخلي أنا؟

في المرّة الأخيرة وضع شيئا داخل معطفه الذي تركه في السيارة ودخل، عندما رنّ هاتفه ليخرج ثانية ويرجع بعد خمسة دقائق.

- ماذا هناك؟ هل أنت منزعج؟

- بعدما كنت تزعجينني فقط، صرت تعرفين متى أنزعج.

كأنه غاضب منّي، شغّل السيارة، ثم انطلق:

- لقد اتّصلوا بي بسبب المشكلة التي حدثت هذا الصباح في الحي.

- هل كنت تعلم؟

- بالطّبع، يبدو أن الشرطة أمسكت الشباب الذين ضربوه، عليّ مساعدتهم، فهم فعلوا ذلك من أجلي، يدركون أنك تخصينني.

تطلّعت به، وهو نظر إلي لثانية ثم:

- يعتقدون أنك لازلت معي، لذا.. المهم، سأخرجهم من هناك، وأنت ما أن نصل اذهبي وسأرسل لك باقي أشياءك فيما بعد مع رجالي، سأجعلهم يأتون بشاحنة، أدرك أنك لا تحبين إثارة الشبهات حولك.

- وهل بقي لي أن أخاف من الشبهات لو تلاحقني، ألا يعرف الكلّ أني أخصّك وانتهى، أم يعتقدون أو لا أدري.

- أن يسمعوا أو يروا ليس بالأمر الواحد، كما أنك ستربحين بمعرفتي لك أكثر مما ستخسرين، صدّقيني.

أوصلني إلى الحي وكالعادة رافقني حتى باب العمارة وهو يمشي من ورائي، كأني لا أخرج وحدي عادة. هل كنت أفعل حقا، لربّما كان يرسل أحدهم ورائي وعندما يكون معي يطمئن عليّ بالتأكد من وصولي، فقبل كلّ شيء أخباري كلّها تصل إليه بالحرف والثانية والتفصيل. هل سيدعني وشأني حقا ذات يوم؟

غيّرت ملابسي وبقيت أنتظر أن تصل أغراضي مع يوغورتا الذي لم يطق صبرا متى تأتي المفاجأة التي حدّثته عنها. وبعد ساعتين ها هي الشاحنة تصل، والرّجلان الضخمان يحملان التلفازين، فتح أخي عينيه من السعادة وهو يراها قادمة من الشرفة معي، ويصرخ فرحا، فأسرعت إلينا عليا ونجية تسألان ما الذي يجري، أخبرتهما حينها عن الأمر. أسرعنا إلى الباب، أدخلا الرجلين التلفازين تحت أعين عبيدة وزوجها ونحن، ثم نزلا ليحضرا الباقي، وحين انتهوا رحلوا.

سألني العم عمران:

- ما هذا يا ابنتي؟ لم هذه كلّها؟

لاتزال تلك الكلمة تزعجني منه لكنّي ابتسمت رغم ذلك وقلت:

- ليس الأمر كما تعتقد، أنا لم أبتعها، بل جعلت صديقتي تأتيني بها من بيتنا، لم تبقى هناك ونحن يمكننا استعمالها هنا؟ كما أني أتيت بألعاب يوغورتا.

التفتت إلى أخي:

- انظر يوغورتا، هذه الفيديو بلير الخاصة بك، وكل ألعابك أيضا.

- يا، آسي، شغليها لي الآن، أريد أن ألعب، أرجوك أختي، أرجوك، أرجوك، أرجوك.

يبدو أن خليل ليس الوحيد الذي يحفظ مني ويتعلّم عنّي.

- حسنا، حسنا.

ثم نظرت إلى العم عمران:

- أتسمح لي يا عم عمران.

ابتسم، وأنا مدركة سبب ذلك، فقد ناديته بشيء على الأقل يومها، ليردّ:

- هذا بيتك لم تسألين؟ افعلي ما ترغبين به ما دمت لا تصرفين من جيبك شيء.

- حاشا، أنتم تقومون بكل الواجب، لم أحتاج شيئا منذ قدومي.

أردت أن أردّ القليل من احترامه الكبير لي. لم أفهم كيف لرجل طيب وبسيط كالعم عمران أن يسرق امرأة من عائلتها.

- شكرا.

بدا مسرورا من كلامي، تقدّم إلى التلفاز وحمله:

- تضعينها في غرفتكم؟

هززت رأسي مجيبة بالإيجاب، ركّبها وعاد للأخرى:

- وهذه؟

- هذه سنضعها في غرفة المعيشة إذا أمكن، حتى نشاهد كلّنا معا عليها برامجنا كالعادة.

كان التلفازين جديدين ومسطّحين، لن يأخذا مكانا كبيرا. ركّبها العم عمران وجلسنا جميعا لنشاهد برنامجا معا وحتى يوغورتا ترك لعبته وقعد معنا. كان الجوّ جميلا مرحا، والجميع فرحا بالتلفاز، حتى فاروق قدم يومها في وقت مبكر بعدما اتصلت به عليا، بحث عن القنوات الرياضية فوجد مقابلة كرة قدم عندها بقي هو ويوغورتا يتفرّجان. كان مندهشا من جودته، قائلا أنه منذ خروج هذا النوع من التلفاز وهو يرغب في واحدة، فأغلبية أصدقائه يملكون منهم. سعدت لأني أدخلت الفرحة لقلوبهم ولو قليلا وأدخلت فاروق إلى البيت باكرا.

قصدت الغرفة لأرى باقي الأغراض، وأثناء بحثي بين أغراضي الخاصة التي طلبت أن يأتيني بها، وجدت مبلغا ضخما من المال، أكثر من ثلاثون مليون سنتيم، فوجئت، ما الذي يقصده بإعطائي هذا المال؟ اتّصلت به فلم يجب، لابد أنه عرف عمّا سأكلّمه. حاولت في اليوم الموالي مع ذلك امتنع عن الرد. مضت الأيام ولم يحاول التحدّث إلي، فاستسلمت وأودعتهم في البنك، ما كنت لأصرفها كالمرّة الماضية، أصلا لدينا المبلغ الذي أتقاضاه كل شهر عني وعن أخي من تقاعد والدي، وأخي لم يعد يحتاج علاج يتطلب المال.

مرّت الأيام حتى انتهى شهر أكتوبر وخلاله، خرجنا مرارا أنا ويوغورتا، في بعض الأحيان نأخذ نجية في نهايات الأسبوع طبعا. التقيت مرارا بعماد ونجية تكون معي، أحيانا يخرجان وحدهما، فقد صارا ملتصقين ببعضهما، حتى أنه جلب لها هاتفا ليتواصل معها كلّما رغب في ذلك، لكنّها رفضته فابتعت واحدا جديدا وأعطيتها القديم. تطوّرت الحالة مع فاروق، واصل

تأخره بالليل ووالده دائم التشاجر معه، فهم يشكّون أنه يمشي مع جماعات سيئة ويخشون عليه. وأنا كذلك خفت عليه كثيرا طبعا. يوغورتا يكثر اللعب مع نجية في الغرفة بالبلاي ستايشن وينام ليلا بهناء مع سبونج بوب، ويدرس جيّدا طبعا، فأنا أحرص بنفسي على دراسة الطفلين. نجية شقية تحب قصصي ولا تقبل أن تنام قبل أن تسمع مني واحدة. أما أنا، أنا فقط مشتاقة بعض الشيء، كان فراغ غريب رهيب ينهش روحي، خلّفه شيء ما أو أحد ما لم أدرك ما أو من يكون بالضبط. أخرج بالليل إلى الشرفة أبحث بين الأسطح، أتوقّع دائما اتّصالا لم يأتني، وأراقب الأزقة لعلي أقع على أعين تراقبني، وجدت الكثير منها لكن لم تكن التي بحثت عنها. حتى امتلأ لدقائق ذلك الفراغ يوما، عندما التقيت بتلك الأعين، وأنا أجيئ بيوغورتا من المدرسة، لم يلاحظني حتى صاحبها لكني شعرت بها ولو من بعيد، فعرفت من يكون صاحب المكان الذي خُلّف فارغا.

أما خليل فلم يبحث عنّي ثانية بعد ذلك اليوم، كأني لم أوجد بحياته قبل ذلك، اعتقدت أني أجمل ما حدث في حياته، لكن يبدو أني أخطأت في التقدير، فالواحد منّا لا يتخلّى بسهولة عما يجمّل حياته. أخي يسألني عنه باستمرار، لم يرد أن ينساه، لربّما سكن في عقله مثلما عشش في عقلي! كيف طاوعه قلبه أن يذهب ببساطة ولا يعود، حتى في المرّة الوحيدة التي التقيت به فيها كان بعيدا لم يلاحظ حتى وجودي ويوغورتا، الذي كان يريد أن يجري إليه لكني منعته، يومها لم يتوقّف عن البكاء واعتبرني شريرة. يواصل في ازعاجي ذلك الغريب، ما الذي فعلته له حتى يدخل حياتي هكذا و يخرج منها هكذا؟ ألم أقل له أني أحب ندبته؟ أحمق.

لم أعِ أني حوكمت بالمؤبّد في علاقتنا تلك، كان يدرك تماما ما الذي يفعله، أية فتاة عادية بمستطاعها ألا تقع في شباكه؟ حذّرني المحقق شعبان

منه، لكني قلت لا، لن أقع. أنا أفضل من أن أقع، كان لابد أن أتحلى بالحذر، لكن كيف أقول هذا لفتاة لم تتخطى تجربتها الأفلام والروايات، فتاة لم تعرف كيف تحب في المراهقة والطفولة، لتهبها أخيرا لذلك الذي انتظره قلبها حتى يحطّمه.

اتّصلت بالمحقق شعبان حتى أعلمه أني لم أعد ألتقي بخليل، فقد انتهى مني ولم أعد أمتّعه مثل البداية، لربّما صرت مملة! تعبت من التفكير في المزعج فقررت أن أنسى وأبدأ حياتي، لكن من أين؟ لا حياة لي غير يوغورتا، فحتى دراستي لا يمكنني متابعتها، أين حياتي؟ كيف سأنسى إذن؟

8

في السبت الثاني من نوفمبر وردني اتّصال من خليل أخيرا، قائلا أنه توصّل لأمر في قضية والدي وجميلة، لم يتعدّ الاتصال الدقيقتين، وهذا ليعطيني موعدا بعد ساعة. لا أعلم إن كنت متوترة بسبب القضية أم أني سألتقي به أخيرا؟ أوصيت عبيدة بأن تجلب يوغورتا من المدرسة، قبلت طبعا من ثم غيّرت ملابسي ورحت إلى المكان المعتاد، سيارته موجودة وهو لا، وحتى لا أنتظر خارجا اقتربت منها فتحت الباب ودخلت، كنت قد وصلت قبل الوقت، لذا حين دخل وانتبه إلي تفاجأ.

- صباح الخير خليل.

ردّ عليّ التحية، فأكملت قبل أن يقول شيئا:

- لم أشأ الانتظار خارجا فدخلت، أتمنى ألا أكون قد أزعجتك.

ابتسم ثم:

- لو لم تزعجيني من ستكونين؟

أعليه أن يكون متحدّثا رائعا هكذا على الدوام؟ لابد أنه يعامل جميع الفتيات بهذه الطريقة، لا تنجري وراءه، تذكّري كلّ ما فعله، استمرّ حينها:

- لو أخبرتني أنك ستحضرين قبل الوقت لوجدتني أنتظرك هنا.

- لا مشكلة لدي في الانتظار.

تطلّعت به، وحين وجدت عيونه متسمّرة عليّ أزحت نظراتي فورا، لأسأله:

- أحقا توصّلت لشيء في قضيتي؟

- لا، بل توصّلت لكلّ شيء، فقط دعيني آخذك إلى مكان ما وهناك تفهمين.

انطلقنا فورا، دون أن ننبس بكلمة طوال الطريق، حتى بدا زمنا لا ينتهي، لربّما استغرقنا ساعة في المشي، لم أعرف أين أخذني وقد كانت منطقة خالية بعض الشيء، لا توجد بنايات كثيرة، يبدو أنها مجموعة من مستودعات، حتى وصلنا إلى مكان به أربعة بنايات كبيرة جدا، وهي حقا مستودعات. بقربها سيارات سوداء، لم أعدّها لكن تقريبا وُجدت خمسة منها أو ستة مع حافلة نقل صغيرة بنفس اللون. خرج خليل فلحقت به. أعلم شخصا ما عبر الهاتف أنه وصل. لم أعرف ما كان يحدث، لكنّي لم أكن خائفة منه يومها، فجأة توقّف رعبي منه. ودون سابق إنذار أمسك بيدي وجذبني خلفه. بخطواته الطويلة تلك وجدت صعوبة في تتبعه، وقبل أن نصل خرج رجلين من المستودع يشبهان اللذين كانا في متجر رشيد. لا بل إنهما نفس الشخصين، بدأ قلبي يدقّ بسرعة لتذكّري ما شهدته يومها، فأتتني رغبة مفاجئة في تقيء كل ما أكلته، يا ترى ماذا الآن؟.

في الدّاخل كان هناك رجال كثر، لم أتمكن من عدّهم طبعا فهم يتجاوزون العشرين شخص، وكلّهم ضخام، بعضهم يرتدي بدلات وآخرون ملابس عادية، يتطلّعون بنا جميعهم وخليل يمسك بيدي يأبى أن يتركها، ألقى عليهم التحية فتسارع الجميع ليردّ عليه السلام. أخذني معه وأجلسني على كرسي وهو بقي واقفا، ليته لم يطلق يدي فقد كاد النفس ينقطع مني وكل هؤلاء من حولي.

- تعالي معي أسيرم.

بقيت ضائعة بأعيني وأحاسيسي، ماذا يجب أن أفعل أو كيف عليّ الشعور؟ هل أخاف أم أطمئن؟ وحين دخلنا إلى تلك الغرفة، وجدت رجلان مقيّدان مع مقعدين، وحين حققت جيّدا وجدت أحدهما عمي حسن، صاحب الشركة التي كان يعمل فيها أبي رحمه الله. أسرعت إليه بينما أنادي باسمه..

- لم هو هنا؟ ما الذي تفعله خليل؟

- إذن تعرفينه؟

- طبعا، إنه ربّ عمل أبي، عمّي حسن، أنا لا أفهم ما الذي يجري؟

تطلّع خليل بالعم حسن باشمئزاز، ثم:

- والدك كان رئيس فرع المحاسبة في شركته أليس كذلك؟

هززت برأسي مجيبة بالإيجاب، واصل:

- عمّك حسن هذا، هو الذي أرسل من يتخلّص منكم.

لم يعد بإمكاني البقاء واقفة على قدمي، جلست وأنا أنظر إليه بدهشة:

- غير معقول! لا لم يفعل.

- بل فعل أسيرم.

صمت قليلا ثم اقترب مني وجلس مقابلا إياي:

- لقد علم والدك بما يفعلونه تحت الطاولة، لذا شكّل تهديدا، هو وبعض زملائه، كان الاختيار عشوائيا، كنت أشكّ في الأمر منذ أن أخبرتني بالقصّة وإذا كنت تذكرين، أطلعتك ببعض من استنتاجاتي، إنّها صحيحة. هذا الوغد وحسبما سمعت كان والدك يعتبره صديقا له، وثق به واعتقد أن لا يد له في الموضوع، لكنّه الرأس المدبّر في الأصل، وحتى يفهم الرّسالة الباقون قام بقتل أباك وزوجته. هدّد رفقاء والدك وهم صامتون لهذا السبب، يخشون أن يحصل لهم مثلما حدث معكم، والذين قصدتهم ليحلّوا مشكلتك، لن ينجزوا لك شيئا لأن بعضهم يعمل معه وقاموا بكلّ ما يلزم حتى تغلق القضية وتمرّ بسلام.

وقف ثانية وأكمل:

- الآن ها هو مع مساعده بين يديك وسأفعل أي شيء تريدينه.

اقتربت من العم حسن، ونزعت الشريط اللاصق على فمه. سألته:

- لماذا؟ وبتلك الطريقة الوحشية؟ كان يعتبرك صديقه وأحبّك كثيرا، يا ربي، جعلته يهجرعمله القديم حتى يعمل لديك، أخبرني لماذا؟

وصرخت بكل قوّة:

- آه..

وما غير الآه أملك؟

- لست أنا يا ابنتي، إنهم يفترون عني، ساعديني على الرّحيل، أخرجيني من هنا.

- أصمت أيها الوغد.

دفع خليل برأس العم حسن، ثم تطلّع بي ليقرأ في عيني شكّي، فردّ:

- لا تصدّقيه، إنه يكذب، وهل تتوقّعين منه أن يعترف؟

التفت إلى أحد رجاله:

- اطلب من الفرطاس أن يعطيك الوثائق ومعها الفيديوهات.

بقينا ننتظر وفي ذلك الصمت لا يسمع غير بكائي وآهاتي، حتى قدمت البراهين.

وحين أمسكت بها وقبل أن أفتحها، قال خليل:

- تلك كانت في خزينة والدك السرية، خبّأها حتى يتمكّن من جمع دلائل أكثر، كما يبدو لم يثق كليا بالسيد عمك ذاك، ترك ملاحظات حتى، ستتعرّفين على خط والدك، هيا افتحيها.

تحققت من الموضوع، عندها سألني:

- والآن تصدّقين؟ نقول أني مجرم في نظرك، لكن لا يمكنك أن تكذّبي أباك، قمت ببعض من الأبحاث فوجدت أن عمك حسن، يهرّب أشياء ذات قيمة من وإلى الخارج وقد كانت شركته تمويها لأعماله الثانية، الرئيسية دعينا نقول، ووالدك عرف أن المخازن تأتيها بضائع وتخرج منها بسرعة، المال يخرج ويدخل بسرعة، هو لم يكن عمله لكنه تدخّل في غير شؤونه، حاول أن يكون نزيها، لكنّه خدع، هو وآخرون أيضا.

كان يردد عبارة عمك ذاك وعمك حسن، كأنه يعاتبني على تصديقي له لوهلة.

ليقول في الأخير:

- والآن ماذا تريدين أن نفعل بهما؟

- نسلّمهما للشرطة طبعا.

- اعتبرينا فعلنا، سيطلقون سراحهما بعد أيام، سيحاكمون على أعمالهم ليس على جريمتهم في حق أبيك وزوجته، ويهربون خارج الوطن أسيرم، فكّري، يمكنك أن تنهي الأمر الآن، تأخذين حقّك بيديك، أو يدي، المهم أن تشفي غليلك وترتاحي.

- لكنّي أريدهما في السجن خليل، لا يمكنني أن..

- حسنا، أنت طلبت ذلك.

ليصرخ بصوت عال، وحباله الصوتية تنتفخ تحت جلدته كأنها ستنفجر:

- الفرطاس.

وها قد أتى المدعو الفرطاس مع أنه لم يكن أصلع حقا:

- آتني بالكمبيوتر واعرض عليه الفيديو..

شغّل الفيديو من ثم ظهر ابني العم حسن، وهما مرميان أرضا في غرفة تملأها العتمة، يبكيان وخائفان، يناديان أمّهما مرارا، متشابكان ببعضهما.

حينها صرخ العم حسن:

- لا، مالك، ياسين.

- التفت إلى خليل ليترجاه:

- أرجوك لا تؤذهما؟ سأفعل ما تطلبه.

اقترب منه وقال:

- إذا كنت تعرف كيف تحبّ أبناءك، كيف استطعت أن تقتل والدي أسيرم ويوغورتا؟

وهو يبكي أجاب:

- لم أدرك أن ابنيه سينجوان، طلبت منهم أن يقتلوا الجميع.

ذهلت لسماعه يقول ذلك، كأنه كان سيرحمنا بقتلنا جميعا، لم أطق سماع تلك الكلمات فاقتربت منه وصفعته على خدّه. وراح يستمرّ:

- أنا آسف، أرجوكم دعوا ولدي يذهبان واقتلاني، إني من أخطأ ليس هما.

- لا بل سيموتان وأنت تنظر.

أخذ الهاتف وراح يتّصل:

- اسمع، أنهي الأمر.

اقتربت من خليل، كنت خائفة من أن يفعلها، وضعت يدي على صدره مترجية فقط بعيني، لم أرده أن ينهي حياة طفلين بسبب جريمة قام بها والدهما، ولا أن يلطخ يديه بدماء أبرياء، لن أدعه يزيد هموم قلبه. أغلق حينها عينيه وفتحهما وهزّ رأسه كأنه يطمئنني، لابد أنه لم ينوِ قتلهما. فابتعدت.

أثناء ذلك كان العم حسن، حسن يردد:

- لا تفعل أنا أترجاك، اقتلني، اقتلني، إنهما صغيران، لا يدركان شيئا.

وراح يبكي بحرقة. طلب حينها خليل من الشخص الذي كان معه على الهاتف أن يتمهّل، فأقفل وقال لحسن بعدما وقف مقابلا إياه:

- أنت تسمع برجل يدعى كابوني؟

وقبل أن يجيبه:

- بما أنك في مجالنا محال ألا تكون قد سمعت به، أنت تدرك جيدا ما الذي يستطيع فعله، لذا ستفعل ما يطلبه وإلا لن ترى ابنيك أبدا.

صمت قليلا ثم:

- سنطلق سراحكما الآن أنت وذاك الأبله الذي معك، وسندع ولديك يذهبان إلى البيت، زوجتك حتى لا تعرف أنهما مفقودان بعد، أنا أي

كابوني سأثق بأنك ستسلّم نفسك للشرطة وتعترف أنك من أرسل شباب لقتل السيد بدر الدين والسيدة جميلة.

- لكنّهم سيقتلونني قبل أن أعترف.

- اختارا إذن، إما أنتما أو أبنائكم، أنا لن أخسر شيء. تدركان أن مئة رجل سيدخل السجن مكاني لو أنكما حاولتما اللعب بذيلكما وحاولتما ذكري في الموضوع حتى تتهرّبا.

- تعد بأنك لن تؤذي أبنائنا؟

وعده خليل ثم، واصل حسن:

- أنا موافق إذن، أفعل أي شيء تريده.

فقال خليل:

- إنهما في طريقهما للبيت.

ثم اقترب منه أكثر:

- لكن أريد تحذيرك فقط من باب الاحتياط، لا تحسب أنه يمكنك الهروب أو أخذ الطفلين لمكان ما، كل شيء تحت المراقبة ويمكنني أن أعرف كل صغيرة وكبيرة تحدث معكم، وحتى تنتهي القضية لن أتوقف عن مراقبة عائلاتكم وأصدقائكم، لابد أنك سمعت عن تاريخي، لا تريد أيا منه أن يطالك.

هزّ حسن رأسه قائلا أنه لا يريد. طلب خليل من الرّجال فكّ وثاقهما، ثم أمسك بيدي وأخذني معه خارجا، توقّفت ما أن طلعنا من ذلك المستودع، شعرت بدوار، كأن الدنيا تدور حولي أم أني من كانت تدور على نفسها، سمعت صوت خليل ينادي باسمي، ثم يشدّني من كتفي، حتى وقعت أرضا وما عدت شعرت بشيء بعد.

إلى أن استفقت، كنت فوق سرير داخل غرفة صغيرة ونوافذها مفتوحة، وبجانبي يجلس خليل بينما يحدّق بي. لمحت حزنا على وجهه وما بدا خشية، ممسكا يدي بأطراف أصابعه.

بصوتي الأجش قلت:

- أين أنا يا خليل؟

- أنت في غرفة العمال، لقد أغمي عليك، كيف تشعرين الآن؟

- أعتقد أني بخير، أريد العودة إلى منزلي، لقد تعبت.

كانت الدّموع تنزل من عيني تلقائيا.

- حسنا عزيزتي، ما أن ترتاحي سنغادر، أدرك أن صدمتك كانت كبيرة، ربّما أخطأت حين أطلعتك بهذه الطريقة، لكنّي أردت أن أقدّم لك كل الأدلة قبل أن..

- لا تبرر، أنت لم تخطئ في شيء، لا تهم الطريقة التي أعرف بها الأمر، يكفي أن الضربة أتت من شخص اعتبرته عما لي وأبي اعتبره أخا له.

- ولهذا أغضبني، لا يمكنني تخيّل سعيد يقوم بأمر مماثل، لا يمكنني حتى التفكير في خيانة صديق لي أو العكس.

راقبني لثانيتين:

- لا تأبهي للأمر، اسمعيني، ها قد علمت ما حدث، وأخذت بحق أبيك، عليك الآن أن تستمرّي في طريقك وتتجاوزي الموضوع.

- وكيف أنسى ما رأيته؟ أو أنسى أخي حتى.

- أخبرتك، الوقت هو الذي ينسي.

فعدت وقلت:

- وهل نسيت أنت؟ لا أعتقد خليل، بعض الأمور لا تنسى، تبقى محفورة في عقولنا حتى نرحل عن الدنيا.

_أطلعتك عن طريقتي في النسيان، أخبريني، ألم أعد أنسيك همّك؟

ابتسمت رغما عني:

- فكّرت كثيرا بك قائلة في نفسي أنك تفي بوعودك حقا، خلال الشهر كلّه لم تتّصل.

- كان الأمر صعبا أعترف، لكن أكثر ما أحترمه هو الوعد، إذا قلت أني سأدعك وشأنك فهذا ما سأفعله، إلا إذا أنت طلبتني، حينها لن يوقفني شيء عن الاتصال ولا الاقتراب منك، إنك العائق الوحيد بيننا.

أيعني أنه لم يملّ مني؟ يبدو أني من يقرر الآن في علاقة كرهنا هذه، أنا من قرر أن تنتهي ومن ستقرر متى تبدأ؟ رغم أنه قال يوما بأنه من يقرر متى تبدأ ومتى تنتهي هذه المرة!

- أريد العودة إلى البيت، لابد أن يوغورتا ينتظرني.

أمسك بيدي ليساعدني على النهوض، سألني إن كنت أريده أن يحملني:

- لا، يمكنني السير.

رغم ذلك أمسك بذراعي، ثم واصلت قائلة ونحن نمشي:

- يوغورتا اشتاق إليك، ذات يوم رأيناك فأراد أن يحدّثك، لكنك لم تتفطّن لوجودنا فلم أرده أن يزعجك.

- إنك من يضايقني بكلامك الآن، لماذا لم تسمحي له بأن يأتي إليّ؟ تحبّين التحكّم كثيرا، لابد أنه غضب منك، أم أنك اخبرته بأني من يرفض لقائه؟

- لست مجنونة لأفعل ذلك، بل رفضت ببساطة، وهو لا يفهم سبب عدم تحدّثنا إليك.

توقّف وأمسك بي، تطلّع بعيني:

- وهل يمكنني البقاء على اتصال به دون أن تنزعجي منّي؟

امتنعت عن الإجابة عليه فقال:

- حسنا، انسي.

- انتظر، يمكنك الاتصال به خليل، بعد كلّ ما فعلته لنا لا يمكنني رفض طلب لك.

وفي داخلي قلت: "اطلب أن تحدّثني أنا وسأفعل".

- لا أريد حرمان يوغورتا منك أيضا، فهو يحبّك، لا أدري كيف ولم لكنّه يعشقك ولم ينس أمرك حتى الآن.

فرح لقولي ذلك وقد بدا سعيدا جدا، أجاب حينها:

- وأنا أحبّه كثيرا ذلك البطل، أنت محظوظة به.

- أدرك.

تطلّعت إليه بامتنان، وقلت:

- حسنا، فلنذهب الآن.

- فلنجعلك تتخلصين منّي بسرعة إذن.

عندما تبعته إلى السيارة، انطلق ثم تابع قائلا:

- ها قد انتهى كلّ ما يجمع بيننا أسيرم، لن تكوني مجبرة على لقائي بعد الآن، لكن، أريدك أن تتكلي دائما على وجودي بقربك، أنا هنا من أجلك مهما حدث، سأفعل كل ما تطلبينه.

- لكن لماذا خليل؟ ما الذي يجعلك تقوم بأي شيء من أجلي؟

- لن أخبرك، هذه الأمور عليك أن تفهميها وحدك أسيرم الكاذبة، كوني ذكية وفكّري، ستتوصّلين إلى السبب بنفسك.

لا أريد أن أكون ذكية بل غبية لأعطي الإذن لمشاعري بأن تنطلق، ذكائي هو الذي جعلني أصمت تلك اللحظة، فهو لن يأتيني بخير إذا تبعته، وحياتي كانت قد بدأت أخيرا تستقرّ، على الأقل انتهيت من قضية والدي وجميلة، لن أحتمل الدراما التي سترافق علاقتي به، أيا كانت تسميتها، تلك العلاقة كان عليها أن تنتهي، وهكذا قررت، حينها على الأقل.

أوصلني إلى المكان المعتاد، خرجت لأطل عليه من النافذة وأقول:

- شكرا على كلّ شيء خليل.

لن أنسى أبدا تلك النّظرة التي رمقني بها، والابتسامة العسلية، وصوته الذي حنّ و رقّ للوداع ذاك:

- اعتني بنفسك أسيرم، وداعا.

في اليوم التالي وردني اتصال من مركز الشرطة الذي يتابع قضيتنا، قائلين أنهم أمسكوا بالفاعلين! كأنهم حقا فعلوا، وحين رحت أطلعوني على التفاصيل، لقد سلّم حسن نفسه، هو ومساعده، دون ذكر أسماء أخرى، طبعا أعلموني من هم المجرمين الذين قاموا بالفعل، لم أصدّق أذناي ولا نفسي من هول الأمر، لقد كانت جماعة رشيد الواعر مثلما نادوه، جماعته الجديدة التي أسسها وبسببها قتله خليل. كنت أصادق من قتل أبي وجميلة، كيف حتى دارت بي الدنيا والتقيت به؟ غريبة هي الدنيا ودائما ما تفاجئنا، وستبقى تفاجئنا طالما حيينا.

كنت أسمع صوت خليل حين يتّصل بأخي بشكل يومي، يسأله عني أيضا، وأنا لا أفارقه أية لحظة، خليل يسأله ماذا يريد ويوغورتا يطلب دون توقّف مع أني أفهمته ألا يفعل، لكنّه يردّ قائلا أن خليل أخاه، ثم يبعث له ما يريده دون إطالة. ومع ذلك اشتقت إلى رؤيته، لم يعد يأتي إلى السطح ليراقبني وأنا أخرج دائما من أجله. شعرت بفراغ لا تملؤه إلا لحظات تحدّثه مع أخي، ألم أكن غبية؟ لكن حتى تلك جعلتني أشتاق إليه أكثر، نعم، لقد قلتها، اشتقت إليه وهو لا يعرف. اشتقت إليه وأنا لا أريد أن أشتاق.

9

تسكن المصائب حيث أسكن والليل في داري يقطن... أنا من حيث قدمت تعتّمت الأيام وأخذت العتمة حيث رحت، بابتسامات بيتهم كان مليء وقدمت لأجز اخضرار عشب هذا البيت، كيف لا وأنا من تسكن المصائب حيث أسكن؟

تلك الليلة من آخر أسبوع من نوفمبر لم تكن مثل كلّ اللّيالي، لم يكن العم عمران ليقبل بعد بغياب فاروق المتكرر عن العشاء والدخول إلى البيت في وقت متأخر من الليل. انتظره ومعه عبيدة وهي تبكي، لم يكن زوجها يعبأ بدموعها ولم يحن لقلقها، فقط طلب منها التوقّف، مرجعا السبب في تغيّر الولد إلى تدليلها الزائد له. ونحن ننتظر في الغرفة خائفات، فقد كان يوغورتا ونجية نائمان، بينما أنا مع عليا نحلل الوضع، فهي كانت ضد هذه المقابلة، وأنا كنت مع، فالحل ليس الهروب من المشاكل بل مواجهتها، ليس من المنصف أن يدعوا الولد يخسر حياته ويضيّع مستقبله.

وحين دخل، بدأت الحرب. الصراخ يملأ الدنيا، لابد أن الحي كلّه سمعهما، ذاك يطلب منه ألا يتدخّل في حياته والثاني يقول أنه في بيته وتحت

مسؤوليته، الأول يردّ بأنه لديه حاجات وهو لا يلبيها له، فيؤكّد لعمران شكوكه، بأنه منخرط في شيء مشبوه، فيصرخ في وجهه أكثر، ثم يقول فاروق لوالده أنه لا يقدر على إعالتهم ولن يتوقّف حتى يخرج من ذلك المنزل، فيضربه وهنا خرجنا أنا وعليا لنوقفه. أبعدناه عنه وفاروق ممسك بخدّه بينما الدموع تملأ عينيه، ثم يقوم العم عمران بطرد ابنه. لا يمكن تصوّر دهشتي، لم أتعوّد في حياتي على هكذا أمور، في بيتنا وعائلتي كلّ شيء يحل بالكلام، لا يضرب فيها الأبناء ويطردون، لا أقول أنه أساء التصرّف وربما كان الحلّ الوحيد بين يديه، لكنّ فاروق صغير في السن والشارع لن يأتيه بالخير أبدا.

خرج فاروق وعبيدة تترجاه ألا يفعل، فراحت تبكي وتلطم وجهها، العم عمران جلس والذهول باد على وجهه كأنه لم يصدّق أنه فعل ما فعل، وعليا ممسكة بكتفه غير مدركة كيف تساهم في حل الوضع. ولم أشعر حتى وجدت نفسي أتبع فاروق خارجا. نزلت تلك السلالم مسرعة، وإذا به جالس في الطابق الثاني، ممسكا برأسه ويبكي.

جلست بقربه وبقيت صامتة لمدّة حتى تطلّع بي:

- عودي إلى المنزل أسيرم، لا يليق بالفتيات أن تخرجن ليلا.

قلت في نفسي "لمن تقول هذا؟" لكني أجبت في الواقع:

- ولا يليق بفتيان في مثل سنّك أيضا. فاروق، لم لا تبتعد عما تفعله، هذا الطريق لن يأتيك إلا بالمشاكل، أنت تدرك ذلك.

- لم تتدخّلين في حياتي؟ أنت حتى لا تعتبريني أخاك حقا، لديك أخ واحد وهو يوغورتا، لا تحبينني، فلا تتدخّلي من فضلك.

- أتقول هذا من قلبك فاروق؟

وضعت يدي على كتفه وضممته إليّ:

- أنت أخي فاروق، وأقسم أني أحبّك، وأي شيء يؤذيك كأنه يؤذيني، لن أسمح لك بأن تودي بنفسك إلى التهلكة، حتى لو عنى هذا أن أتبعك حيث تذهب.

نظر إلي وشفتيه ترتعشان، بنظرته الطفولية تلك:

- تفعلين هذا من أجلي؟

- وأكثر.

صرت مثل صاحب وأكثر! استمررت:

- رغم كلّ شيء والظروف التي نشأنا فيها، رغم أننا لم نعش معا، إلا أن ما بيننا أقوى من أي شيء، تربطنا الأخوة وهذه العلاقة تدوم للأبد، وأحبك أيضا بقدر قوّتها وقدر قدرتها، نحن أخوان فاروق.

وحضنته إلي ثم قلت:

- وأنت، هل ستبتعد عن هذا الطريق من أجلي؟ لن تجعلني أجري وراءك من مكان إلى مكان، أليس كذلك؟

كان يبكي ويقول:

- ماذا أفعل؟ لقد توقّفت عن الدراسة ولم أخبر حتى أهلي، سيغضب والدي بشدة.

- إنه أصلا غاضب، ليس لديك ما تخسره أكثر، اذهب وصارحه واعتذر، سيسامحك، والدك إنسان عاقل، ثم تعود للدراسة، أنت صغير جدا حتى تبدأ من الآن في الدخول بعالم لن تقدر عليه مهما كبرت.

- كابوني فعل، بدأ العمل في المجال وهو لم يبلغ ستة عشرة سنة وانظري إلى أين وصل.

- لكن أنت لست هو، وما وصل إليه لا شيء مقابل ما لديك، لديك عائلة تحبّك وتخاف عليك، أتعتقد أنه لو أتته الفرصة كان سيدع والدته تبكي مثلما تفعل أمّك الآن؟ صدّقني ما كان ليسمح لأمه بأن تذرف دموعا عليه، لأنه أحبّها بشدّة.

تطلّع في كأنه يعرف بأني كنت أعرفه، هل وصله الكلام؟ حينها غيّرت الموضوع:

- من أجلك ومن أجل والديك، عش حياتك ببساطة ولا تدخل في متاهات، من أجلنا نحن عائلتك، أرجوك.

- لا يمكنني الخروج منها هكذا، لن يدعوني وشأني إذا تركت مجموعتي، سيجعلونني أكره معيشتي، سوف يسخرون منّي وحتى يمكنهم أذيّتي لأني خلّفت الوعد الذي بيننا.

- لم تصل حتى سن الرشد ليؤخذ بوعودك، لازلت صغيرا ولعلّهم أيضا، لن يعرفوا ما معنى الوفاء بالعهد صدّقني.

صدّقني! صرت ببغاء خليل. فتذكّرت، لأقول:

- لو أكّدت لك أنهم لن يزعجوك أبدا، هل ستتخلّى عنهم وتعود للدّراسة؟

- لا يمكنك فعل شيء.

فكررت سؤالي، فأجاب:

- لو ممكن، لكنت فعلت نعم.

- دع الأمر لي، أنت فقط تعالى معي نرجع عند والدك، إنه غاضب ومتأكدة أنه غاضب أكثر من نفسه لأنه ضربك وطردك، تطلب منه العفو وتعده بأنك لن تكرر الأمر، ثم تخبره بأنك تركت المدرسة وهو سيتكفّل بإعادتك.

ثم مسحت على وجهه:

- لا تخف سأكون إلى جانبك وأساعدك، تعرف كم والدك يحترمني، سأستغل ذلك من أجلك.

ضحكنا وعدنا أدراجنا. دخلنا إلى البيت فوجدتهم تقريبا مثلما تركتهم، خائفين ومذهولين، لكن ما أن رأوه حتى عادت الروح إلى والديه، أسرعت إليه أمه لتحضنه وتقبّله، أما والده فكان سيغادر القاعة، لكن فاروق طلب منه أن ينتظر، اقترب منه، وأخذ يده ليقبّلها لكنّ أباه رفض فأمسك به وحضنه هو الثاني، كأنه سامحه دون أن يعتذر حتى، كان من الممكن أن يخسروا الكثير بسبب لحظة غضب. جلسنا بعدها وتكلّمنا، حللنا الموضوع بالبيت وعادت الأمور إلى سابق عهدها.

وعندما انتهينا من الأمر دخلنا كل إلى غرفته وتركنا فاروق لينام بغرفة المعيشة حيث يرقد دائما. تحدّثنا أنا وعليا في الموضوع لبعض الوقت، ثم استأذنت منها وأخذت هاتفي لأذهب إلى الشرفة.

قال خليل ما أن رد على اتصالي:

- نعم أسيرم، هل أنت بخير؟

كأنه يتوقّع أن أطلب منه فقط، لكن، ألم يكن ذلك صحيحا؟

- هل أيقظتك خليل؟ كنت نائما؟

- لا تهتمي أسيرم، يمكنك إيقاظي متى شئت، المهم أنك اتّصلت.

- لقد أحرجتني الآن، كيف سأقول ما أردت قوله.

- تذكّري فقط عندما أخذتك إلى الملهى وستنسين الإحراج.

وأخذ يضحك.

- ليس الأمر مضحكا خليل، لقد آذيتني حقا ليلتها.

- أنت محقّة، آسف، اعتقدت أن ما يكفي من الوقت قد مرّ حتى نبدأ بالمزاح حول الموضوع، لكنه لم يفت بعد، لذا سامحي.

- حسنا دعك من هذا الآن.. خليل.

تنهّد وقال بصوت يتقطر حنانا:

- نعم أسيرم.

- لديّ طلب، أحتاج لمساعدتك وأنت الوحيد الذي يمكنه ذلك.

- طبعا، اطلبي ما شئت، أنا تحت تصرّفك.

أين ذاك المتوحّش الذي قابلته في البداية؟ أين اختبأ؟ تغيّرت معاملته لي كليا، كأن ذلك الغريب يحبني.

- أخي واقع في مشكلة، لقد انخرط في إحدى المجموعات التي تعمل، أنت تعلم مثلكم.

- في سن الرابعة، يوغورتا نابغة إذن.

- لست أتحدّث عن يوغورتا، إنه فاروق.

أخذ يضحك:

- أعلم يا نية، ماذا تحسبينني؟

صمت لبعض الوقت، ليكمل:

- أين مشكلته؟

- يريد تركها ويخشى أن يسخروا منه أو حتى يؤذوه.

- لن يفعلوا به شيئا، يمكنه الابتعاد بسهولة.

عندها قال كأنه يلمّح لشيء:

- ليس كأنه رئيس عصابة، لا تخافي أسيرم سأجعل أحدهم يهتم بالموضوع.

ليسألني:

- هذا كل شيء؟

- نعم..

- كما أخبرتك إذن، لا تقلقي عزيزتي.

- لست قلقة، أعلم أنك لن تخذلني.

- بالطبع.

وبعدما أخذ نفسا عميقا، قال:

- تصبحين على خير أسيرم.

وقبل أن يقفل قلت:

- خليل.

وبسرعة رد:

- ماذا؟

- أنت بخير؟

صمت لثانية ثم أردف:

- أنت بخير؟

أجبت مستغربة تكراره سؤالي:

- أجل..

- إذن أنا بخير، كوني بحالة جيدة سأكون بدوري بحالة جيّدة.

- وأنا بخير ما دمت إلى جانبي كلّما احتجتك، خليل، لو بقينا أنا وأنت، أعني لو بقينا على اتصال، ألن يضايقك الأمر؟

وقبل أن يجيب أضفت:

- طبعا إذا حافظنا على المسافة بيننا، بمعنى، لن تدخلني في متاهات أخرى.

- المتاهات ملعبي، ولا يمكنني أن أعدك بأني سأحافظ للأبد على المسافة بيننا إذا سمحت لي بالاقتراب قليلا، إما كل شيء أو لا شيء، لا أحب أخذ أنصاف الأمور ولا أن أؤخذ نصفا فقط، اقبليني كما أنا وسأكون كلّ ما تحتاجينه وتتمنينه.

- لم أفهم ما الذي تقصده بالضبط؟

- تريدين قربي أسيرم، وأنا أموت وأمر بجانبك فقط، تعتقدين أنك ستتحكمين بمشاعرك وأنت معي هذا لن يحدث، صدّقيني، لذا من الأحسن لو ندع الأمور هكذا، لربّما أتمكن من نسيانك ذات يوم وأنت ستفعلين عند بداية أول طريق تجدينه، أسيرم.

وببعض من الغيظ أجبت :

- ماذا؟

- أفعل هذا من أجلك، لا أجيد إلا إفساد الناس وأنت نقية وبسيطة، تحتاجين لحياة عادية، أسيرم.

- فهمت، فهمت، أنا الغبية التي فكّرت أنه يمكنك أن تكون مثلنا، الناس العاديون، الذين يعيشون حياتهم فقط، أنت محق، لا يمكن لأي شيء أن يدوم بيننا، ماذا اعتقدت حقا؟ انسى أني حدّثتك في هذا الموضوع، مع السلامة.

- أنت غاضبة الآن، لا تغضبي أسيرم، ألا تريدينني أن أكون سندا لك؟ هكذا أنا أكون كذلك.

- تصبح على خير خليل.

- هيا، لا تفعلي هذا.

- أتعلم، لم أكن في علاقة مضطربة مع شخص في حياتي كلّها مثل علاقتي معك، في بعض الأحيان نكون زائد وناقص يلتقيان وفي أخرى يفترقان، غيّرت القوانين، حتى أنا لم أعد أدرك أين أكون.

- تعترفين إذن أننا في علاقة. أسيرم حبي أنت، لا ترتبكي، ما عاش من يربكك، تكونين في قلبي أسيرم، بين أضلعي تختبئين، لهذا لن أسمح لأي وغد أن يفسد ما أنت عليه حتى هذا الوغد الذي يحدّثك عبر الهاتف الآن.

- ليس وغد أتفهم، لا تقل هذا عنه.

ضحك وقال:

- إنه وغد محظوظ إذن، لديه أسيرم تدافع عنه، أتحبّينه أسيرم؟

- لا، تواعدنا على الكره، لا يمكنني أن أحب من أكره، هذا لن يكون منطقيا أبدا.

- تكرهين من يحبّك؟ غبية.

- من يحبّني وأكرهه لا يريدني قريبة، فهل أصبحت العلاقات عن بعد هي ما تستهويه؟

- ومن قال أنكما بعيدان، على الأقل ذاك الذي يحبّك لا يجدك بعيدة أبدا.

- ربّما هو يراني، لكنّي لا أراه.

- عادات الطفولة، لا تمحى مع الزمن، هو كالأبله يراقبك من بعيد وأنت لا زلت لا تعبئين به، مسكين ألا تشفقين على المساكين؟

- وماذا يريد مني هذا المسكين؟ أن أرتمي بين ذراعيه؟ لست من ذلك النوع.

- من أي نوع أنت أسيرم؟

- ممن يتعذّبون وحدهم، يفضّلون أن يبكوا في الظلام على أن يرى أحدهم دمعته.

- ذلك الوغد رأى دموعك، لا يمكنك استيعاب مدى تأثير دموعك فيه، لربّما هو مريض بك، ماذا يفعل؟

- أبكاني أيضا، بدافع الغيرة لا تنسى هذا.

- أترين؟ و تريدين علاقة به، دعك منه، أنت أفضل من أن تضيّعي وقتك مع شخص مثله، أنصحك من باب المحبة.

- لن تأتيني يوما وتقول أنك تريد لقائي أو محادثتي؟ أنت متأكّد؟

- أسيرم..

- إذن وداعا.

أقفلت، وزلت دمعة من عيني، أنا أبكي، من أجل رجل! بعد كل ما حدث في حياتي لازلت أبكي من أجل أشياء تافهة كهذه. لكنّه رفضني، ولعلّه سبب مقنع بعد كل شيء، أنا إنسان والرفض يؤذيني ككل الناس. ثم شعرت بحرج شديد من نفسي أولا، ثم منه وأكثر ما أحسست به اتجاهه هو الغضب، كنت أكثر من غاضبة من خليل.

وحقا لم يعبأ بي طوال أسبوع، امتنع حتى عن السؤال عني عبر الهاتف حين يتصل بيوغورتا وهذا جعلني أستشيط غضبا أكثر وأكثر منه. كنت قد تنازلت وقبلت أن نصبح مقرّبين من بعضنا، دون تسمية ولا تحديد، فقط نمضي وقت معا، شعرت بحاجة إلى ذلك وطلبته، لم عليه أن يكون هكذا؟ لم عليه تعقيد الأمور؟ ما الذي سيحصل إن اقتربنا؟

دخلت حياتي في دوامة من الملل، كل شيء حدث البارحة يحدث اليوم وغدا، أنهض باكرا آخذ يوغورتا ونجية إلى المدرسة، أحضرهما عند الفطور، أبقى مع أخي بعد الظهر، أراقبه يلعب أحيانا وفي أخرى يشاهد الأفلام الكرتونية، وأنا أفكّر في الموقف الذي وضعت نفسي فيه قبل أيام. أنتظر وصول عليا لنتحدّث قليلا، ثم يمتلئ البيت بالبقية فنشاهد بعض البرامج، نتبادل

أطراف الحديث، لنتعشى ثم كل يذهب إلى مكانه، أقص قصّة على الطفلين، مرات يتصل خليل بأخي وبعدها نخلد إلى النوم..

كانت عليا تكلّم عماد عبر الهاتف في إحدى الليالي عندما اقترحت عليه أن يأخذني في الغد لشراء بعض الحاجيات، وبما أن عليا ستدرس اليوم بطوله نذهب وحدنا وقد ساعدني الأمر مع ما كنت أخطط له، سمعت خليل يخبر يوغورتا أنه سيمر على الحي بالغد وأنه سينتظر مروره ليعطيه شيئا، وحين سألني أخي، رفضت، ألا يعني هذا بأننا سنلتقي؟ لن أقترب منه إذا لم يرغب في ذلك لكنّي سأمرّ بقربه وأنا برفقة أحدهم.

قبل عماد طبعا، طلبت أن يوافيني عند آخر الطريق ككل مرّة، لننطلق مارين من طريق طلبت أن يمر خصيصا منه يومها وفي الوقت نفسه الذي أطلعه ليوغورتا.

كان يقف مع أحدهم، متكئ على سيارته، لم يكن قد رآني بعد، فانفجرت ضاحكة وأنا أنظر إلى عماد، هذا الأخير مسكين استغرب أمري، بقي يراقبني مندهشا وفاتحا فمه، سألني ما بي، وعندما لم أجب راح يضحك معي، ثم أضحكني حقا حين رأيته كذلك. كان الوضع غريبا حقا، فأخبرته حين انتهينا ومررنا، بأني تذكّرت أمرا، طبعا نعتني بغريبة الأطوار، لكني لم آبه، تمنيت فقط أن يكون قد رآني.

وقد رآني بكل تأكيد. لاحظ عماد سيارة تجري وراءنا، وحين التفتت عرفتها، كانت لخليل. لحق بنا مسرعا ليصل بقرب عماد، كان يشير إليه أن يتوقف جانبا، سألني عماد ما باله، فقلت أنه شخص أعرفه، حينها توقّف، لذلك سبقنا خليل وتوقّف قبلنا.

نزل من السيارة. اقترب من بابي وفتحها:

- اخرجي أسيرم.

رفعت عيني إليه ثم أجبت:

- لن أخرج، هل جننت أم ماذا؟

ليتدخّل عماد:

- ما بالك يا رجل؟ ماذا تحسب نفسك فاعلا؟

قال خليل في وحشية كنت قد نسيتها:

- أنت لا تتدخّل، ابقى مكانك وأغلق فمك مفهوم.

ليمسك بيدي:

- دعينا نذهب أسيرم، تعلمين أني سآخذك شئت أم أبيت، لذا من الأحسن ألا تتعبيني.

خرج عماد بينما يقول:

- أنت مجنون أم ماذا؟

تبعته وخرجت أيضا، لأن خليل ترك يدي وراح يلتقي به، والكل يدرك ماذا يحدث حين يتشاجر الرجال، هذا أكثر ما أكرهه، أن أرى رجلين يتشاجران، فمن عنادهم لا أحد يتنازل، سبقتهما ووقفت وسطهما. عماد يتعهّد والآخر يرمقه بنظرة يوشك أن يقتله بها.

- أرجوكما لا تفعلا هذا بي، عماد اهدأ من فضلك.

ثم التفتت إلى خليل:

- حسنا سأرافقك، اذهب إلى سيارتك.

- لن أبتعد إلا وأنت معي.

تنهّدت ثم استدرت إلى عماد:

- سامحني عماد صديقي، لم أكن أعلم أن هذا سيحدث، سأذهب معه الآن، أشكرك على كل شيء.

أجابني عماد:

- أسيرم لست مجبرة على مرافقته، لا تدعي أي أحد يملي عليك ما تفعليه.

اقترب منه خليل ودفعه، مع أني كنت بينهما، إلا أنه توصّل إليه، وحين أمسكت بذراعه قال له:

- لا تتدخّل فيما لا يعنيك يا أبله، ستسمع كلامي وأملي عليها ما تفعله مثلما أريد، من تكون لتتدخّل في أمرنا؟ اسمع، من الأفضل لك أن ترحل.

حينها شعر عماد بالاستفزاز مثل أي رجل فقال لي:

- قرري أسيرم، إما تذهبي معه أو تأتي معي وإذا لم ترافقيني فسيكون هذا آخر لقاء بيننا.

أوقعت عيني أرضا، في أي ورطة وضعت نفسي؟ لأرفعهما:

- عماد.

- حسنا افعلي ما تريدينه لكن انسي أنك تعرفينني.

ناديته أثناء التحاقه بسيارته، عندما انطلق مغادرا شرعت أبكي فاقترب مني خليل ووضع يده على ظهري، فنفضتها:

- لا تلمسني، ما الذي فعلته؟ هل المهم عندك فقط أن تتحكّم بحياتي، لا تريدني معك ولا مع غيرك، ترغب في السيطرة على كل شيء، ماذا تريد مني؟

- أنت لا تفهمين.

وراح يمسك بذراعي فابتعدت، ليقترب أكثر:

- دعينا نذهب إلى مكان آخر ونتحدّث.

- ليس لدي ما أقوله لك ولا أريد سماع ما لديك، تريد أخذ كل الناس الذين أحبّهم من حياتي، ألهذه الدرجة تغار مني.

- بل عليك عزيزتي، عليك، أرجوك دعينا نغادر هذا المكان على الأقل، الجميع ينظر إليك وأنت تبكين، هل نسيت؟ أسيرم لا تحب أن يراها الناس تبكي.

حينها رحت إلى سيارته وجلست، ليتبعني وينطلق:

- أريد العودة إلى المنزل خليل، لا أحتمل التواجد معك الآن.

- لم اخترت أن ترافقيني بدلا منه إذن؟

- هل حقا تعتقد أني اخترتك عليه؟ بل رافقتك لأني خشيت أن تتهور وتقتله أو شيئا من هذا القبيل.

توقّف ثانية:

- ماذا تظنينني؟ وحش أم ماذا؟

لم أردّ عليه، فبقي يراقبني لمدّة وقبل أن ينطلق قال بغضب:

- حسنا، لن آخذك إلى البيت، ستأتين حيث أريد أنا، أنتم لا تحبّون عندما يكون الشخص رفيقا بكم.

- أتعلم، ذات يوم ستندم على هذا.

- تهدّدينني، صدقا لا شيء لدي لأخسره، ما بيدك افعليه.

كانت عينيه تطلق شرارات من الغيض. قلت له:

- أكرهك حقا، أنت أكثر شخص أكرهه الآن.

- جيّد، على الأقل تشعرين بشيء اتجاهي.

لم يكن تعليقا في مكانه، لذا تطلّعت به بعيني المليئتين دموعا، وهو أيضا نظر إلي وكأن تلك التطلّعات هدّأته. فاستسلمنا للصمت وبقي يسوق إلى أن وصلنا إلى أحد المطاعم، ركن السيارة ثم جرّني من يدي. جلسنا على إحدى الطاولات، فطلب شامبانيا لنفسه ولي قهوة مع عصير فواكه.

بقيت أتطلّع به لمدّة ثم:

- لقد أفسدت علاقتي بصديقي.

- من طلب منك أن ترافقيه وحدك؟

- لم تتدخّل أنت، ألم تقل أنه من المستحسن أن نبتعد عن بعضنا، أنا ابتعدت، لماذا لم تفي بوعدك؟

- أهذا ما في الأمر؟ تريدين أذيتي لأني لم أجد من المناسب أن نكون قريبين؟ أتعتقدين أنه من السهل بالنسبة لي أن أكون مجاورا لك وأمنع نفسي من الدنو حقا، هل ستقبلين أن ترافقيني إلى الأعلى؟ لن تفعلي، ولو أنت رغبت في ذلك يوما لن أقبل، سأودّ ذلك لكني لن أجرؤ.

- لا تحدّثني في هذه الأمور، أنت تريد كل شيء وأنا أحب الأنصاف، إنك محق، ليس من العدل أن نضع نفسينا في هكذا موقف، لكني أطلب منك أن تدعني أعيش حياتي إذن.

- وهل عليك أن ترافقي الرجال لتعيشي حياتك؟ تابعي دراستك مثلا، أرسلك للخارج إذا أردت، ابدئي في مشروع ما، سافري، لا تفكّري في الرّجال.

- أنا امرأة..

- وأنا رجل، ماذا بعد؟

- امرأة تكره من تحب.

- وأنا رجل يعشق المرأة التي تكرهه، أنا أشد بؤسا منك ألا ترين؟

- سأفكّر في الرّجال خليل، ذات يوم سأحب أحدهم وأرغب في الزواج منه.

- لن تفعلي، لن أدعك، قلبك يخصّني وجسمك يخصّني وأنت لن تتزوّجي غيري..

- نحن لسنا ممن ينتهون مع بعض، لهذا أريد أن أعيش معك الآن، ما لدينا هو اليوم خليل.

تنهّد ثم قال مترجيا:

- توقفي عن قول هذا أسيرم، لن تدخلي بيت رجل غيري، أدرك أني اليوم لست من تفكّرين أن تنهي حياتك معه، لكني ربّما أكون يوما.

- وهل ستترك كل شيء من أجلي؟ تهجر رفاقك وتتوقف عن أعمالك، هل ستترك كل علاقاتك بالنساء الأخريات؟ أنت لن تفعل، وإذا لم تفعل لا مستقبل بيننا، فأنا لن أتعايش مع وضعك مهما صار..

- وأنا لن أعيش مع غيرك مهما صار، أعدك أنك ستكونين يوما لي كلك وأنا كلي لك، ستقبلين بأخطائي لأن نصفك الذي يحبّني أقوى من الذي يكرهني، أما عن النساء، أين النساء بعدما ظهرت؟ لا نساء تراها عينيّ.

- ماذا عن تلك التي بالملهى؟ رافقتها إلى الأعلى ألا تذكر؟

- لأنك كنت تكرهينني فقط، رحت أبرهن أنه يوجد من يحبّني، مع أنه لم يؤثّر بك الأمر أكثر مما أثر فيك دخولك ذلك المكان، كما تسمينه، لأصطدم بحقيقة أن لا أحد يحبني أنا كأنا.

- أنا أحبك يا خليل.

رفع عينيه وهو كلّه أمل، والشوق يغزو وجهه، واصلت:

- لكن كابوني ذاك يظهر دائما وأنا لا أحبّه.

- لكنّي هو، والقليل فقط من خليل هو الذي بقي، أنت تحبينني كما أنا لكنّك لا تريدين أن تعترفي، لم تتقبّلي أمر أنك تحبّين رجل سيء، أفهمك، حتى أنا من خشيتي عليك لا أريدك أن تحبيني، ومن موتي عليك أرجوك أن تحبيني، أنا مقطّع.. لا أدري ماذا أفعل بك، إنك تدمّرينني.

- وماذا أقول أنا؟ كنت أعيش حياة بسيطة منذ أشهر قليلة، كانت حياتي أكثر من مريحة، فعشت مأساة أبي وجميلة، ثم وجدت نفسي أرمى بين البيوت مع طفل صغير، فتطردني صديقتي لأن من تحبّه قرر استغلال وضعي ومحاولة التقرّب مني، بعدها عشت في حي لم أشك يوما أني سأدخله ثانية حتى للزيارة، لكني وجدت نفسي أعيش بين عائلة لم تكن تعني لي شيء، لتأتي أنت وتقلب حياتي رأسا على عقب أكثر مما هي مقلوبة بعد.

- آه.. جعلتني في قائمة الكوارث.

ضحك مستهزئا من نفسه.

- أنت والعائلة وحدكما الكارثتين اللتين أحببتهما، والمشكلة، أنه لم أعد أريدك أن تبتعد وأنت تخاف عليّ منك، وأنا أخاف منك، فماذا تقول في مثل هذا الدمار؟

- لم كان عليك أن ترجعي؟ على الأقل قبلا لم أدرك مدى حبي لك، على الأقل كنت أتذكرك بين الحين والآخر كشخص أتطلّع لأذيته لأنه عقّدني، أما الآن فصرت كلّ شيء، أخشى أن أعترف أنك سبب حياتي، وأنا

لم أثابر يوما للبقاء حيا، لم يكن لديّ دافع لأخاف على نفسي، لقد أتيتني بالمشاكل أسيرم، لم كان عليك أن ترجعي؟

- أنا أتقن تلك اللعبة جيدا، استعملني سلاحا تستفيد منه، فأينما رحت تبعتني المشاكل.

حينها أمسك بيدي وقبّلها، توقّفت عن الضحك مرّة واحدة، ليقول بصوت يملؤه القلق:

- أنت سلاح موجه إلي أسيرم، سلاح يستغل ضدّي.

صمت لحظتها وأخذت فنجان القهوة ورشفت رشفة منها، لأرفع عيني أثناء ذلك فأجده يحدّق بي، كأنه يقول كلاما كثيرا، رغبت لو كنت أملك قوى خارقة لأسمع ما يدور في ذهنه، إلا أن الكثير برز من نظراته.

بعد مضي خمسة دقائق من الصمت والكثير من النظرات المتبادلة، ابتسمت له وهو بقي جديا نوعا ما، فنزعت تلك الابتسامة التي بقيت وحدها كالبلهاء، لينادي باسمي ويبتسم لي.

- خليل، من جهتي لا تخف، لن أجعل أي شاب يأخذني لأي مكان إذا كان سيضايقك الموضوع، فقط، دعنا نرى بعضنا من وقت لآخر ولو من بعيد، فأنت قاس جدا، يمكنك أن تعيش دون أن تراني أما أنا لم يعد بيدي ذلك.

- ومن قال أني لا أراك؟ لا يمرّ يوما لا أشاهدك فيه، فحتى لو لم أكن في سطحنا، الأسطح كثيرة، وعندما لا أكون هنا أخذت صورتك التي كانت على طاولتك، وإذا لم توجد، فأنت بين عيني دائما عزيزتي.

- سأحرمك من هذا إذن.

- بيدك أن تحرميني، لكنك لن تفعلي.

- أنت استطعت، كيف تنتظر مني ألا أعاملك بالمثل؟

- أنت أطيب من أن تفعلي هذا، وأنا أحبك أكثر مما تحبيني حياتي.

- لا تعاملني هكذا خليل.

تفاجأ من قولي هذا بعد جلسة الاعترافات تلك:

- لا تقل لي كلاما كهذا، حياتي وعزيزتي وحبي.

- لكنك حقا كذلك، بماذا تريدينني أن أناديك أسيرم.

- باسمي فقط.

- مثلما تريدين، لا تغضبي نفسك بسببي.

- وكأنك تهتم لغضبي أو قلقي، خلقت مشكلة كبيرة بيني وبين صديقي والذي هو في نفس الوقت حبيب أختي، لم يكن عليك أن تعامله بتلك الطريقة، لا أدري ماذا أفعل حتى يسامحني، عليّ أن أعتذر منه.

- إياك وأن تعتذري منه، حتى لو كان حبيب أختك، لا حق له فيك، لم يتدخّل في حياتك؟

- سأعتذر منه أكيد، كما أني من أعطيته حق التدخّل في حياتي، إنه من وجدت في وقت المحن.

لاحظت تضايقه، فواصلت:

- ألا تريد أن يكون في حياتي من يخاف عليّ.

- لديك هذا الوغد الذي يقابلك، لا أريدك أن تحتاجي غيره.

- لا أثق في الأوغاد، لكني أثق بك، إلا أنه لا يمكنني عزل نفسي عن الناس فقط لأني..

- تخصينني، قوليها.

- يمكنك أن تحلم.

- أطلعيني بما تشعرين به الآن.

- قلقة وفي نفس الوقت سعيدة، لا أعلم كيف أصف شعوري في الحقيقة. وأنت؟

ضحك بمكر:

- برغبة في ضمّك.

ثم عضّ شفته السفلى.

- توقّف، هذا ليس شعورا حتى.

- الرغبة شعور أسيرم، كوني ذكية بعض الشيء وفكّري.

- أنا أفكّر، حسنا، ربما تكون محقا.

- ماذا إذن؟

- ماذا، ماذا إذن؟

- ماذا نفعل بهذه الرّغبات والمشاعر؟ أنت قلقة وسعيدة، وأنا أرغب في ضمّك بشدّة.

- لقد ضيّعتني، لست أفهم إلى ما تريد الوصول إليه.

- ضيعي، أحبك حين تضيعين، فقط ضيعي في حدود عيني حتى أجدك دائما وأرشدك إلى طريق واحد، طريقي.

آه منه ومن كلامه المعسول. ابتسم لتظهر ندبته الصغيرة، فاستمر:

- أتريدين حقا أن يتكرر لقاءنا؟

أومأت رأسي مجيبة بالإيجاب:

- فليكن بين الناس، حتى أتأكّد من أنّي لن أقربك كلّك، أتفهمين.

- لن أدعك لا تقلق.

- في الأخير سوف تفعلين، لو أسمح بالأمر تفعلين.

- حسنا إذن، فليكن كما تقول.

ذات مرّة كنت متأكدة من أني لن أحبّه، وها قد أحببته، اليوم إذا قال أنه سيكون أأمن على نفسي من نفسي، أصدّقه.

- حتى نتأكد من أنك في أمان معي، أعلم أني لست قادرا على أذيتك، لكن يجب أن نحذر، لا أحد يعلم.

- لقد أطلنا البقاء يجب أن نغادر خليل.

ضحك وقال:

- أمرك أسيرم.

يفعل ما يريده بي، ثم يقول أمرك، يا له من متلاعب ماهر، يقرر ماذا أفعل مع من أخرج وإلى أين أذهب وكيف أعيش، ثم يقول أمرك، كأن كل شيء بين يدي حقا!

أوصلني كالعادة وقبل أن أخرج:

- اعتني بنفسك من أجلي، وانتظريني هذا المساء عند الشرفة.

10

فهمت عليا أن عماد غاضب مني دون أن يخبرها عن السبب، فأطلعتها أنا وقد حاولت أن تفهمني أن غضبه طبيعي، قلت أني أدرك ذلك وأتفهّمه، لكني خشيت أن يتشاجرا، فعماد أعقل وأرزن من خليل، هذا الأخير لن يتنازل عني حتى لو رفضت مرافقته، كان سيأخذني بالقوة، والآخر لن يصمت طبعا، فقررت أن أوقف الأمر عند هذه المرحلة. طلبت منها أن تحاول استمالته ليسامحني فهي حبيبته وتعرف طريقا إليه، فهو يعشقها بجنون ولن يرفض لها أمرا كهذا. وحقا كلّمته مشغلة مكبر الصوت فجعلته يسلّم علي ثم كلّمته وانتهينا من الأمر، طبعا لم أخبره بما أعلمت عليا، وإلا حاول منع خليل من الاقتراب مني، من ثم، تحدث مشاكل ولا واحدا منا سيبقى على حاله مع الآخر بعدها.

والخليل يتّصل بي دائما ويأتي كل ليلة إلى السطح ليراني في شرفتي، ونبقى كذلك حتى وقت متأخر من الليل، نتحدّث في أمور شتى. سافر لمدّة أسبوع ثم عاد في منتصف الشهر الجديد، ولأول مرّة بعد لقائنا المتكرر في أماكن مختلفة، معظمها كان يرافقنا فيها يوغورتا وفي أخرى ترافقنا أيضا نجية، طلب مني لقاءه ليأخذني إلى يخته بسيدي فرج، سألته إن كان متأكد من الخطوة، فقال أنه أكثر من متأكد. أنا أثق به، نعم، رغم كل شيء أثق به أكثر مما أثق بنفسي، يحبّ لي الخير، وأنا أحب له الخير، حتى صرت أشعر كأنه من مسؤولياتي.

كان يوم سبت مشمس وجميل، ارتديت ملابس زاهية الألوان للتغيير، وسرّحت شعري وأسدلته على كتفي بعدما جعلت عليا تملّسه لي بالمجفف، وضعت القليل من مساحيق التجميل. ورحت لألقاه.

رأيت بريقا في عينيه جعل قلبي يطير من مكانه، ليته لم يوجد يوما حتى لا أشعر بذلك الألم الجميل، ابتسمت له وهو يضحك من عينيه كأنه رأى القمر على الأرض يتجه نحوه. سألته كيف حاله فلم يجب، فقط ظل يبتسم، لم أفهم ماذا دهاه حينها، إلا أني كنت سعيدة لرؤيته بعد غيابه أسبوعا كاملا عني.

انطلقنا بالسيارة، لكن فورما ابتعدنا عن حينا، وقف المحرّك، ومنه تقدّم ليخرجني من السيارة قبل أن يجذبني من كتفي ويضمّني إليه بقوة. فتح لي الباب ودخلت ثم أسرع ليركب هو وينطلق ليصل إلى مكان بعيد عن حينا، ويخرج ثانية، يتقدّم إلى بابي ويطلب مني الخروج، اندهشت من ذلك لكني فعلت ما طلبه. كان أوّل حضن يملأ روحي، فيكفيني إلى الأبد. طوّقته ببطء أيضا، ثم تشبثت به مثلما يكون الحياة كلّها، خليل، كأنك يوما كنت عليّ محرّم واليوم أنت أحب من روحي والموت معك محتم، لأقضي على نفسي بين يديك أهون من أن أقضي الحياة وبكرهك القلب متهم، فأموت وأموت ألف مرّة بين ذراعيك ولا أعيش والبعد لنا مقدّر.

قرّب فمه من أذني ونطق بهذه الجملة الجميلة:

- اشتقت إليك.

أبعدته قليلا:

- اشتقت إليك كثيرا، كثيرا، لا يمكنك أن تتخيّل.

- ما أجملك وأنت تبتسمين، ما أجملك، لا أصدّق أني معك، أشعر وكأني سافرت لسنوات لا لأسبوع، اسمعي، في المرات المقبلة، سوف تأتين معي.



ضحكت:

- تعلم أن هذا غير ممكن.

اقترب وسرق قبلة من خدّي لا أدري إن كانت تعتبر سرقة إذا كنت المتلقية والسعيدة بها. قال:

- فلنذهب الآن، أريد أن أشبع من حضورك.

- أمرك.

عدت إلى السيارة وانطلقنا إلى سيدي فرج. ذهبت مرارا إلى هذا المكان مع أبي وجميلة ويوغورتا، ننظر إلى تلك اليخوت ونلتقط صورا بقربها، خاصة أحدهم، كان الأكبر بينهم و بقربه التطنا صورا كثيرة على مرّ أربعة أو خمسة سنوات، كلّما زرنا الميناء. وقد كان يخصّ شخصا سأعرفه ذات يوم وأكرهه يومها فأحبّه في آخر.

لم أصدّق أني سأزور أخيرا ذلك اليخت الجميل الذي لطالما تساءلنا عن شكله في الداخل، طبعا كان خياليا، راقيا وكأنه بيت في حيّنا القديم. أمسك بيدي طوال الوقت وجعلني أدخل غرفته لأراها قبل أن نقصد الصالون الصغير، وهناك جلسنا، قابلني على تلك الكنبة وهو يبتسم، يشعّ فرحا.

- توقّف عن النظر إليّ هكذا؟ إنك تحرجني.

أنزلت عيني أرضا.

- ما هذه المشكلة التي وضعت نفسي فيها؟ يا إلهي، أسيرم، لن تبتعدي عني يوما، صحيح؟

وكأنه يطلب ضمانة لبقاء السعادة التي بيننا. أجبته:

- من جهتي لا أريد، لكن الأهم هو ما يخططه لنا القدر.

- يكفيني أن ترغبي في ذلك.

سألته عندما بدأت أشعر بالخجل بعدما بقي يرمقني بنظرات ثابتة:

- هل سنبقى هنا؟ أم..

- تريدين أن نبحر قليلا، مثلما تريدين، فأنت الآن التي تقول وأنا أنفّذ..

ليضحك ويواصل:

- إلا حين يتعلّق الأمر بك، لك أن تتحكّمي بكلّ شيء فيّ إلا أن تبعديني أو تحبي آخر.

ابتسمت له قبل أن أقول:

- تحيّرني كثيرا خليل..

- ألا يعجبك هذا، تكرهين الأمر فيّ؟

- ليس كذلك، لكني أحيانا لا أعرف ما الذي تريده وفي أخرى أفهمك من نظرتك، تحيّرني في طريقة حديثك وكلّ شيء.

- لا تحتاري كثيرا، فأنا فقط رجل يحبك.

ضحكت معه ثم استمرّ:

- أخبريني أسيرم، أخبريني ما هي الأشياء التي تحبّينها؟

توقّف وقبل أن أجيب:

- تعلمين، لا تجيبي الآن دعينا ننطلق إلى البحر ثم أطلعيني عمّا تحبّه حبيبتي.

نهض من مكانه بعدما نزع معطفه، ليمسك بيدي وحين رحت أنزع معطفي قال:

- أبقه، ستبردين.

ليقرأ على عيني سؤالي ثم أجاب:

- أنا لديّ أنت، سيدفّئني وجودك.

ابتسمت له كبلهاء تسمع لأول مرة القلب يتحدّث.

صعدنا إلى فوق. شغّله وانطلقنا، جلست بقربه أراقبه، البرد كان قارصا ومع ذلك عروق يده تظهر سرعة تدفق دمه، كأنه يشعر حقا بارتفاع في الحرارة.

وحين ابتعدنا عن الميناء واختلينا في البحر أوقف اليخت، فمددت يدي إلى ذراعه وقلت:

- ألا تشعر بالبرد صدقا؟

نظر إلي كأنّه يتألم، فنزعت يدي بسرعة، اقترب من يديّ وسخنهما أثناء نفخه عليهما بفمه:

- يداك باردتان عزيزتي، تريدين أن ندخل؟

تنفّست بعمق وأجبت بابتسامة:

- ونترك كلّ هذا، أنا لم أقم بجولة في البحر بحياتي كلّها.

- أريدك أن تحققي كلّ رغباتك، أنا هنا، لن أسمح بأن تبقى في قلبك حسرة على شيء، حياتي تهون مقابل أية رغبة تجتاح حبيبتي.

مددت راحتي إلى وجهه ولامسته برقّة، فيغمض عينيه:

- افتح عيناك ودعني أستمتع بهما.

قلت بينما يفتح عينيه:

- ليتهما لم تكونا بهذا الجمال.

ابتسم بندبته تلك وقبّل جبيني، ثم عاد كما كان:

- لأنّهما تريانك تبدوان جميلتان.

ثم قال:

- دعيني الآن أرتاح.

- وهل أتعبك لهذه الدرجة؟



- وأكثر لو تعلمين.

حينها جلس مقابلا البحر معي، وهو بين ساقي مستلقيا على أرضية اليخت، كان حافي القدمين، ووضع ذراعيه كل واحدة على إحدى سيقاني وأخذ يشاهد البحر وأنا أراقبه هو والبحر معا، أشعر بحرارة جسمه تعبر جسدي، كأنها كهرباء عبر الأسلاك تعبرني. حينها شعرت برغبة غريبة في لمسه ولو شعرة من رأسه، فأخذت أداعب شعره بيدي مرجعة إياه إلى الوراء، ليرفع بوجهه إلي أثناء ذلك فيقع رأسه على بطني وأنزل عيني، بقيت أراقب وجهه البشوش الذي يرمقني بألذّ نظرة تلقيتها في حياتي. يبتسم لي ببساطة كأنه يعتبر ما فعلته خدمة عمر. ما استطعت أن أتماسك وهو بهذا القرب وكم كان جذابا لحظتها ككل اللحظات التي سبقت، اقتربت قليلا منه، ثم نادى باسمي محذّرا، كأنه توقّع شيئا آخر، فقبّلته على جبينه، ليتنهّد ويبتسم. لففت رقبته بذراعي وحضنته إلي. أخذ يقبّل يدي مرارا. كنّا في غاية السعادة، يا له من يوم، لن أنساه أبدا، لن أنسى.

حتى بدأت الأمطار تقطر على وجهه وشعري الذي ملّسته خصيصا من أجله، فقمنا مسرعين من تحت الغطاء، ثم أمسك بيدي ورحنا إلى المطبخ لنعدّ شيئا نأكله، رفض مساعدتي له، قائلا أنه من سيحّضر كل شيء، عندما صرح أنه تعلّم الطبخ والاعتناء بنفسه منذ الطفولة، لذا يمكنه أن يعتني بي ويحضّر لي ما أريده، وأنا أراقبه يقطّع الفواكه، سألني ثانية عن الأشياء التي أحبّها، أي ماذا أريد أن أفعل؟

جلست فوق الطاولة أثناء مراقبتي له طبعا:

- لربّما تجد ما سأقوله غريبا، لكنّها أمورا أحلم دائما أن أقوم بها، أولا هناك شيء أفعله أصلا، أنا أجمّع، أو بالأحرى كنت أجمّع أمورا غريبة، تلك

التي لا يعطيها أحدا أهمية، كزرّ مثلا أجده في الشارع، أحب التفكير في أن قصّة عجيبة غريبة جعلته يقع هناك بالذّات.

ليلتفت إليّ ويتوقّف عما كان يفعله، واصلت:

- أو شيئا قديما، فقط لأنه عاش قبلي بسنين طويلة، أو ربّما شعرة تقع من أمي خلال زيارتي لها.

وأنزل عيني أرضا، ثم أستجمع قواي وأرفعهما إليه ثانية بابتسامة:

- هناك أيضا بضعة أمور أخرى أحبّ أن أقوم بها، لكن لا تضحك.. دائما أرى في التلفاز والمجلات صورا لنساء تعبرن حقلا يملأه العشب أو القمح، وتمنيت لو بإمكاني أخذ صورة كتلك، أعلم أنها فكرة غبية لكني أحبّ ذلك.

اقترب مني:

- لا، ليست فكرة غبية، ماذا أيضا؟ ما الذي تحبينه أيضا؟

أنزلت رأسي أرضا، فقام برفع شعري عن وجهي لأنظر إليه:

- حسنا، هذا أمر شبه مستحيل أن يحدث، لكني، لطالما رغبت في المشي في طريق سريع على قدمي مشيا، ويكون الطريق فارغا تماما من السيارات.

أخذت أضحك:

- أترى كم أنا غريبة الأطوار؟

رمقني بنظرة لم أفهم معناها لحظتها، ليقول:

- حتى في غرابتك راقية.

ثم انتزع من اصبعه خاتما قديما ويبدو من الفضّة، ليمسك بيدي ويفتحها:

- هذا خاتم أمي رحمها الله، أعطتني إياه قبل أن تموت، ستحتفظين به أفضل مني.

- هل جننت لا! لن آخذه، إنه لأمك، عليك أن تعتني به.

ابتسم وقال:

- أرجوك أمسكي به، أنت ستعتنين به من أجلي، لن يليق بي كما سيليق بك.

بقيت أردد أني لن آخذه، حينها أغلق أصابعي والخاتم بداخلها:

- إذا لم تأخذيه سأغضب منك، وأحزن حقا، إنه نقي ويحتاج لشخص نقي مثل أمي ومثلك.

وضعت يدي الأخرى على صدره، وأجبت:

- سأحتفظ به، لكن لا تقل ثانية أنك لست نقيا، أنت نقي، وتستحق أن تحمله مثل أمك ومثلي، كما أن لا أحد مثالي، كلّنا نخطئ.

وضع حينها كفّه الكبير خلف رأسي ليقرّبني منه حتى يقبّل جبيني بعدها، واصلت قائلة:

- لا تنسى هذا خليل.

وقمت بلفّه بذراعي. ابتعدت عنه بعد برهة من الزمن وسألته:

- لكن ما مناسبته؟

- إنه شيء غريب تجمعينه، فهو قديم وجزء مني ويحمل حكاية، وكل رغباتك ستتحقق.

لم أجد كيف أشكره، فقلت:

- إذن لديّ رغبة أخرى.

سألني ما هي فأجبت:

- أرغب في حبّك أكثر وأكثر، أسعدني دائما بوجودك إلى جانبي.

- ارحميني يا بنت الناس، لو أحببتك أكثر مما أحبك لن أعيش، سينفجر هذا القلب، ارأفي به.

- إذن على الأقل، لا تدع فيه مكان لشخص آخر.

- وحدك فيه.

تنهّد وردد:

- وحدك أسيرم من تعيش في هذا المكان الذي أنرته بنورك.

اتصال مفاجئ كان كفيلا بإنهاء موعدنا، فهمت خلال المكالمة التي دارت بين خليل وصديقه سعيد أنه أمر طارئ جعل هذا الأخير ينتظرنا عند المرفأ، مبررا أنه لديه تسجيلات مهمة.

كانت نظرات سعيد لي مختومة ببغض غامض، مع أنها كانت أول مرّة نلتقي فيها وجها لوجه. لاحقا انعزلا لبعض الوقت. عند عودة خليل بدا مكدر البال، حامل هموم الدنيا رغم ابتسامته البسيطة لي انطفأت نظرته، كنت أجهل أني سبب حزنه آنذاك.

أخذ خليل في الأيام القادمة على عاتقه مهمة تحقيق أحلامي واحدة بعد واحدة، فمن حقول بجاية من أجل صورتي الخرافية، انتقلنا إلى طريق سريع نادرا ما تعبر منه سيارة، كانت أحلامي تتحول إلى واقع على يد حلمي الأخير. كنا نجري كالمجنونين هناك، حلّقنا في الهواء سويا حتى بلغنا الغروب.

عند عودتي إلى المنزل يومها وقعت تلك المقابلة التي تحاشيتها ما مضى من حياتي. كانت أمي وحدها، فحاولت التملّص من الوضع. لكنّها بدلا من تفهم ذلك تبعتني إلى الغرفة، فقد أخذت يوغورتا لبيت جدّته ليقضي اليوم معها بما أنها مريضة، فكنت سأرتاح لبعض الوقت ثم أسترجعه لاحقا. لكنّها جعلتني أجلس مصرحة برغبتها في محادثتي.

قالت بيأس تام:

- ألن تسامحيني أبدا يا ابنتي؟ أخاف لو أموت وأنت غاضبة مني.

- لازلت صغيرة، لن تموتي.

وجهت أنظاري أرضا ممتنعة عن الإجابة.

- تكرهينني أليس كذلك؟ تقبّلت أخواتك وحتى عمران، لكن أنا لا.

- كيف تتوقّعين مني أن أتقبّل هجرك لي وأبي، خاصة أنا، كنت طفلة صغيرة.

راحت الدموع تنزل من عينيها، فحذوت حذوها، لم يكن سهلا، قلت:

- لا أكرهك عبيدة، فقط، أنا غاضبة منك إلى حد كبير، بحيث لا يمكنني مسامحتك بسهولة، ربّما مع الوقت.

- أيعني أنه هناك أمل أن تسامحيني.

- لا أدري، أريد ذلك، لكنّي لا أفهم كيف لأم أن تهجر ابنتها لحدّ الآن، فأنا أخي، لم ألده أو أتعب عليه تسعة أشهر أفديه بروحي وكل شيء جميل في حياتي.

- لا تقولي هذا، حتى أنا لم أتركك إلا مرغمة.

- كيف ذلك؟ تزوّجت من أبي ثم أنجبتني ورحلت مع آخر.

وضعت يدي على صدري:

- لا يمكنك تخيّل الإهانة التي شعرت بها عندما عايرتني عمّتي بك، لطالما كنت نقطة سوداء في حياتي، لا أعرف شيئا عنك وما أعرفه لا يعجبني.

- لا تظلميني يا ابنتي.

شرعت في البكاء بحرقة:

- لو كنت أعلم أنه برجوعي إلى عمران سأخسرك، ما كنت عدت إليه.

- ماذا تقصدين بعدت إليه؟

- سأروي عليك ما حصل معي، لن أخسر شيء بعد.

أخذت نفسا عميقا، لتواصل:

- كنت صغيرة، في سن عليا حين تعرّفت بعمران، أحببته كثيرا وهو أكثر، كان الحياة بالنسبة لي، لم أر غيره في مستقبلي، وبقينا مع بعض أربع سنين، خلال تلك الأعوام تقدّم لي الكثير وأنا أرفض، لكنّ أمي أصرّت على والدي أن يزوّجني، فقد كبرت بنظرها.

اندهشت لمعرفتي أنها كانت تعرف العم عمران قبل أبي، لم أدرك الموضوع جيدا، لكنّها استمرّت تحت دهشتي:

- بكيت ورفضت ومرضت لكنّهم قرّروا أن المقبل الذي يقصد المنزل سيكون زوجي، فعائلتي كانت ميسورة الحال، وما كانوا ليقبلوا بشاب معدوم مثل عمران، لا يملك إلا عملا بسيطا يعيل به نفسه بالكاد يمكنه أن ينهي شهره، ومع ذلك تقدّم لي، جرّب مرارا، لكنّهم ردّوه في كل مرّة خائبا.

تنهّدت بعدها:

- زوّجوني بأبيك بعدما تقدّم إلي، هدّدني والدي بأنه لن يسامحني لو أحرجته بين الناس، فصمتت، وأطعتهم فيما أمروا. كنت كالصّنم، لا يعيش إلا بالجسد، والدك لم يعش معي كزوجة له إلا الشهر الأول، لكنّه

تفطّن أني لا أحبّه. مع الوقت صار لا يدخل إلى المنزل. بعدها اكتشفنا أني كنت حامل، قرّر حينئذ أن يطلّقني بعد الولادة، لأني أخبرته بقصّتي وما عاد يحتملني، وللحق لم يعاملني يوما بقسوة ، بل العكس كان طيبا جدا.

سكتت لوهلة قصيرة، تابعت:

_لم أكن أعلم أنه سيأخذك مني، بعدما أرضعك في أشهرك الأولى، من ثم والدي صار يحتقرني لأني تطلّقت ويضربني كلّما دخل إلى البيت وعاد عمران ليخطبني حين كنت تبلغين سبعة أشهر فقبل والدي لأنه لن يتزوّج بي أحد وأنا مطلّقة بابنة، خاصة في وقتنا، حينها أخذك والدك منّي وأخذ حق الحضانة، ولي أيام معك. كدت أجنّ يا ابنتي، فعلت المستحيل، حتى أني ترجّيت والدك أن يرجعني إلى عصمته، لكن كرامته لم تسمح له بأن يقبل بي، تمنيت لو لم أطلعه بعلاقتي السابقة، لكنت عشت معك، ندمت كثيرا يا ابنتي.

- إذن أنت لم تتركينا من أجله؟

اقتربت منها وضممتها، وهي لفّتني بذراعيها بقوة، ثم قلت:

- جيّد أنك لم تظلي، فلو فعلت لما وجد يوغورتا وعليا مع فاروق ونجية.

أخذت تقبّل خدّي مرارا، ثم قالت بصوت مخنوق:

- أنت ملاك يا ابنتي، ملاك.

ولأوّل مرّة ربّما منذ كنت في سن الخامسة، نطقت أخيرا ثلاثة أحرف معجزات:

- أمي.

كم أحرقتني هذه الكلمة لسنوات، أسمعها ولا أنطقها، في نفسي كرّرتها مرارا، لكني لم أقلها يوما. تعبت من عبيدة، الآن أريد أمي وأنا سعيدة ستفرح معي أمي، وإذا بكيت تبكي معي أمي، حين أمرض ستعتني بي أمي، أسمح لك بأن تكوني أمي.

- يا عمري.

صعب عليها تركي لمدّة من الزمن حتى سمعنا الباب يفتح، لتبتعد قليلا وهي تصرّح:

- أريدك أن تعلمي أنك أول قلوبي وأكبرهم.

شعرت بالهواء يدخل صدري وفخر يوخز قلبي، ابتسمت كطفلة تدللها أمّها لأول مرّة. رغم أني أملك قلوبا لي وحدي، إلا أنه مكان في قلب أمي.

كان العم عمران، قد وصل باكرا من العمل يومها، العمل الصباحي على الأقل، وجد عيوننا حمراء، فسألنا إن كنا نبكي. ابتسمنا لبعضنا . اقتربت أمي مني لتحضنني إليها. كان يضحك من عينيه، لابد أنه فهم كل شيء.

استقرّ الجو يومها على بهجة كاسحة في البيت، وخارجه أيضا، حيث فاجأنا عماد بخرجة جماعية برفقة الأطفال وعليا طبعا إلى حديقة الحيوانات. نسيت أمر خليل وغيرته فلم أعتبر الموضوع ذات أهمية، حتما لم أكن أتوقع اتصاله الذي أتاني بشيء من العتاب وكثير من الصمت الذي لم أفهم خلاله إن سامح أم لا. امتنع عن الرد على مكالماتي لاحقا والتي دامت حتى الثانية صباحا، ليلتها نمت قلقة.

شكرت الله كثيرا عندما استفقت في الصباح الباكر على أنغام رسالته النصية، حيث يحدد فيها موعدا لنلتقي. انزلقت داخل سيارته دون ردّ التحية لي، استنتجت أنه غاضب من صمته.

سألته بصوت يحمل شيئا من الحزن:

- ماذا هناك خليل؟

- هكذا إذن تذهبين معه ولا تخبريني؟

- إنك تبالغ حبيبي، هذا عماد مثل أخي، وهو حبيب أختي، ألا يمكنني مرافقتهم لقضاء وقت ممتع؟

ثم أمسكت بيده وقلت:

- مع أنه لن يكون وقتي كاملا من دونك.

نظر إليّ كأن تلك اللمسة أغرته، ثم أمسك نفسه بصعوبة، أجاب:

- أتريدينني أن أسامحك على ما فعلته بي؟

هززت رأسي بالإيجاب رغم أني كنت مقتنعة بعدم فعلي أي شيء يسيء إليه. استمر:

- ستفعلين أي شيء أطلبه؟

- أجل.

فتح عينيه، رافعا حاجبيه من الدهشة:

- حسنا، أنت قلت.

انطلق حينها بسرعة، ثم التفت إلي:

- لديك رخصة سياقة صحيح؟

- لا.

- كيف كنت ستسوقين يوم.. تعلمين، يوم طلبت منك أن ترحلي، تلك الليلة.

كأنه لا يريد أن يتذكر ليلة الملهى.

- علّمني أبي كيف أقودها قليلا، ليس إلا.

- لا عليك، سهل، أعلّمك أنا.

- لم قد أتعلم؟ ليس كأني أملك سيارة.

ثم تطلّعت به، وجدته يبتسم بمكر:

- ما الذي تنويه خليل؟

- لقد وعدتني بأن تفعلي أي شيء لأسامحك، لا ترفضي أرجوك.

فتحت عيني مندهشة. واصل قائلا:

- ابتعت لك سيارة، إياك أن ترفضيها.

- لا تتوقع مني أخذها، من أين سأخبر أهلي بأني أتيت بها؟ أنت مجنون.

- بك، أنا مجنون بك عزيزتي.

ليقوم بوضع يده خلف رأسي ويخرّب شعري:

- إنها لعزيزتي، إذا لم تأخذيها أرميها بالبحر.

- لن تفعلها.

- بلى، وأشتري أخرى وأرميها حتى تقبليها.

- أنت غير معقول.

قبّلته على خدّه:

- شكرا، لكنّها آخر ما أقبله منك.

- سنرى. من أجل قُبل كهذه سأعطيك كل يوم هديةّ.

- أهديني قلبك وكلّ يوم ستأخذ أربع قبل لا واحدة، لا أعبأ بهداياك خليل، أنت أهم من كلّ شيء.

نظر إلي، قال ببعض من الجدّ:

- أنت لا تكذبين.

وابتسم محتفظا بتلك النظرة الحزينة:

- تحبّينني..

- أكيد أحبّك، لو لم أكن أحبّك لما وجدتني معك الآن.



- أسيرم تحبّني، فداها عمري وكل أيامي.

اقتربت منه بينما أضع رأسي على كتفه، عندها لفّني بذراعه. أتذكّر أني أخبرته ذات مرّة عن لوني المفضّل، لم ينسى هذا، وقد كانت السيارة زرقاء، يعجبني عندما يهتم بالتفاصيل. اكتشفت لاحقا أن غضبه لم يكن إلا مجرّد تمثيلية تدفعني آليا لقبول هديته حتى يرضى. لكنه أراد قبل تسليمها لي أن يتحقق من مستواي في القيادة. وضع لي حزام الأمان، وانطلقت، كان يضحك بشدة من بطئي في السير بالسيارة. عند منعطف يُخرج إلى الطريق السريع حيث واجهتنا لافتة بها علامة التوقف، احترمت ذلك فبدأت أنقص السرعة.

قال خليل:

- لا تتوقفي، لا توجد سيارات.

- هل جننت؟ إنها علامة توقف، عليّ احترامها، ماذا لو خرجت لنا سيارة من مكان ما؟

لسبب ما سمحت له بأن يؤثر بقراري، فانطلقت ثانية في رفع درجات السرعة. وضعت نفسي في موقف سخيف، فقد تبعنا شرطي على دراجته يأمرنا بالتوقف جانبا بإشارة من يده.

كاد يغمى عليّ من الخوف، قلت لخليل:

- رأيت في أي ورطة أوقعتنا؟ أنا لا أحمل حتى رخصة سواقة.

أخذ يضحك، ثم ردّ:

- تدبّري أمرك، فأنت التي وضعت نفسك في هذا المأزق، من قال لك اسمعي كلامي؟

- هكذا إذن؟

اعتراني غضب يصعب وصف شدّته، كيف له أن يتركني أواجه وحدي الوضع، كأني نسيت أنه خليل. اقتربت من اليمين وببطء توقفت، عندها شعرت بكف خليل على رأسي يخرّب شعري وهو يقول:

- أمزح معك، سأهتم بالأمر.

سبقه خليل بالخروج إليه، كان يحدّثه لكني لم أسمع ما قاله، بعد برهة تصافحا وكل عاد إلى مركبته، حتى أن الشرطي لوّح لي معتذرا.

فور عودة خليل سألته:

- ماذا حدث؟ كيف حتى رحل ولم يجعلنا ندفع غرامة.

- عزيزتي، كنت ستواجهين تهمة، فقد كنت تسوقين دون شهادة وتجاوزت إشارة التوقّف.

- لكنّك من أجبرني على ذلك.

- لا تغضبي عزيزتي أسيرم، أنا فقط أمازحك.

عدت حينها وسألته كيف حل الوضع، ليجيب:

- لا شيء، حدّثته فقط.

نظرت إليه وقلت:

- لهذا لا نتقدّم أبدا.

وبعد صمت دام ثوان سألته:

- ماذا تفعل لهؤلاء حتى يصمتوا؟

ابتسم لي وكأن وراء تلك الأعين كلمات خفية لا أستطيع قراءتها، كانت نظرة خبيثة بعض الشي، قال:

- أشتري لهم سيارات.

مسك خدّي برفق وبمرح:

- هيا دعينا ننطلق فورا.

- لا، تعالى أنت وقُد بنفسك.

ضحك:

- إذن تعالي مكاني.

□

٦٦

حصلت على رخصة السياقة بداية شهر يناير، عندها فقط سمح لي خليل بالقيادة. ساعدني في اختلاق كذبة أرويها على عائلتي باستثناء عليا أخبرتهم أني اشتريتها من تأمين أبي، الأمر الذي ما كان ليتحقق بملغ زهيد كتأمينه الذي انتهى في علاج يوغورتا أخي. فاروق لم يصدّق عيناه، فهو لم يحلم يوما بأن نكسب سيارة، هكذا بقي يردد. أخذتهم مكدّسين في المساء في جولة طويلة مرحة، تعيد الروح. استعملتها في المشاوير اليومية، كإيصال نجية ويوغورتا إلى المدرسة، وأمي إلى السوق حتى نعوض ما فاتنا. أما خليل فبتت أمرّ عليه بنفسي، لكنه من يسوق، رغم تذمّره الدائم من تقريب المقعد إلى المقود بشكل مبالغ، لكن عندما أضحك تتلاشى تعبيرات وجهه الصلبة لترتاح، أحب ذلك.

ظل الوضع على نفس الوتيرة لمدّة ثلاثة أشهر كاملة، أضاف الربيع شيء من الدفء لقلوبنا. أقسمت قلبي زيارته للمكسيك، التي دامت أسبوعا كاملا. هذه المرّة تدبّر أمره ليتواصل معي بنفسه كلما سنحت له الفرصة.

لا أحب قيادة السيارة وحدي، لكن أشكر الله كثيرا أني كنت في طريقي لاصطحاب خليل من المطار كمفاجأة دون أن يرافقني أي أحد. كان كل شيء بخير عندما انطلقت، لكن ساء الموقف كثيرا عندما حاولت تخفيف السرعة في ذلك المنحدر، ولكن مشكلة ما أصابت الفرامل لأنها لم تكن تعمل. شاهدت حياتي تمرّ بين عيني كشريط، خائفة وعاجزة، رحت اتساءل ماذا أفعل؟ فبدا لي أن أختار بسرعة، حتى لا نتكبد خسائر جمّة. استسلمت في الأخير للأمر الواقع، بداخلي رعب يعصر الفؤاد. بمجرّد أن اقترب وقت

الاصطدام ببعض السيارات المركونة قرب عمارات ذلك الحي إلا وقرّبت وجهي وكتفي من المقود، ذكرت مرارا اسم "الله" حتى فقدت الشعور.

كنت محاطة بعائلتي ما عدا يوغورتا ونجية، عندما فتحت جفوني ببطء، رمت والدتي نفسها على يدي لتقبّلها بدموع مختلطة بالخوف والفرح.

بصوت ضعيف يُسمع بصعوبة سألت:

- أين الصغيران؟

أجابتني أمي:

- عند الجارة لا تقلقي، هما بخير.

ثم واصلت:

- تعرّضت لكدمات بسيطة، لا شيء خطير، الحمد لله أن الأمر توقّف عند هذا الحد.

- لا أفهم ماذا جرى؟ خرجت السيارة عن سيطرتي.

تبادلوا النظرات، سألتهم:

- ماذا هناك؟

قالت عليا:

- لقد دخلت في غيبوبة دامت ثلاثة أيام. يبدو أن أحدهم قطع فرامل سيارتك.

سألتها وقد تملّكني الخوف، متجاهلة بذلك حضور العم عمران وفاروق:

- ماذا عن خليل؟ هل علم؟

خشيت أن يفعل شيئا ما، فهو مجنون ويمكن أن يتهوّر.

حينها خرج العم عمران وفاروق، اقتربت عليا مني:

- لقد جنّ جنونه، لو رأيته يومها لاعتقدت أنه سيموت، لم يتمالك نفسه فراح يبحث عن الفاعل، يشك في أحد أصدقائه. سمعته يسأل إن وجدوه بعد أم لا، حسبما فهمت اختفى، وقبل عشرة دقائق فقط ورده اتّصال ورحل بسرعة، أوصاني قبل مغادرته بأن أخبره عند ظهور المستجدات.

- اتّصلي به، أسرعي أرجوك.

اتصلت به كما طلبت، أعطتني الهاتف، لأسمع صوته وهو يسأل عليا إن كنت بخير، فأجبت بصوتي المبحوح:

- خليل.

- أسيرم، هذه أنت أسيرم؟ قولي.

كأن أنفاسه تتقطع.

- نعم.

بدأت أبكي، ثم توقّف عن التحدّث، شعرت به يبكي مثلي:

- خليل، أرجوك تعال، لا تقم بشيء تندم عليه، تعالى عندي، أحتاجك هنا.

- لقد وجدت الوغد، أصفي حسابنا بعدها تجدينني عندك.

- لا، أرجوك خليل.

- أسيرم لا تبكي، حسنا، أنا قادم، لا تتعبي نفسك.

تنهّد، ثم استرسل في الحديث:

- أنت بخير الآن؟ أكاد لا أصدق أني أسمعك، كدت أموت قهرا عليك، لن تسوقي بعد الآن أسيرم. كنت أعلم بأن وجودك قربي أذى لك، أنا سيء أخبرتك، لماذا لم تسمعي الكلام؟ هددتني ووضعتني بين نارين، إما نقترب أو تعطين فرصة لوغد غيري بالاقتراب، ماذا كان عليّ أن أفعل يا ربي؟

- لا تتضايق، كل شيء بخير الآن خليل، لا تندم.

- لا، ليس كلّ شيء بخير، أعدائي كثر وسيستعملونك ضدّي، يا رب، كيف فكّرت في إدخالك بحياتي.

- إنك تسوق، لا تغضب نفسك خليل.

- دعيني أغضب، دعيني أموت، لربّما أرحمك منّي.

- لن أحيا بعدك. دعك من هذا التفكير، من أجلي اهدأ، تعال، لم أرك منذ أسبوع.

صمت لبعض الوقت:

- تبدين متعبة.

- خليل.

لم يجب:

- خليل، أنا بخير، عندما تصل ستتحقق بنفسك، كل ما في الأمر اشتقت إليك، المهم ألا تعذّب نفسك، أنت لن تتركني صحيح؟ طمئنني.

- لم يعد بإمكاني حتى لو أردت.

- جيّد، فأنا وأنت للأبد.

- تعدين؟

وعدته، قال:

- أنا عند موقف المستشفى.

انقضت دقيقتين، قبل أن يصل. خرجت أمي وعليا لنظل وحدنا، كان يبدو عليه التعب كما لم أره من قبل، اقترب وهو يقول:

- عزيزتي أسيرم.

قبّلني على جبيني، أمسك بيدي ليقبّلها هي الأخرى.

شددته بالقوة التي بقيت لديّ:

- تعال.

اقترب وضممته إليّ:

- اشتقت إليك كثيرا، كنت ويوغورتا آخر ما فكرت فيه.

- توقّفي، توقّفي لا تزيدي من عذابي.

- آسفة.

- لا تتأسّفي، سأقتل ذلك الحقير، لن أرحمه، لقد وثقت به، حتى أني أوصيته بك، كمن يترك الغزال عند الذئاب، ما أغباني.

- دعك من هذا، إن كنت تحبّني تخلّى عن الموضوع.

سكتت لثانية:

- ماذا لو لم يكن هو الفاعل؟ لربّما تظلمه.

- لم هرب، وهو لا يحبّ علاقتنا أبدا، طلبت منه ألا يتدخّل، لا أفهم كيف خرج عن طوعي؟ عقلي سينفجر.

- بحق العشرة التي بينكما دعه يذهب، إذا كان الفاعل أسامحه، لا تقتله بسببي.

- حسنا أنت تسامحينه لكن أنا لا، ماذا لو متّ؟ لا أريد حتى التفكير في هذا، سأقتله.

ثم التفت إلي:

- ربّما عليك تشجيعي على قتل الوغد، ألم تفكّري في إمكانية تواجد يوغورتا معك أو أحدا من عائلتك وقت الحادث؟

- فكّرت، أعلم، لكنهم لم يكونوا، كنت وحدي وأنا حيّة، لن أتحمّل موت شخص آخر بسببي، ولن أحتمل فكرة معرفتي بأنك قتلت شخصا آخر.

فقال وكأنه يترجاني:

- وماذا تريدينني أن أفعل؟

- أخبرتك، سامحه.

- هذا مستحيل.

ليعود ويجلس بقربي، أمسك بيدي، قال:

- أي جحيم كنت سأبقى فيه بدون أسيرم، سأتبعك حيثما تذهبين، لو هلكت أهلك معك.

- لا أحد يموت من أجل آخر، مات والدي وعشت ماتت أمّك واستمررت.

- ليس الأمر نفسه، قتلتني وفاة أمي ومعاملة والدي، لكنك أعدتني ولن أدع هذا الجسد يلقى بالجحيم الذي عاش فيه طويلا بعدما وجدك، أتفهمين ما أقوله؟ أريدك أن تتأكدي من ذلك، وأي وغد يصل إليك كأنه يقتل أمي وحياتي ثانية، وهذا ما لن أسمح به.

- بمعنى اخترت أن تعذّب ضميري وأنا لم أعد قادرة على تحمل المزيد.

- لا تتعبي نفسك من أجلي، لا أستحق.

- إذن افعل ما أريده ولو لمرّة.

- ليس في هذا، المرّة المقبلة سأفعل أي شيء تطلبينه.

انسحب لبعض الوقت حتى يطمئن عليّ باقي أفراد العائلة. لم أشعر بنفسي إلى وغفوت وسط ذلك الضجيج الذي أشعرني بالأمن. بقيت نائمة لمدّة ساعة حسب ما قالته عليا عندما استفقت.

سألتها:

- أين خليل؟

- غادر قبل قليل، قال أنه لن يطول غيابه.

كانتا قد أحضرتا ثيابا جديدة وسيارة أجرة لنقلي إلى البيت. كانت دهشتهما كبيرة عندما قلت:

- سألحق بخليل، ساعداني على تغيير ثيابي بسرعة.

سألتني أمي:

- لكن لماذا؟

- سأحكي لك فيما بعد، لا تقلقي ترافقني عليا وتهتم بي.

لحسن حظّنا أنه كان يجري مكالمة في سيارته قبل أن نعلم سائق الأجرة بملاحقته. ذهب شكي مباشرة إلى مقر واحد، وهو أحد مستودعاته التي يصفي فيها الحسابات، ولم يخب ظني. لم أسمح لعليا بأن ترافقني بل أجبرتها أن تظل مع السائق حتى أضمن ألا يصيبها أي مكروه.

لمحني خليل عندما استدار ليتحقق من الضوضاء التي صدرت عن حراسه عندما علموا بوجودي، عاد أدراجه في غضب، وهو يسأل:

- أسيرم، ماذا تفعلين هنا؟

أمسك بي، قال:

- هل جننت؟

شرعت في البكاء:

- إنك من ينوي أن يجنني.

- تعالي سنغادر المكان.

- لا، بل سنظل، كل شيء سيحل أمامي، لن أرحل قبل أن ألتقي بسعيد.

- حتى أنا لم أره بعد.

- نراه مع بعض إذن.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا بين ذراعيه يرفعني عن الأرض. كانت وجهتنا صالة متفرقة عن المستودع، حيث كان رجلين ضخمين مع سعيد الذي ظل جالسا على أحد الكراسي، رمقه خليل بنظرة لو كان لها أثر مادي لشقّته نصفين. وضعني برفق على أريكة قديمة تعبق منها رائحة الدخّان.

دون مقدّمات قال سعيد:

- واش صاحبي، صرنا نتقاتل من أجلها الآن؟

- ابلع لسانك يا وغد، أمنتك عليها لتقتلها بيديك، هذه طعنة لم أتوقعها منك أنت بالذات.

- أنت متأكد أني لست الفاعل، تتمنى ذلك حتى تطمئن عليها فحسب، لتعتقد أنها بخير بعدما تتخلص من عدوّها، تنكر حقيقة أن الكثيرين يرغبون في أذيتك وسيصلون إليها يوما ما.

- لا ليس صحيحا، إنك الوحيد الذي يرغب في التخلّص منها، حتى أنك نصحتني بهذا قبلا ألا تذكر.

- لم أكن الفاعل خليل صدّقني يا أخي، تعلم أني لن أؤذيك بهذه الطريقة، نحن رفاق الطفولة، حميتك وحميت ظهري، ما كنت لأجعلك تخسر من تحب ثانية.

- لقد هربت سعيد، هربت، ألا يعني هذا شيء؟

- علمت أنك تبحث عني وأخبروني أنك غاضب ففهمت، لا يحتاج الأمر ذكاء، وحين تكون غاضبا لا تعطي حتى فرصة للشخص أن يشرح لك.

كادت الدموع تنزل من عيني سعيد وهو يتابع حديثه:

- أنت أخي، ما كنت لأفعل هذا بك، أنت أخي خليل.

- لكنك تكرهها.

- إذا كان ذنبا فهو ذنبي الوحيد، تعلم، بعدما شككت في اقتلني أحسن لي، فقط اعلم أني أحلف بحياة ابنتي الغالية أني لم أرسل من يقتل هذه المرأة ولم أحاول قتلها، أقسم بحياة ابنتي.

- أصدّقك.

رفع خليل رأسه للأعلى ثم أنزله أرضا:

- صدّقتك أوّل ما أنكرت، لقد كنت محقا في مغادرتك بعيدا، فلو وجدتك أمامي لقتلتك لحظتها بالفعل ودون تفكير.

هل ما كنت أسمعه حقيقي؟ نسيت أن خليل يقرأ أعين الناس، فلطالما كشف كذبي وصدقي معه.

أجابه سعيد:

- أعرف ما يمكنك فعله.

- ما كان عليك أن تحلف بحياة نورهان.

- كنت ستحرمها من والدها؟

- اعتقدت أنك كنت ستحرمني من أسيرم.

نظر إلي، بعدها إلى صديقه:

- من يمكن أن يكون؟

- الكثيرون خليل، قمت ببعض البحوث خلال هاته الأيام، يبدو أن أحد رفاقنا من السلك الأعلى بحث عن أخبارها.

- هكذا إذن، يريد أن يضرب تحت الحزام؟ سأريه إذن كيف يكون اللعب الحقيقي.

استغربت مواصلتهما الحديث كأن الأول ما كان سينهي حياته والثاني كأنه لم يظلم صديقه. قال سعيد:

- دعه لي، أنا أهتم بالموضوع خليل، فلنجعله يصل إلى موقف يقرّ به لتتأكد ثم نهتم بأمره جيدا.

- ليس عليك أن تبرهن شيء، سامح أخاك هذا يا سعيد، لقد أخطأ في حقك.

وقف سعيد ليحضنه بينما يقول:

- خيرك لن أنساه ولو قتلتني، ما كنت سأغضب منك، حين أقول أنك أكثر من أخي أعنيه، آلمتني فقط لأنك شككت بإمكانية أذيتي لك.

شعرت بارتياح عندما انتهى الموضوع بسلام، هو لم ينته تماما بما أنه هناك من يرغب في أذيّتي، مع ذلك ارتحت. سرّح خليل سائق سيارة الأجرة، ليتخذ بنفسه مهمة إيصالنا إلى المنزل. تحت أنظار المارّة، وكل من في الحي حملني بين ذراعيه إلى بيتنا، كان سيصبح وضعا غريبا لو كان العم عمران وفاروق بالبيت. كان سيغادر مباشرة بعدما وضعني في فراشي وأوصى أمي أن تعتني بي، فخطر ببالي أنه ربما ندم على علاقتنا فقرر أن يهجرني بعدما دفعته بغير قصد أن يحاول قتل رفيق دربه، أو حتى لتشكيله خطر عليّ.

قبل أن يخرج وضعت حدا للصمت الذي بقينا فيه مدّة الطريق، عندما ناديته، التفت إليّ، ليرمي بوجهي تطلّعات تحمل من الشجن ما يقطع روحي، قلت مطمئنة:

- لا تقلق.

هزّ رأسه، ثم تابعت:

- اتّصل بي.

هزّ رأسه ثانية موافقا، لم أتمالك نفسي فبكيت بينما أواصل:

- ستهجرني خليل؟ تظن أني أخلق لك المشاكل صحيح؟

اقترب مني:

- كيف تفكرين بهذا أسيرم؟ ليتني أستطيع هجرك، إنه الأمر الوحيد الذي لا أملك الشجاعة على فعله، إلا أني خائف عليك، انظري كيف وصلوا إليك وأنا أضع من يحرصك.

- لن يحدث شيء غير مقدّر.

وضعت كفي على خدّه عندما جلس إلى جانبي، ما دفع بأمي وعليا أن تخرجا، أضفت قائلة:

- اذهب إلى بيتك وارتاح، لقد تعبت كثيرا، فقط اتّصل بي وطمئنني عليك مفهوم، أما أنا، إني بخير، ما لا يقتلني يقوّيني، وأنا لم أمت، ما دمت معي هذا هو الأهم.

تنهّد بعدما قبّل جبيني:

- سأجدهم وأجعلهم يدفعون الثمن غاليا حبيبتي. لن يلمسوا شعرة منك ثانية.

وقف عندئذ واستمر قائلا:

- لقد أخبرت عمك عمران بأني أنوي خطبتك، حدّثته وهو يعرف بأمرنا، سامحيني لأني تصرّفت قبل أن آخذ رأيك، فهو لن يتقبل أمر مجيئي إلى بيتكم بغير هذا.

بقيت أبتسم فقط من طريقة حديثه . وهو يواصل:

- وأنا لا أريد إجباره على شيء، إنه رجل نزيه وشريف، لهذا، اعلمي بأني أخبرته وانتهى، يعني يمكنني زيارتك وأنت مريضة، من ثم نحل أمر خطبتنا تلك، طبعا إذا كنت تريدين الارتباط بي بعد.

- أتسألني القبول بالزواج منك؟

حكّ رأسه وصرّح:

- إذا قبلت. أحتاج إليك أسيرم، لا يمكنني الصبر أكثر على هذه الحال، كما يجب أن أحميك.

- لكن لديّ شروط.

تنفسّ بصعوبة:

- ما هي هذه الشروط؟

- أولا عليك أن تعدني بأن تعيد زوجة أبيك إلى بيتها، ثم تخرج ابنها من السجن، هاذان هما شرطاي، وإذا لم تفعل، سامحني، لن أقبل.

- تفضّلين البقاء معي هكذا على أن نتزوّج؟ وبسبب امرأة لا، ليست امرأة بل شيطانة لا تعرفينها حتى وابنها؟

- لا تغضب خليل، أريدك أن ترتاح، فأنت في داخلك تتعذّب، سامح لترتاح، كما أن ابنها أخاك، لا يمكنك أن تكون قاسيا هكذا وأثق بأنك لن تكرهني يوما وتفعل بي نفس الشيء وأنا غريبة.

- لا تقولي مثل هذا الكلام، حبّك ليس حبا لامرأة فحسب لأنسى أو أتمكن من أذيتك، فمهما فعلت بي وقد فعلت الكثير، لن أقوى على الاقتراب منك ونيتي أن أسيء إليك، أنت أغلى ما في وجودي.

اقترب ثانية:

- ولتتأكدي سأسامح من جعلت مني وحشا وابنها الذي كان يأكل من المال الذي عملت من أجله وتُرك أخواتي للجوع بسببه، من أجلك وفقط من أجلك سأعيدها وأخرجه، والآن؟

- الآن تعال.

مددت ذراعي إليه، ليبتسم بندبته تلك، اقترب أكثر فقمت بضمّه رغم الألم الذي شعرت به في أضلعي:

- قبلا واليوم وغدا أنا وأنت واحد، لن يفرّق بيننا إلا الموت.

ابتعد لينظر إلي، عينيه امتلأتا دموعا، وهو يقول:

- تقبلين الارتباط بي والزواج مني؟ لم أتوقّع أنك سترغبين في شيء كهذا، ظننت أنك سترفضين.

ضحكت:

- ألهذا طلبتني؟ والآن أنت نادم؟

- بل أشعر كأني أحلم وسأستيقظ، إذا كان حلما أتمنى ألا أستفيق منه أبدا، أنت النقاء كلّه والسعادة كلّها والحياة بأكملها تريدين أن ترتبطي بشخص مثلي!

12

ثبّتي جناحيك أسيرم، طيري مع الطائرين وانسي البؤس والحزن وارمي الحزام. رقصت بما يكفي مع الشؤم وعشت مع الملامة. اعرفي منذ اليوم السلام، فلا أحد أدرى، لربّما عادت إليك الغيمة السوداء، طيري مع الطيور وحلّقي مثل اليمامة، أنت من جننت بعدما كنت عاقلة، وعقل المجنون خليل من أجلك، اسعدي وطيري، فلا أحد أدرى بالغد.

احتفلنا في شهر يونيو بعيد ميلاد يوغورتا، في الوقاع أقمنا حفلتين، واحدة مع خليل على يخته، بينما نلتقط صورا تذكارية حجزت مكانها مسبقا في بيت خليل المحتل من طرف صورنا أنا ويوغورتا. لاحقا عزمت رفاق يوغورتا إلى البيت لنرقص سويا على أنغام موسيقى طفولية، لم يسلم مني فاروق الذي أدخلته بالقوة إلى وسط القاعة، قبل أن أنسى، تحصّل فاروق على نتائج جيدة جدا. كانت التورتة أكثر ما انتظره الأطفال في الواقع.

انتشر توازن وتناغم مثير للاهتمام خلال ذلك الشهر، كأننا أخيرا قبّلنا السلام. وافقت عمّاتي على بيع بيتنا القديم وأوّل ما فعله عند استلام حصّتنا، اشترى لي خليل شقة في الأبيار بالقرب من بيته بعد إصرار منه، كتبته باسمي وباسم يوغورتا. رفض العم عمران وباقي العائلة الانتقال إليه فألزمت على اتباعهم، فهو يرفض أن أخرج من بيته إلا عروسة أزف لبيت خليل، لذلك سيظل فارغا من السكان ضمانة للمستقبل المجهول.

ألحّ علي خليل قليلا حول موضوع تقدّمه لي، في الأخير احترم رغبتي في انتظار مرور سنة على وفاة أبي وجميلة، أي أخرناه إلى شهر أيلول.

مناسبة سعيدة طرقت بابنا أيضا، فقد تمت خطبة عليا وعماد، رغم مخاوف أمي العديدة ومنها الاختلاف الطبقي بينهما، طمأنتها ببساطة عائلة عماد، وحقا أبدت الخالة نوال والعم عثمان قدرا كبيرا من التفهم والطيبة. اتّفقا على الزّواج خلال الصيف، ربما منتصف شهر أغسطس، لأنه مسافر إلى إنجلترا للعمل. والديها تألّما مع ذلك وافقا تحت إصرار عليا. تحصّلت على شهادة الباكالوريا بمعدل جيّد، وبالتالي ستكمل دراستها في الخارج بعد زواجها من عماد.

ليس هناك ما قد يصف شعوري، غير أني كنت سعيدة. وصلت إلى مرحلة تقبّلت فيها ماضيّ المؤلم، بعدما عوّضتني الحياة بعائلة ضمّتنا أنا وأخي، وحب رجل مثل خليل، رغم ما أحمله من كره لكابوني والعمل الذي يقوم به.

أقمنا ذلك العرس كما خطّطنا له، ورحلت عليا بعيدا نودّعها بدموع تتوعّد بالوحدة، لم تتزوّج فقط. تنازلت واتصلت بكريمة صديقتي لأوصيها بالاعتناء بها، كانت سعادتها لا توصف. ترجتني أن أصفح عنها، سامحتها طبعا وكم بكينا على الهاتف.

خلّفت عليا فراغا كبيرا في البيت، فهي كثيرة الحركة والمزاح، ما عدت أجد لمن أروي قصصي الجنونية. اشتقت إليها بعد يومين من مغادرتها، واحتجت إليها بعد شهر فقط، فهي وحدها من يعرف كيف تساعدني وترفع آمالي.

في شهر أيلول التقينا أنا وخليل في يخته، نتبادل أطراف الحديث حول موضوع خطبتنا، جالسين على حافة اليخت حين ورد خليل اتصال من سعيد ليطلب منه العودة إلى المرفأ فهو يريده في أمر مهم، كانت ثاني مرّة يفعلها.

سأله خليل عندما دخل علينا:

- ماذا هناك؟

أجابه سعيد وهو ينظر إليّ بطريقته المعتادة:

- أحدهم سلّم صور المكسيك للشرطة، مع دييغو وفرنانديز.

واصل بينما يتطلّع إلي بنظرات شك واتهام:

- إنهم يبحثون عنك، خليل، عليك أن تختفي لبعض الوقت حتى نحلّ الأمر، لقد كبر الموضوع.

رغم غضب خليل ظل هادئا وهو يقول:

- من قد يفعل هذا؟ من يدخل بيتي دون علمي؟

كنت خائفة عليه جدا، لكن صديقه فاجأني حين ردّ عليه وهو يحدّق بي:

- ربّما هذا الشخص دخل بعلمك.

التفت إلي خليل متفاجئ:

- أسيرم!

ثم نظر إلى صديقه:

- أنت مجنون أم ماذا؟

- إنها الوحيدة التي تدخل بيتك مثلما تريد، تعلم أنه من الصعب جدا على أي أحد أن يبحث في منزلك، أو حتى يقترب من أغراضك الخاصة.

استدار خليل إليّ:

- لست أنت الفاعلة أسيرم، صحيح؟

اندهشت من سؤاله:

- وتسألني؟ بعد كلّ ما يوجد بيننا تسألني! تشكّ بي؟

حكّ رأسه باضطراب:

- أسيرم قولي فقط أنك لست الفاعلة وسأصدّقك، أنكري فحسب.

- لن أردّ عليك، افعل ما شئت، اقتلني أو ارمني في البحر، لكن إذا تركتني أغادر حيّة فلا تبحث عنّي مجددا، اختفي وانفذ بنفسك، أو تخلّص من المشكلة، لكن بعدها لا تسأل حتى عنّي لأنك قتلت كلّ شيء الآن.

شرعت في البكاء بينما أضع اصبعي على صدري:

- لقد قتلتني.

دنا مني وناداني بلهجة مترجية:

- أسيرم.

- إياك أن تلمسني. صدّقه إذا أردت، فأنا لن أجيبك.

- حسنا، حتى لو فعلت أسامحك، أما هذا فلا، لن أسمح لك بالابتعاد عنّي.

- وهل ستجبرني؟

تطلّع بصديقه، وفي لحظة ضعف لم يتمالك نفسه، رمقني بعينيه المغرورقين بالدموع:

- أترجّاك ألا تفعلي بي هذا، أنا الآن بحاجتك.

- إذا كنت تحبّني حقا، اقتلني أو دعني أرحل.

سقطت نظرات خليل أرضا بينما يخلي لي الطريق مشيرا لي إلى الباب. لم تؤلمني تلميحات صديقه بقدر ما عانيت من تصديقه. لم يكن في البيت من يحمل معي همّي فزيادة على ذلك هو في مشكلة قد تدخله السجن. وقعت في حيرة بين الوقوف إلى جانبه رغم اتهاماته والتنازل عن كرامتي، أو التصدّي لآلام صدري والوقوف مع نفسي لمرّة، فهو لم يصدّق أني بريئة. جعلت أمي تردّ على اتصالاته الكثيرة فقط لتستفسر عن موضوعه، فيما يبدو حلّه على الفور، كما وجد الفاعل، لابد أنه دفع رشوة لأحدهم كالعادة وقتل آخر أيضا، وأمور كثيرة تناسيتها من أجله، فقط لأني أحبه، بعدها يتهمني ببساطة أنني خنته.

بقيت طريحة الفراش، لمدّة ثلاثة أيام في استسلام تام للبكاء، حتى أني امتنعت عن الأكل والنهوض، ساءت حالتي لأبعد الحدود. شعرت كأني سُلخت من الحياة. استعسرت الحياة من دونه، ولأنه ملأ ثغراتها الباهتة والضبابية، حتى صرت صفرا بعده.

كان الحذر تعريفا لخليل فيما يخصّني، ومجازفا لأبعد الحدود عندما يتعلّق الأمر بحبنا. في الأخير لم يسيطر لمدة أطول على مشاعره، ما دفعه لزيارتنا طالبا بإلحاح مقابلتي. اتصالاته خلال فراقنا لم تقابل إلا بالرفض، وعدم الرّد، تركته معلقا بين السماء والأرض، تماما كما فعل بي.

ترجيت في إلحاح العم عمران بأن يطرده، ولكنّه تجاهل العم عمران وراح يصرخ باسمي دون تفكير في الحرج الذي تسببه لي زيادة عن ألمي.

جاءني صوته مبحوح من الرواق، ربّما خلف الباب بمتر واحد:

- أسيرم سامحيني، معك حق، ما كان يجب أن أسألك، ها أنا أعتذر ماذا تريدين بعد؟

صرخت بصوت عال كظمه بكائي المستمر:

- هلا غادرت خليل، لست مستعدة. ربي يعيّشك روح.

أنا أكذب، صوتك وحده أجج النار في رأسي.

- ماذا عن الوعد الذي بيننا، حلفت ألا أهجرك ما حييت.

كان يتنفّس بصعوبة، سمعته يحارب الهواء:

- بما أنك تصرين عللى رأيك ، فاسمعيني إلى ما سأقول، لك أن تختاري إما تكونين معي أو لا أكون أبدا، افهمي جيّدا هذا الكلام وضعيه حلقة في أذنك، لن أزيد يوما آخر أتعذّب فيه مثل الذين مضوا، فإما تكوني معي أو لا أكون أبدا.

صدمتني تصريحاته. خطوات سريعة تبرح المكان مخلفة صوت الصمت يهزّ جسدي كزلزال قوي، كأن حية لسعت قلبي، فلم أجد نفسي إلا واقفة على رجلاي دفعة واحدة دون تفكير. كدت أسقط على السلالم عندما لحقت به بثيابي المنزلية، لم أتح حتى لأمي فرصة ارتداء خمارها حتى ترافقني، كنت على عجلة من أمري، فإن فهمت قصد خليل، لم يكن ينوي خيرا أبدا. كانت سيّارته لاتزال في الحي مما يعني أنه غادر سيرا. أبقاني الوضع بلا صوت ولا عقل، كدت أغرق في دموعي عندما لمحت سحنة جسمه الضخم من وراء ضباب في عيني يحجب عني الرؤية. كان يقطع الطريق، فخمنت المكان الذي ينوي قصده. أضافت الأفكار السوداوية مساحة كبيرة من الفزع إلى قلبي، ضائعة كنت لا أرى أمامي، حتى أوشكت أن ترطمني سيارة وأنا أعبر إلى البحر من الجهة المليئة بالجلامد الكبيرة. كلّما عجّلت خطواتي بدا كأنه يبتعد أكثر، حتى خيّل لي أن ريحا عجيبا يحمله، كأن أقدامه لا تلامس الأرض حتى. أناديه مرارا فلا يسمع.

وبشق الأنفس وبعد الألم الكبير الذي شعرت به في قدماي وكافة أجزاء جسدي المرهق، اقتربت منه إلى أن بقيت بيننا ثلاثة أمتار تقريبا.

- خليل، استدر، راني جيت خليل.

وإذا به يلتفت كما لو لم يصدّق أذنه وعينيه:

- تبعتني؟ لماذا؟ ألم تأمريني بالرحيل؟ كل همك أن تتخلصي منّي، سأخلّصك.

وقفت والدمع ينزل على خداي:

- ليس هكذا.

- كل ما يهمك ألا تريني بعد الآن، لذا لا تتدخّلي في الطريقة.

- لأنك تريد تعذيبي صحيح؟ تريدني أن أشعر بالذنب وأبقى أتألم طوال حياتي، أنت لا تفكّر بي، بل كيف تنكد معيشتي.

- تعتقدين ذلك؟

- مثلما اعتقدت أني خدعتك.

- لديّ أسبابي، ماذا عنك؟ ما هي الأسباب التي تجعلك تشكين بأني أرغب في تأزيم حياتك؟ آه، ردّي عليّ، خشيت على نفسك بعد موتي ولم تفكّري بي ماذا أفعل بحياتي بعدما فقدتك؟ هكذا هو حبّك أسيرم؟ هكذا عزيزتي؟

انفجرت باكية:

- أنت غبي أتعلم هذا؟

- أعلم، أعلم هذا عزيزتي، غبي لأني سمحت لك بأن تدخلي قلبي وتغيّري حياتي وتنيري طريقي، كان عليّ أن أردعك منذ البداية.

- تحاول دائما جعلي أبدو السيئة بيننا.

- لا، أنا السيء.

- اصمت لا تتحدّث، تقول أني أنانية، ألا تعي كم أحرقني شكك بي؟ تحسب نفسك ضحية في هذه العلاقة وفي الواقع أنا التي تتعذّب، دائما أفعل ما تريده، وقبل حتى أن أقدم على شيء أسأل نفسي إن كان يرضيك، ربطت كل حياتي بك، وأنت تقول..

تناقص الهواء من صدري حتى سعلت.

اقترب مني وجذبني كما يفعل عادة، ويضمّني بشدة:

- ماذا أفعل؟ رفضت مسامحتي.

ربّت على ظهري:

- توقّفي عن النحيب، سأفعل ما تريدينه، سأعيش وحدي، سأتحمّل عذابك وأموت كلّ يوم وأنت بعيدة، لكن كوني أنت بخير ولا تنفعلي هكذا.

طوّقته بكلتا ذراعي:

- أنت جبان، لم تدافع حتى عن حبّنا، انصرفت عنه بسهولة.

وضع وجهي بين كفيه:

- لماذا ترفضين أن تستوعبي؟ هل عليّ شرح كل شيء بالتفصيل؟ لو كان بيدي لأدخلتك إلى صدري حتى تسامي روحي، وتعرفي مكانك عندي وماذا أرى فيك.

- لقد جرحتني، كيف تتوقع مني تقبّل شكوكك؟ توقعت بأني سأبيعك بعد كل ما عشناه معا.

- اعذريني على الأقل. ولو كنت أنت من باعني كنت سامحتك، لهذه الدرجة أحبك أسيرم.

وضع اصبعه تحت ذقني:

- أرجعيني إلى الحياة أسيرم.

- ما قصدك؟

- اقبلي بي ثانية، ولننسى ما حدث، كلّ ما حدث، فلنفتح صفحة جديدة.

- لم أطردك خليل، يحق لي أن أغضب بين الحين والآخر، عليك أن تعدني أولا ألا تعرّض حياتك للخطر بسببي، وألا تهددني هكذا كلّما وقعت مشكلة بيننا.

- لن تقع أية مشكلة، ليس من جهتي على الأقل. ولو أدخلتني السجن بيديك سأسمح لك وأعتبرها زلة من زلاتك، وبما أنني ملكك فلك أن تتصرف بي كما يحلو لك.

- ماذا تقول خليل؟ لم قد أدخلك السجن؟ أم أنك تنسيني الوعد، عدني بألا تقدم على تصرّف متهور كهذا بعد الآن.

- أعدك بأني سأحاول ألا أموت كلّ مرّة تبتعدين فيها، كما أعدك بأني لن أدعك تبتعدين حتى لا أضطر للمحاولة.

ضحك وحزن طفيف يشق طريقا له في عينيه. قلت:

- هذا ليس مضحكا.

- أدرك، وأنا أضحك من نفسي.

سألته بينما أمسح دموعي، ونمشي جنبا إلى جنب:

_ولماذا تضحك من نفسك؟

وضع ذراعه حول خصري ونحن نسير نحو تلك الصخور الكبيرة، المطلة على البحر. قال:

- أضحك من وضعي، أقوى الناس والعصابات تهابني وأنا أهابك أنت، مخلوق يبدو ضعيفا لكن قواه عليّ لا تنتهي. أضحك، لأني أتخيّلهم كلّهم ينظرون إليّ، ولا أعبأ لهم، فليرى العالم بأسره أني بين يديك ضعيف، كالرضيع بين يدي أمّه. أضحك لأن أنا القديم ما كان سيصدّق بأن امرأة لا تتوقّف عن التذمّر والطلب والبكاء توقعني بطولي على ركبتي.

- أترى، حتى كلامك الجميل مبني على مرّ الندم.

- طبعا أنا نادم، كلّ الندم لن أنكر، لكنّي لا أقول بأني أكره ذلك، هذا الذي بين يديك يعشق حبّه لك، وأنت تتلذذين بتعذيبه بين الحين والآخر، كأنك تثأرين لم فعلته بك، أنت لا تثأرين صحيح؟

كنا قد بلغنا حينئذ أعلى صخرة والموج يضرب ضرباته القويّة، اقشعر بدني لتفكيري أنها كانت ستلتهم خليل. وضع معطفه أرضا. جلست عليه ليحذو حذوي. ناداني باسمي فقلت:

- ماذا؟

- قولي أحبك.

- كي تزيد وسامتك؟

- لا حقا، كي أسمعها منك، فقولك أنك تحبينني لن تزيدني إلا حياةً.

- لن أقولها.

- دعينا نعجّل زواجنا، لم أعد أصبر على فراقنا كل ليلة، أحتاجك إلى جانبي في كل وقت أسيرم.

- تعال في المساء لتطلبني من العم عمران وأمي، ثم نتحدّث في الباقي.

- لا تمزحين صحيح؟ هذا المساء. دعينا نذهب إذن، عليّ تحضير نفسي، سأبتاع الورد والحلوى لأخطب حبيبتي أخيرا.

- تقدّم مثلما أنت خليل، أنت الهدايا كلّها، تعال مثلما أنت، لا تغيّر حتى ملابسك، رائحتك طيبة وعيناك جميلتان وما دمت تملك تلك الندبة الصغيرة على خدّك لا أحتاج إلى شيء آخر منك، أتفهمني.

- لم لا نعود مباشرة إلى بيتكم. فلنعقد خطبتنا اليوم ونتزوّج بعد شهر، قبل أن تغيّري رأيك.

ضحكت من تعليقه:

- مثلما تريد.

- بعد كل ما عشته من مآسي أخيرا وصلت آسي.

- أصبحت شاعرا.

- صرت أشعر بسببك فكيف لا أصبح شاعرا.

- أحبّك خليل.

- وأنا.

اتصال هاتفي لإعلام العائلة بزيارتنا كان يعد أمرا ضروريا للغاية. لم يكن في البيت غير أمي وزوجها، في غياب نجية ويوغورتا الذي بدأ يدرس في الصف الأول مما يعني اليوم بأكمله. كانت دهشة عائلتي كبيرة بالقرار المباغت، فسبحان مغير الأحوال، من دمار شامل إلى خطبة. في أول دقيقتين كان الوضع غير مريح، يمتزج بابتسامات خاوية، ولكن سرعان ما تداركنا الموقف، عندما أخذتني أمي للمطبخ حتى نحضّر القهوة مع العصير. كانت فرصة مثالية لتبادل حديث بسيط حول الموضوع بين أم وابنتها، مع إعطائي بعض النصائح الفورية لنمضي الجلسة بسلاسة.

كنا خليل وأنا مقابلان بعضنا في الصالون، بينما أسئلة عمي عمران تنهال عليه واحدة تلو الأخرى، عن مستقبلنا خصوصا، لأن خليل عاش طويلا خارج الوطن، أراد أن يعرف ما نيته بهذا الصدد. شعرت كأن هذا السؤال سرّب له خلسة من أمي التي تجلس إلى جانبه، تراقبني بشيء من الألم ومع ذلك تبتسم لي عندما تقع عيني عليها.

التفت إليّ العم عمران فجأة وسط حديثهم:

- هذا الرجل ينوي الزواج منك. كما سمعت منذ قيلي يقول أنه سيعيش حيث تقررين، وأنا أقول، إذا لم توافقي على العيش هنا لن أقبل بهذا الزواج، فقد خسرنا أنا وأمك عليا، لن نقبل أن نعطي أخرى لترحل بعيدا، الآن القرار يعود إليك.

- القرار قرارك عمي عمران، إذا رأيت أن هذا هو المناسب فليكن، حتى إذا رأيت أن خليل لا يناسبني فلا بأس.

ليضحك العم عمران متيقنا من كذب تصريحاتي:

- إذن اتّفقنا على بركة الله. أعطيك يا ولدي الفتاة، شرط أن تعتني بها طبعا، أدرك أنك تحبّها وكل شيء، لكن دعني أحذّرك، العيش مع إحدى نساء هاته العائلة ليس سهلا، إنهن صعبات.

قلت ممازحة:

- لمن تقول هذا؟ إنه يدرك تماما الأمر.

ردّ خليل بابتسامة:

- لا تقلق عليها، سأضعها في عيني، سوف تبقى كل شيء بالنسبة لي حتى لو صعّبت الحياة عليّ..

سألته:

- وأخي خليل؟ هل ستعتني به أيضا؟

- وكأن هذا فيه نقاش، يوغورتا ابني، ليس أخ زوجتي.

قاطعنا العم عمران:

- إذن على بركة الله، لنقرأ الفاتحة.

أمي سعيدة، تنظر إلي بضحكة عينيها. اشتقت يومها لمقاسمة أبي فرحتي، هو وجميلة، عندها تفطّنت أنه لو كان والدي حيّ لما التقيت بخليل، وحتى لو التقيت به ما كان ليدعني أرتبط به. فتطلّعت بعيني خليل، كنت سأقايض عدم لقائي به مع عودة والدي لكني لو التقيت به وأبي حي ما كنت لأخسر خليل مهما حدث.

حسب العادة سمحا لنا بالبقاء وحدنا، كأن ذلك ضروري حقا في حالتنا. وقف خليل من مكانه وجلس إلى جانبي، ضربني بكتفه وسألني:

- ما بك؟

- ليت أبي كان موجودا.

- هكذا قدّرت الأمور، كما أنه موجود عزيزتي، أنت هنا وهو بك موجود، لقد ربّاك بأفضل طريقة وجعل منك امرأة تعرف الصواب من الخطأ، إلى أن التقيت بي، سيقتلك لو يعلم أنك ستتزوجين بشخص مثلي.

- تقصد من الجيّد أنه مات؟

- بالطبع لا! ماذا تقولين؟

- اهدأ أنا فقط أمازحك.

- أعلم أن لا شيء في الحياة سيعوّضك عن أبيك ولا شيء سينسيك ما عشته ورأيته، لذا لو بمقدوري، لكنت أرجعتك إلى حضن أبيك وما رأت هاتين العينين الكبيرتين ما شاهدت، مع أنك أجمل ما حدث في حياتي.

- إنك تنسيني خليل، وجودك إلى جانبي يعوّضني، بين أحضانك أشعر بأني بين أحضان أبي أيضا، كما أنه لو عرفك حق المعرفة لأحبّك وفهمك، فأبي شخص واع.

ابتسم:

- صدّقيني، ليس لحدّ أن يسمح لك بالارتباط بي.

- إذن ربّما عليّ إعادة التفكير في الموضوع، فأنا لا أريد مخالفة رأي أبي.

- رّبما عليك أن تفعلي.

- حسنا، انسى كلّ شيء.

- هدّدي بما أن الله أعطاك القدرة على ذلك.

- دعني أتدلل عليك يا شرير.

_ليت هذا الشهر يمضي بسرعة، حتى أريك الدلال على حق، أنت ويوغورتا ستعلمانني أن أعيش مع العائلة ثانية، أو لأول مرّة ربّما.

- وأبنائنا، نسيتهم.

- كم ابنا تريدين يا ترى؟

- بنتان، أحب البنات، ماذا عنك؟

- إذا كنت تحبّين الفتيات فأنا مثلك، فقط لا يجب أن تشبهانك.

- لم؟

وقرصته في ذراعه، كأن ذلك سيؤلمه حقا.

- أصلا أنت تعذّبينني فما بالك باثنتين أخريين مثلك، لا أريد أن أحبّهما بالقدر الذي أحبّك به، سأموت من الحب.

- يا غبي، عند ولادة أبنائنا ستنسى حتى وجودي.

- سميني غبيا مثلما تشائين، لكنّي لن أحب أي شخص مثلما أحبّك.

- ربّما أنا أفعل.

- مثلما تريدين، فيما يخص قلبي فهو ملكي وأعرفه، وقلبك ذاك افعلي به ما شئت فقط دعي لي ركنا ولو صغيرا مظلما في آخر الرواق.

- أمزح طبعا، لا أعتقد أني سأحب شخصا أكثر منك ويوغورتا.

- لا تسرقي أحاسيسي.

لأني كررت كلامه بصيغة أخرى.

- أسرق منك ما أريد، قلت أنك ملكي، إذن أنا لا أتعدى على ممتلكات الغير، لازلت في حيّز حدودي.

- صدقت.

□

13

لم يكن في يدي الكثير من الوقت، أجري من مكان إلى مكان، آتي بهذه وتلك، أعتني بأخي ونجية، التي أصبحت ملتصقة بي كثيرا، لا أدري إن كان السبب رحيل عليا أم لأني أيضا سأنتقل. حاولت قدر المستطاع مسايرتها فهي فتاة صغيرة، تركتها تتبعني وتبحث بين أشيائي، رغم أني أعيد ترتيبها دائما، وهو عمل إضافي. كنت سعيدة بحيث أستطيع تحمّل تفاهات الناس جميعا ونظرات الفتيات الكارهة، طبعا تساءلن كيف لفتاة مثلي أن تسرق الأعزب الأكثر رغبة في حيّهم!

خليل يزورني دائما بالبيت بما أنه لا يراني طوال اليوم لكثرة انشغالاتي، فالوقت قصير والأمور التي أحتاجها كثيرة، حتى لو لم نحتاج الكثير نحن الفتيات يمكننا تبذير المال من أجل التفاهات، ملأت البيت بالأغراض فأخذتها إلى بيتنا الجديد أنا وأخي، حتى لا أزعج أمي والعم عمران أكثر، أصلا البيت ضيّق جدا مثلما سبق وذكرت.

ومن بين الأيام التي جاء فيها ليزورني وقد فضل أسبوعين على العرس. قررت أخذه إلى مكان شهد على قصتنا تتطور تدريجيا. أمسكت بيده لأسحبه ورائي عبر ذلك الرّواق الضيق، بينما يسألني إلى أين آخذه.

فأجبت:

- لا تخف، لن أختطفك.

ليضحك:

- أرجوك اختطفيني.

- مضحك، تعال معي واصمت.

- أمرك.

دخلنا إلى غرفتي، حيث كان يوغورتا ونجية نائمين، فقد أتاني بعد موعد العشاء:

- إلى أين أسيرم؟

عبرنا تلك الطريق الصغيرة التي خلّفتها مكانة عليا، لنخرج إلى الشرفة:

- هذه أول مرّة يشهد المكان لقاءنا.

وضع كفّه خلف رأسي وقبّل جبيني:

- هنا كنت تبعثين لي سعادتي.

- لكنك كنت تكرهني لا تكذب، في صغرك كنت تكرهني.

- يا إلهي كم كنت أغار منك.

جلس على كرسيّ، ثم جذبني وأجلسني على الآخر الذي يقابله:

- كنت تمثّلين عكس ما أنا عليه.

- لا، كانت فقط ملابسنا هي المختلفة عن بعضها.

- صلبوا قلبي أسيرم، لم تكن الملابس وحدها التي تخالفنا فيها. لاحقا مهما صرت أملك من ملابس وكل شيء بقيت فاقد الحياة، لم أعد أشعر

بالآخرين، كأني آلة تمشي وتعمل، لا عزيز ولا غالي يرق إليه قلبي، مثلما أكون خلقت لأدمرّ فقط.

- أنا معك الآن، وقد صار قلبك رقيقا، يحملني ويحميني، أليس صحيحا؟

- طبعا. هل تسامحيني أسيرم؟

اندهشت لطلبه المغفرة:

- علام أسامحك؟

- سامحيني فقط، على كل شيء جعلتك تعيشينه لم يعجبك، على كل مرّة دمعت عينيك فيها بسببي. لا أدري، إني أشعر بأمر غريب، كأن كل هذا ليس حقيقيا، أخشى أن أستفيق غدا لأجد أنك من صنع مخيّلتي.

امتلأت عينيه دموعا:

- لأجد نفسي لازلت مختبئا على ذلك السطح.

وتنزل دمعة من عينيه، ثم اقتربت منه وحضنته إلي، بينما يواصل بصوت يجتهد ليظل ثابتا:

- خائفا من أن يجدني أبي ويعيدني إلى البيت، أخاف أن أستيقظ ولا تكوني قد عدت، وما عشناه غزلته مخيّلتي فقط.

ثم أمسك بيدي وضغط عليها:

- لذا أريدك أن تسامحيني لو استيقظت غدا ولم تكوني بحياتي.

- لم تقول هذا خليل؟

- لأن الأشخاص مثلي لا تتغير أحوالهم ببساطة، من يعيش في البؤس لا تضحك له الدنيا دون سبب، لذا، قولي أنك تسامحينني.

- لم عليّ أن أسامحك إذا كان حلما؟ إنك تقول كلاما غير معقول، استمتع بما لدينا الآن، فهذه أجمل أوقات عشناها وسنعيشها، فقط استمتع بها حبيبي، وانسى.

- لهذا أنا خائف، أخيرا أشعر بالسعادة.

ليمسح وجهه ويبتسم:

- لا تسمعي كلامي، في بعض الأحيان لا أعرف كيف أتصرّف إلى جانبك، عادة اكتسبتها منك.

- أحب حين تكون على سجيتك معي، هذا هو محور العلاقات، أن تكون أنت دون أن تخاف والآخر يتقبّلك، وأنا أعشق كلّ جوانبك.

- كلّها؟

- دون استثناء.

- لن تغيّري شيئا بي؟

- ربّما أغيّر عملك، فقط عملك.

- رأيت؟ هناك أمور فيّ لا تعجبك.

- لكن عملك ليس جزءا من شخصيتك.

- إنه جزء كبير مني أسيرم، إنه العمل الوحيد الذي أجدته منذ سن السادسة عشر.

- ألم تفكّر في الشباب الذي يضيع بسبب ما تفعله؟ لا بل العائلات، أمّهات تبكين وأنا أدرك كم تقدّس الأم، أشخاص يقتلون آخرون، يسرقون ويعتدون على الناس، أنا شخصيا تعرّضت حين وصلت للسرقة

- حقا! هل تذكرين وجهه؟

- لا، و ليست هذه هي المشكلة، بل ما تبيعهم، يجعلهم يفعلون أمورا كثيرة دون وعي.

- أسيرم، هل تعتقدين أن المخدّرات هي التي تجعلهم هكذا؟ أنت مخطئة، إنها نفسهم، داخلهم سيء، فهي مفعولها الوحيد أنها تظهر الناس على حقيقتهم، بعضهم يتحوّل إلى شخص ودود وآخر إلى وحش، مثلما هو بالداخل حقا.

- لكن يمكن تحاشي الكثير لولاها، العائلات التي تدمّر مثلا.

- اسمعي، لا أحد ضربهم على يدهم، هل أجعلهم يتناولونها بالغصب؟ لا، إنهم من يبحثون عنها، ها أنا حياتي كلّها أعمل فيها ولا أتناولها، إنها متوفّرة لدي كالماء ولا أقربها.

- وهل تستغلّ من شخصيته ضعيفة؟

- إلى أين تريدين أن تصلي أسيرم؟ تعلمين، ربّما عليّ الذّهاب الآن، لأني أرى أمورا قادمة لن تعجبني، لا أريدك أن تغضبي مني.

- لست غاضبة ابقى، لن أغضب منك، إنّها فقط أسئلة عالقة في ذهني وأرغب في معرفة رأيك فيها.

- اسألي ما تريدينه فقط لا تنظري إليّ بالطريقة التي كنت تنظرين إليّ بها في البداية، لن أحتمل بعد.

- لا يمكنني النظر إليك إلا بكل حبّ.

داعبت شعره برقة تامة:

- عليّ أن أحبّك.

ابتسمت له ثم سألته:

- أخبرني إذن كابوني، لم كابوني؟

- لسبب بسيط هو أنه كان رجل عصابات إيطالي مشهور بأمريكا، لم أجد نفسي أشبهه يوما بل كنت أكثر تأثيرا بلوتشيانو (الثائر) جدد نظام المافيا مثلي تماما، جعلت الكل يدور حول نفسه ولا يدركوا من أين آتي أو أذهب، نهضت بالنظام إلى أعلى مستوياته، لذا أحب اعتبار نفسي، ثائر الجزائر.

- حتى المافيا لديها ثقافة وتاريخ.

- لا تغلطي.. إنّها الثقافة و التاريخ بحدّ ذاته، أتعلمين لم سمّيت المافيا بالمافيا؟

هززت رأسي مجيبة سلبا، ليستمر:

Morte Alla francia Italia Anelia

و قبل أن يكمل قلت:

- موت الفرنسيين هو..

ليكمل ما لم أجد ترجمته:

- هو صرخة إيطالية، موت الفرنسيين هو صرخة إيطالية، كانت منظمة لمكافحة الفرنسيين بعد غزوها لأراضي صقلية في القرن الثالث عشر.

- لم تغيّر مسعى المنظومة؟ كان للدفاع عن الناس ثم للدفع بالناس للهلاك.

- كل شيء يتغيّر في الحياة، حتى المساعي.

تنهّد:

- دعينا من هذا الموضوع، أهرب منه إليك وأنت تأتين به إليّ.

- مثلما تريد.

تطلّعت بالسطح المقابل ثم إليه:

- سأشتاق لكلّ هذا، سأشتاق إليك هناك، تراقبني وتكلّمني دون علمي حتى، يحزنني عندما أتذكر أني سأترك هذه الشرفة، فماذا ستفعل حين تذهب هناك ولا تجدني.

- من أخبرك أني سأعود لذلك الخراب بعدما آخذك إلى بيتي؟ لم قد أبتعد عنك وأذهب هناك؟

- لا أدري، أشعر كأنه مكانك المفضّل.

- كان مخبئي، ثم ملاذي، الأول من أبي والثاني من أجلك، تحلّين كلّ ما تمرّين بقربه، حتى ذلك السطح وأنت بعيدة عنه جعلته جميلا.

- لا تخبرني عادة أني جميلة خليل هل تفعل هذا عمدا؟ فأنا أعتبر نفسي امرأة جميلة نوعا ما، لكنك لا تخبرني بهذا إلا نادرا.

رد ضاحكا:

- يا عزيزتي، طبعا أجدك جميلة، لكن هناك الجميلات في كلّ مكان، لذا جمالك هو آخر ما أحبّه فيك لأصدقك القول.

فتحت عيني من الدهشة، هذا ليس ما توقعته منه. حينها أمسك بطرف شعري بأصابعه ثم مرّرها حتى الأسفل. أمسك بأطراف أصابعه ذقني، عندها قال بجدية:

- جمالك آخر ما أحببته فيك، عيناك الواسعتان هما اللتين جذبتا هذا الأبله إليك أولا، ليس فقط لأنهما واسعتان، أو أنهما فنجانا قهوة، بل لما كانتا تقولانه.

- ماذا كانتا تقولان؟

- أحبّني خليل، أحبّني أنا أستحق، لا تفارقني، ظل معي. فسمعت كلامها، كأنها تأمرني وأنا أنجز، مع أني لست صاحب أهوائه. فأحببتك لكني لم

أدرك إن كنت ستحبيني وهل أستحقّك في المقابل؟ وهل ستوافق صاحبتهما أن ترافقني ولا تفارق؟ ثم صوتك، آه ما أجمله من صوت، لحّنت أجمل النّغمات في عقلي به، ثم لمستك وحنانك. تعوّدت أن أحبّ وجهك وكل انحناءات جسمك، وملابسك وعطرك، حين تكونين مشتتة تبهرينني، عندما تكونين في فوضى أجنّ بك، وعندما تترتّبين أرغب في ابتلاعك مثلما أنت، لذا كان جمالك آخر ما أحببته.

- لو كنت امرأة أخرى لغضبت حقا.

- أدرك، هذه أنت حمدا لله، لست امرأة أخرى ولا امرأة أخرى يمكنها أن تكون أنت.

- ليتك تبقى هكذا دائما، ليتك تحبّني هكذا حتى..

- ليتك أنت تبقين هكذا دائما وتحبّيني حتى بعدما أرحل عن هذه الدنيا، فحبي لك لأبعد من الزمن سوف يبقى.

تنفست بصعوبة:

- خليل.

تطلّعت به، ثم هز رأسه متسائلا، لقول:

- أفهمك، أسامحك، أحبك.

أغلق عينيه وتنهّد، ثم قبّل يدي.

فعلا فهمته، فقد كان الوضع أجمل من أن يكون حقيقيا، ماذا لو استفقت أنا غدا لأجد أن كل هذا حلما نسجته مخيّلتي، ولازلت في البيت أنظر إلى جثّتي أبي وجميلة، ولم تعوّضني الدنيا بأي شيء، ماذا لو؟ ماذا لو حياتي توقّفت؟ ولم أتعرّف إلى خليل يوما. لكنّه في شراييني يسري ودمي بمحاذاة بعضهما، أشعر بقلبي يدق وينادي باسمه، لم هذه الأحاسيس المختلطة بيننا، ألهذه الدّرجة لا نصدّق أن السعادة موجودة؟ هو أفهمه. فقد عاش كل أنواع البؤس، أما أنا فقد عرفت السعادة قبلا ومع ذلك لا أصدّق الذي نحن فيه. المثالية والهدوء أخافاني، ونحن عشنا على جملة الهدوء الذي يسبق العاصفة، فبقيت أتطلّع بعينيه وأروي عطشي منهما، أريد أن آخذ معي أكثر وأكثر إذا كنت أحلم، لن أستفيق منه أبدا، أو حتى آخذ ما يمكن ليدي وذاكرتي ولمساتي حمله معي. لن أرحل خاوية اليدين.

أيمكن أن تكون روحينا التقيتا خلال نومنا وصنعنا هذا الجوّ لنهرب من حياتنا وآلامنا. ألا يزال صغيرا حقا فوق سطح عمارتهم خائفا من أن يكتشف والده أمره، وأنا عند جثتي أبي وجميلة أبكي؟

أو ربّما مثلما يحدث في الأفلام، نحن في غيبوبة والتقينا؟ لا، هذا غير وارد، إنها أفلام فقط، لكن لم قصّتنا غريبة لهذه الدّرجة؟ كيف حتى تعارفنا والحوادث التي حصلت معنا؟ لقد صارت معي، أنا الشخص البسيط، الذي لبس جيدا وشبع الأكل والحب من أبيها كل ما كان ينقصها هو أمها، أعيش قصّة كهذه؟ وخليل، توفيت والدته وتعرّض للضرب والقهر من أبيه وزوجته. مشي حافيا وبات ببطن خاوٍ، والبرد يقرص جلدته، يعيش قصّة كهذه؟ لم نكن إلا شخصين عاديين.

هل للنقيضان أن يلتقيا حقا؟ وفي ظروف غريبة جدا كهذه؟ وماذا؟ أحببنا بعضنا، كأن هذا ما ينقص فقط، يعتبرني دنياه وأرى الدنيا عبره، أخشى عليه أن يستفيق ولا يجدني إلا حلما مضى مع مضيّ الساعات، أخشى أن أستفيق ولا أجده إلا حلما مضى مع مضي الساعات.
لم أكن مطمئنّة لهذا الكم من السعادة، أتتنا بإفراط وأي شخص عادي سيدرك أن هذا ليس أمرا مألوف، لأنه ومثلما يعلم الجميع، لكل شيء بداية ونهاية، لكلّ شيء نقطة تنتهي فيها الأمور، ونحن الاثنان وصلنا إلى أعلى درجات السعادة، والهدوء لا يزال قائما ومخيفا لأبعد الحدود.

❖❖❖

اقترب موعد زفافنا، فرحت أرسل بطاقات الدعوات للأقارب والأصدقاء، أقوم بآخر التحضيرات بمساعدة عليا التي عادت لتحضر العرس، حتى صديقتي كريمة رافقتها، تركت دراستها لأسبوعين حتى تعبئ جزءا من المكان الذي خلّفاه أبي وجميلة.

يوغورتا كان سعيدا جدا، فهو يتحرّق شوقا للذهاب والعيش مع خليل، إنه طفل ونسي بسهولة ما رأى، نسي أنه فقد أغلى الناس على قلبه، أشكر الله على وجود خليل، فهو من ساعدني على إخراجه من تلك الحالة. أخي يعتبره مثل أبيه، وصديقه وأخيه، كنّا أنا ويوغورتا كمن يحتاج لحضن يلمّهما بين ذراعيه وقد وجدناه، كان خليل.

الخليل لا يطيق صبرا، تجبره عليا على عدم الاتصال بي ولا البحث عنّي. المسكين اشتاق إلي، فأقوم بإرسال رسالة نصية له من عند كريمة حين تحضر لأطلب منه أن يقف تحت الشرفة وأراه ويراني، ابتسامته تكاد تفجّر

الدنيا، بريق عينيه تشعلان النار في قلبي، وحين تضبطني عليا تعيدني إلى البيت بسرعة. ليتها لم تفعل.

لكنّنا ماكران، وجدنا طريقة لنرى بها بعضنا، أخرج عند الشرفة حين ينام الجميع وهو يظل على السطح، نجلس فقط هناك، حتى لو أخذت عليا مني الهاتف، لن تأخذ مني الشرفة ومنه السطح، نحن ولدا السطح والشرفة، فيهما ولدنا من جديد. نظل هناك إلى الصباح، لا نشعر بالوقت يمضي، وكم كان يمرّ بنا بسرعة.

ظهر عليّ التعب خلال تلك الأيام، لأني لا آخذ كفايتي من النوم، أرقد في وقت متأخر وأستفيق في الصباح الباكر، لذا تفطّنت عليا للأمر، ترجّيتها ألا تأخذ مني ذلك، فحددت لي موعدا ألقاه فيه بالشرفة وحين تطلب مني الدخول أفعل. لقد سنت قوانين عليّ اتباعها، هكذا فقط، لأحقق رغبتها، هكذا فقط، هذه أنا، تحقق رغبات الكل وتنسى رغبتها.

الأسبوع الأخير كان للهو فقط، للغناء والموسيقى والرقص، الدربكة والزغاريد تملأ الحي، ففي الأحياء الشعبية يقيمون الأعراس بطريقة تقليدية بنكهة عائلية ودفء. ليس مثلما يفعلون أصدقائي القدامى. العرس لا يكون إلا يوم الحفل وانتهى كأن لا شيء حصل. في حيّنا هذا، كلّ شيء لديه طعم خاص. تأتي فتيات الحي مزينات ومرتديات أجمل ما لديهن لتراهم العجائز وتخطبهن لأبنائهم. تصفّقن وتغنين، أما أنا أبقى جالسة بينهن أضحك وأبتسم لكل من تقع عينه عليّ. والقليل من المنشار كما نسميه، هذه تتحدّث عن هذه والأخرى تغمز للأخرى عن إحداهن. تلبسن الذّهب بكثرة. يديهن مليئتين وخصرهن ملوى بمحزمة مذهبة، خلاصة

القول، العرس في الحي الشعبي سبعة أيام وسبع ليال. الفرح لا يعد فرحا عندهم إلا إذا استمتعت به أطول وقت ممكن.

بين الحين والآخر أجد مخرجا فأهرب لأرتاح، لأني تعبت كثيرا في الآونة الأخيرة مع اقتراب موعد الزفاف. ظلت عندي كريمة مرارا، تروي لي عن المستجدات في حياتها وأنا قصصت عليها كل ما مرّ على رأسي. لكني دائما أختم بالحمد لله أني التقيت بخليل، رغم كل شيء ورغم الظروف الغريبة التي حدثت فيها الأمور.

لم أعِ خلال فرحي وسعادتي تلك أن كل شيء قد يتغير في لمح البصر. كان قد غادر معظم الناس حين جلسنا أنا وعليا نتبادل أطراف الحديث كالعادة، عندما خبّطت أمي علينا لتطلعني عن زيارة السيدة فراح جدّة يوغورتا. اعتقدت أنها قدمت لتهنّأني بعدما وصلتها بطاقة الدعوة، لكن هيهات.

دخلت إلى غرفة الضيوف مبتسمة لها أثناء ترحيبي بها. وجهها لم يعجبني لكني اعتقدت أنها متعبة فقط. طلبت منها الجلوس ثم رحلت أمي وبقينا لوحدنا أنا والسيدة فراح.

- تشربين شيئا خالتي؟

- الماء إذا أمكن يا ابنتي.

أحضرته لها.

- لم أتعبت نفسك بالقدوم خالتي، أدرك أنك مريضة وهذه المشاوير لا تليق بك، لكنت اكتفيت بزيارتك يوم العرس.

ضحكت معها، إلا أنها ظلت واجمة، واصلت الحديث:

- آه، قدمت لتري يوغورتا؟ إنه يشاهد التلفاز في الغرفة، سآتي لك به.

- ابقي يا ابنتي، لقد أتيت لأحدّثك في موضوع هام، إنه يخصّ حفيدي.

حينها خفق قلبي بعنف، تمنيت ألا تقول ما لديها لحظتها، أشعر بك قادمة أيتها القنبلة، أشعر بك.

نطقت هذه الكلمات بصعوبة:

- خير إن شاء الله خالتي فراح؟

- وصلتني الدعوة لفرحك، وأنا أتمنى لك السعادة حقا، لكنّي لا أقبل أن تأخذي حفيدي ليعيش مع رجل غريب.

- خليل ليس بغريب خالتي فراح، يوغورتا يحبّه وهو يعتبره مثل أبيه، أما خليل فهو يعشقه.

كان القلق يأكل عقلي وقلبي وروحي أكلا.

- لقد سمعت الكثير عن زوجك المستقبلي، أمورا لم تعجبني لأكون صادقة، يبدو أنه سيء السمعة.

وقبل أن تكمل:

- لا أسمح لك خالتي فراح، لا تقولي هذا عن خليل، من ثم، يوغورتا يحبّه، أخبريني فقط ما الذي تريدينه؟

- لن أتدخّل فيما يخصك، لديك أهلك وقد قبلوا على ابنتهم أن ترتبط بشخص مثل، هذا خليل، وأنت ابنة ناس ومن عائلة محترمة. المهم، لست هنا

لأناقش أمرك كما قلت، لكنّ يوغورتا لي يد فيه وحق في متابعة أموره، وأنا لا أقبل أن تأخذيه.

- وماذا تقترحين؟

- اتركيه لي، تعلمين أني إذا طلبته سآخذه، لذا دعينا ننتهي من الأمر دون محاكم، لا نتعب بعضنا وننتهي من الموضوع.

- ماذا تقولين! تتحدّثين بجدية؟ يوغورتا أخي وسيذهب معي حيث أذهب، فابنتك حين توفيت لم تطلب منك أن تعتني به بل مني.

- لا أعتقد أنها فكّرت في أنك سترتبطين بمجرم.

والدموع تملأ عيني:

- قلت لك لا تناديه هكذا.

- لكنّها الحقيقة، أنت تريدين العيش مع شخص مثله، لكن حفيدي صغير جدا في السن وهو لا يعرف مصلحته أين، أي شخص يأتيه بالهدايا ويسمعه كلمتين طيبتين يتعلّق به. قولي لي، هل بالفعل يمكنك الوثوق بأن هذا الرجل لن يقحم أخاك في مشاكله؟ أيمكنك أن تثقي بأنه سيعتني به ويربّيه أحسن التربية وهو ليس كذلك.

_أثق بأنه سيجعل منه رجلا صالحا أفضل مما قد تفعلون، لقد سبق وأن فعلها. أنشأ رجلا متعلما، مثقفا وناجحا، وهو يعتبر يوغورتا مثل ابنه تماما.

- لكنّه ليس كذلك، وأنا لا أثق به، حتى لو كان رجلا آخر ما كنت سأدعك تأخذينه معك، حيث لا أدري إن كان يطعمه أو لا، إن كان يضربه أو يغطيه.

- سوف أكون معه لأحرص على ذلك.

- وهل ستكونين دائما إلى جانبه؟ يمكن أن يضربه بعيد عنك ولا يخبرك الطفل من الخوف.

- لا تدرين عمّا تتحدّثين.

- أجل، هذا هو المشكل، لا أعرف عمن أنا أتحدّث.

- أعرّفك به، حدّثيه وستكتشفين بنفسك أنه ليس مثلما تعتقدين.

- لا يهمّني أن أعرفه يا ابنتي، يمكن لأي شخص أن يصطنع اللطف، لكنّ حقيقته ظاهرة في أفعاله، لا أحد يدمّر هذا الوطن إلا هو.

- صحيح! أهو حقا من يدمّر البلد.

- ليست هذه مشكلتي، من أفكر فيه هو يوغورتا ومصلحته.

وبصوت عال:

- مصلحته أعرفها أكثر منك، مصلحته معي.

- أنت تقولين هذا لأن قلبك أعماه الحب، لكني أرى جيدا.

- إذا أعماني حبّ خليل فحب يوغورتا يبصر، ما كنت لأقبل بخليل لولا تأكّدي من أنه يحبّه أيضا ويسعى لمصلحته مثلي تماما.

- هذا ابن ابنتي الغالية لن أقمّر به حتى أتأكد من كلامك.

- وهذا أخي أقرب مني إليك وأحب إلى قلبي من قلبك وهو حياتي، لن أسمح لك مهما حدث بأن تأخذيه مني.

- وأنا لن أتركه لك، آسفة.

- تنوين إذن على تفريقنا؟

- يمكنك دائما أن تريه.

- حسنا، أخبريني، كيف ستعتنين به؟ أنت كبيرة في السن وتحتاجين من المعونة في أمورك الخاصة فكيف تعتنين بيوغورتا؟

- لديّ دليلة لتساعدني في تربيته.

- وهكذا يخرج مضطربا، لا يدرك من يكون من، أخته التي تعوّد عليها تبتعد وأنت جدّته وخالته تعتنيان به، حتى لا تعرفان كيف يفكر ماذا يحب وإلى أي قصص يحب أن يسمع.

- سيتعود علينا، أصلا مع الزيارات صار يرتاح أكثر بيننا.

- هل تعتقدين أن يوغورتا الذي يزورك هو يوغورتا في البيت هنا؟ صدّقيني لا يرتاح لديكم، فهو لا يحب حتى أن يزوركم، فما بالك بأخذه للعيش لديكم؟

- لا يهمّني ما تقولينه، سآخذه.

- نعم، صحيح، لا يهمك أمره بل أمرك، أنت لم تتجاوزي موت ابنتك للآن، لابد أنك فكّرت كثيرا في طريقة لأخذه مني طوال هذه المدّة فوجدتها أخيرا أليس صحيح؟ ابنتك تلك التي تريدين رضاها استأمنت فتاة في العشرين على أن تأتمنك، لابد أن لهذا سبب وجيه. جميلة ذكية وتدرك أني سوف أخطئ في حياتي وأتخذ قرارات غير مؤكّدة من أجله، لكنها أعطته لي، فأنا مهما حدث لن أفعل به مثلما فعلت أنت بها، خاصمتها فقط لأنها تزوّجت بمن تحبّ، لم تبحثي عن ابنها قبلا، فقط بعدما ماتت لتبحثي فيه عن غفرانها.

- اصمتي يا شقية، وتريدين مني أن أدعك تأخذيه لبيت رجل خطير؟ هذا ما لن أسمح به.

نهضت من مكانها:

- افهمي كلامي جيّدا، أنا لن أسمح بأن يعيش معه، فإما تأتين به عندي وحدك أو ألجأ إلى القضاء وبحق العشرة التي بيننا ها قد أعلمتك وقد أعذر من أنذر.

لتخطو نحو الباب، تبعتها حينها وأنا أبكي، فقلت:

- أرجوك خالتي فراح، فكري في الأمر، هذا أخي و..

وذاك حبيبي. هذا ما كنت سأقوله، فأي من الحرقتين تريدين أن تحرقيني، في حبيبي الأول أم الثاني؟

التفتت إلي قبل أن ترحل:



- لقد قلت ما لديّ، لن أرجع عن قراري، آسفة.

كان من أصعب المواقف، وكنت من أشقى النفوس، تائهة لا أدري كيف أتصرّف، من أقصد وماذا أفعل؟ حتى أمي وعليا لم تجدا قولا قد يعيد الأمل إلى قلبي. كان صوتهما ينذر بالنهاية، وأنا لطالما علّقت آمالي في أوقات حالكة كهذه على نبرات أصوات من حولي، أقيس بهم مدى عمق المشكلة. بعد حديث مطوّل بيننا تقرر أنه موضوع يجب أن نأخذ فيه رأي خليل، لذلك اتصلت عليا به حتى تعلمه أني أطلب لقاءه.

قالت عليا بينما ننتظر خليل:

- لو كنت مكانك لما سمعت لكلام تلك العجوز، عرسك بعد خمسة أيام، ماذا تريد منك؟ أن تلغيه مثلا؟

قالت أمي:

_ليس وقت هذا الكلام عليا.

أجبتها:

- لا أدري، حقا لا أدري ماذا أفعل، لقد وضعتني بين نارين.

أجابت عليا في حزم:

- لقد اتصلت به وقال أنه سيستعجل القدوم، سيجد حلا لا تقلقي.

- لكن يا عليا، هذا أمر ليس بيده، دائما أجري إليه ليحل مشكلاتي، إلا أن هذا بالذات أدرك أنه لن يعرف إلى حله طريق.

قالت أمي:

- ربّما تغير رأيها لو يحدّثها.

- لم تسمعيها تتكلم عنه، لن أرسل خليل لتطيح من قيمته، لن أدعه يهان ثانية في حياته، ليس من أجلي.

تربّى بين إهانة والده وزوجته في صغره، لن تهينه عجوزا مثل فراح في شبابه، كم كرهتها في تلك المرحلة، فقد جعلتني أضيّع وقتا ثمينا مع خليل.

بقينا كذلك لمدّة من الزمن، حتى اتّصل خليل بعليا ليقول أنه ينتظر أمام الباب، أسرعت لتفتح له.

أقبل وبعينيه قلق، عندما رآني زادت تعبيرات وجهه تبعثرا. اقترب من سريري، وهو يقول:

- ماذا هناك؟ أنت بخير؟

- أجل، اجلس إلى جانبي.

مددت ذراعي ليمسك بيدي، ثم قلت لأمي:

- أرجوك أمي دعينا وحدنا.

- طبعا، طبعا.

نهضت مسرعة، لتخرج من الغرفة.

جلس حينها خليل وهو يتنهّد:

- ما الأمر حياتي؟ أخبريني.

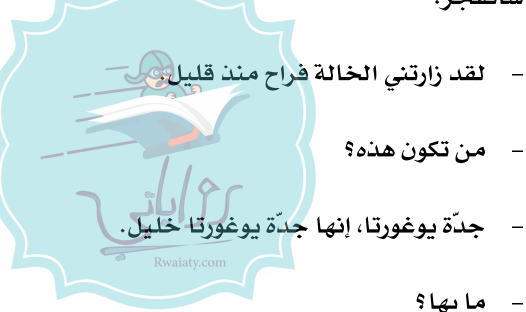
قبّل يدي:

- أخبريني.

- خليل، أنا خائفة.

وبصوته الأجش:

- مما؟ مما تخافين عزيزتي؟ وأنا معك، أخبريني ماذا هناك لأني سأنفجر.



- لقد زارتني الخالة فراح منذ قليل.

- من تكون هذه؟

- جدّة يوغورتا، إنها جدّة يوغورتا خليل.

- ما بها؟

- تقول أنها تريد أخذ يوغورتا منّي، أنا خائفة من أن تفرّقنا ثلاثتنا.

- ماذا؟ لن نسمح لها صحيح؟

وكأنه يترجاني، وفي نفسي أقول، تسألني خليل؟ تسألني أنا؟ وعندما لم أجبه، قال بهدوء أكثر كأنّه يعرف مسبقا الجواب:

- ما سبب طلبها هذا الآن؟

- تقول أنها لن تؤذن له بأن يعيش مع رجل غريب، خاصة أنت.

- تعترض عملي؟ بسببي أنا أسيرم تريد أخذ أخاك منك؟

- أجل، إنها تستفيد من الوضع لتسترجعه، تقول أن ابنتها لكانت ندمت لجعلي الوصية عليه.

- لا تخافي، كل شيء سيكون بخير، أعطني عنوانها وسأزورها.

- لن تسمع منك خليل، فهي عازمة على الأمر.

- ماذا تقولين إذن؟

- لا أقول شيئا خليل، لا أدري ما الذي يجري معي حتى.

كنت لازلت مستلقية على يميني، خدي على يدي والأخرى تمسك بخليل، والدموع تنزل من عيني.

- اجلسي أسيرم، لا أحب رؤيتك هكذا.

- أنا متعبة، لم أعد قادرة.

- أرجوك، أنا أترجاك، لا أحب رؤيتك هكذا، كوني قوية، من أجلي.

- ساعدني.

شدّني من يدي وعدلت من جلستي:

- ساعدني خليل، ماذا عليّ أن أفعل؟ لا أرى لهذه المشكلة حلّ.

- لكل شيء حلّ عزيزتي، فقط لا تزعجي نفسك، ستمرضين، ثم لا أنا ولا يوغورتا قدر هذا، اسمعي أنا رهن إشارتك، أي شيء تريدينه مني أفعله.

- هكذا تساعدني؟ بزيادة عمق الحفرة التي أنا بها.

- كيف تريدينني أن أتصرّف؟ قلت أني مستعد للتحدّث إليها، لكنك رفضت، يمكنني إسكاتها للأبد لكنك لن تقبلي، ولن أجعلك تتعذّبين أكثر بشدّي إياك من الطرف الآخر.

- لم يبق الكثير من الوقت لنفكّر في حلّ، اقترح عليّ ماذا أفعل؟

- ماذا لو توقّفت عن العمل؟ هل تتراجع؟

- تفعل هذا من أجلي؟ أنت مستعد حقا لتفعل هذا؟

- أفعل أي شيء، المهم ألا أخسرك ويوغورتا بالرغم من استحالته سأفعل. أنت لا تعلمين كم انتظرت وتخيّلت حياتنا معا، صرت أعيش فقط على أمل أن يأتي يوم زفافنا أسيرم، أنت لست من أولوياتي بل الأولى في حياتي، لا بل عمري.

- كيف أجازيك على ما تفعله معي؟

- أحبيني فقط، وأي شيء يهون بعد هذا.

- أحبّك يا مجنون، أحبّك، أكثر مما تتخيّل أحبّك، وكلّما رأيتك أحببتك أكثر، وكلّما سمعتك أحببتك أكثر، فلا تطلب ثانية هذا الطلب.

- لكنّه رجائي الوحيد من الله، فبعدما وجدتك لن يبعدك إنس عني.

- إذن أذهب في المساء لأحدّثها، أخبرها بأنك ستبتعد عن عملك، عندها لن تجد مشكلة تقابلني بها، أليس كذلك؟

هزّ رأسه فقط، كأنه لم يقتنع بأنها ستقبل، ثم استمرّ قائلا:

- أرجو ألا نستفيق من الحلم أسيرم.

- لا لن نفعل، حتى لو استفقت من الحلم ذات يوم، سوف تبقى حب حياتي، أريدك أن تكون كذلك، لن نستفيق منه، قصتنا حقيقة ستجبر الجميع على تقبّلها.

- إلى متى نظل نحارب أنا وأنت لنصل إلى بعضنا؟ إلى متى نظل نحارب حتى؟ كأنني خلقت لأحارب منذ نعومة أظافري، اعتقدت أني انتهيت من كل المصاعب والآلام، حذّرتك منّي أسيرم، أخبرتك أني لست صالحا لك.

ابتسمت له والحزن بداخلي يقتلني:

- كأنك حقا أردتني أن أبتعد، ألهذا جننت حين رأيتني مع عماد؟ لأنك لم ترغب في علاقة معي؟

ثم قبّلت يده وقلت:

- أنت صالح لي، وأنا أصلح لك، الناس هم الذين لا يصلحون ليشهدوا على التقاء شخصين مثلنا.

- كلّهم مخطئون ونحن الأصح في رأيك؟

- طبعا، لم نخطئ.

- لم تخطئي أنت، لكنّي أخطأت، فقد أقحمتك في هذا كلّه، لديهم الحق في أن يشعروا بأني لا أناسبك، فأنت أنت وأنا انظري إلي..

- هل ندمت عليّ؟

- أندم! أندم عليك أسيرم. لولاك ما عرفت معنى لأي شيء، إلا أني أدخلتك في هذه الدوامة بيدي، لو كنت شجاعا بما يكفي ما جعلتك تعيشين ما عشته فقط لأني لا أستطيع الحياة بدون أملي، كان عليّ التفكير بك، أنت لست قادرة على تحمّل كل هذه المشاكل، كنت أنانيّ.

- إنك تتحدّث كأننا انتهينا، لم تفعل هذا بي؟ ألم تقل أنك ستتوقف عن العمل؟ هذا كفيل بتغير رأيها.

- لو لم يكن لديّ أمل ما وجدتني هكذا أسيرم، أتحدّث هكذا فقط من قلقي، لكني أعوّل على هذا، هذه فرصتنا الوحيدة وأنا أريدها أن تنجح، أنجحيها أسيرم.

- أحاول. اعتقدت أنك استسلمت.

- ماذا لو؟ ماذا لو..

أكملت مكانه:

- لو ترفض؟ عندها حقا لا أدري ماذا أفعل.

امتلأت عينيه بالدّموع، ثم أمسك برأسي وقرّبه من صدره، لأضمّه بذراعي. راح يقبّل جبيني، ثم رفعت بعيني إليه وبقيت أراقبه. تنزل الدموع على خدودي وهو يمسحها، ثم تنزل وهو يمسحها، يطلب منها أن تتوقّف فتعصي أوامره. لا يمكنك التحكّم بالمشاعر خليل، إنها عواطفي وهي تحبّك، لكنها لن تتوقّف عن ذرف الدموع فقط لأنك أمرت، فأمرك، أمرك لا يسري معها.

- خليل.

- ماذا عزيزتي؟

- أريدك أن تعرف شيئا.

- قولي.

. سواء، سواء قبلت أو رفضت.

- لا تواصلي. لا تقولي شيئا. لا تقولي شيئا، انتظري حتى تكلّميها، ثم نرى، لن ندعها تتحكّم بحياتنا أليس كذلك؟ أليس كذلك أسيرم؟ كوني معي، مثلما كنت معي منذ طفولتي، ترافقينني و تمشين إلى جانبي، تحفّزينني على تحقيق مرادي.

- وحذائي وجواربي وفستاني؟

- وحذاؤك وجواربك وفستانك وشعرك وابتساماتك وشعرالسعادة الذي تنثرينه حولك، كما أنك وعدتني بأن تكوني معي، لا تخلفي أسيرم.

- هكذا تنوي التخفيف عنّي؟

- وهل تتوقّعين أن أسرّحك؟

- أتوقّع أن تفهمني، فإذا حدث ورفضت أريدك أن تعلم بأني أحبّك.

وفي صوته شجن:

- ماذا تقصدين أسيرم؟ أرجوك نوّريني.

- لا أقصد شيء، أريدك أن تعلم فقط.

- لكنك قلت أنها لن ترفض، فماذا سترغب بعد منّا؟ أن نموت وننتهي؟

ثم راح يشتمها بغضب، لم يشتم قبلا بقربي، كأنه أفلتت الأمور منه.

- خليل توقّف، أنت تهذي أم ماذا، توقّف.

- أنا آسف.

وهو يتنفّس بصعوبة:

- لا أحتمل فكرة أن تتحكّم بحياتنا واحدة مثل تلك، لا أتحمل فكرة أنه بيدها أن تجعلنا نعيش أو أموت.

- خليل، لا تخفني عليك أترجاك.

وراحت الدموع تنزل من عيني.

- لن أفعل ما يقلقك، إلا أنه أية حياة ستبقى لديّ إذا عدت إلى الماضي؟ هذه السنة كانت الوحيدة التي أحببتها في كل السنوات التي عشتها، فكيف لها أن تسرق منّي بهجة عمري.

- لا تزد عليّ آلامي خليل، لقد دمّرتني حين أتت وأطلعتني على الخبر، اعتقدت أنها قدمت لتبارك لي، كالغبية، لكن، خليل، حتى لو لم نتزوّج، أنا لك حقا.

- أعلم، وأنا.

- لا شيء سيفرّقنا، رغم كل ما حدث وسيحدث حبّنا أقوى.

- حسنا، إذن أوصلك بعد قليل إليها وكلّميها، حاولي إقناعها أسيرم، ابذلي مجهودك.

شعرت بالشفقة عليّ وعليه، مصيرنا بين يدي غريبة لم أعرفها في حياتي ولا حتى يوغورتا الذي تكون جدّته، لا أفهم هذه الدنيا أبدا، حقا لا أفهمها، تدور وتدور بنا، لا تتوقف أبدا.

- لا خليل، سأذهب بسيارة أجرة.

- أنت لا تثقين بي؟

- ليس مثلما تعتقد، فقط أخشى أن تغضب وتتهوّر إذا رأيتني أبكي أو أمرا كهذا.

- أسيرم لا تبكي، لا شيء يستحق دموعك، كل ما علينا فعله سنفعله لنظل معا ولو لزم سأتّخذ بعض الاجراءات ونحل الموضوع بطريقة أخرى.

14

ترددت للحظة قبل أن أختار الوقت المناسب لتلك الزيارة، ووقع الاختيار على فترة العصر. جمّعت ما تبقى لي من قوة بمساعدة من العم عمران الذي أخذ على عاتقه واجب مرافقتي، ظل ينتظرني مع سائق الأجرة ريثما أجري مقابلة العمر مع جدّة يوغورتا.

لم أنبس في البداية بكلمة، في حضرة دليلة، التي كانت تلمّح إلى كثير من الأشياء، قبل أن تستدعي والدتها. كانت العجوز باردة في معاملتها، بحيث لم تولي أية أهمية للترحيب بي. تلك الدقائق أشعرتني بالذل، لأني أعي معنى جمودها، لأنه طرد دون تصريح.

كسرت الهدوء بقولها:

- زيارتك هذه هي محاولة أخيرة لتغيير رأيي، أنا محقة؟

- الوضع أكبر مني ومنك، ما تعمدين إلى فعله ليس بالهين، تشائين تغيير حياة الفتى فقط لتشعري برضى داخلي.

- يبدو أنك لم تتعلمي في بيتك كيف تحترمين من هم أكبر منك، أو ربّما أفسد طباعك ذلك الشاب، يا خيبة أبيك بك.

- ليس هذا موضوعنا، دعينا لا نتراشق بالألقاب والإهانات. لعلّ اقتراحي الذي أتيتك به يرضيك.

ضمت يديها إلى ركبتيها:

- يا الله، قولي ماذا تقترحين ترى؟

- لقد تحدّثت إلى خليل، إنه يسألك ألا تقومي بأخذ يوغورتا.

وقبل أن أنهي قاطعتني دليلة:

- ماذا أيهدّدنا أم أنه يشترينا؟

- أرجو ألا تتدخّلي دليلة أنا أحدّث الخالة فراح.

- لكنّها ابنتي، لديها الحق في أن تشاركنا الحديث.

- باحترام خالة فراح، عليها أن تحترم نفسها.

أضافت دليلة في محاولة لاستفزازي:

- أو ترسلين لي حبيبك المجرم ليقتلني؟

واصلت باستهزاء:

- يا ابنة الناس لن نغيّر رأينا مهما حدث.

وجهت كلامي إلى الخالة فراح:

- أرجوك اطلبي منها أن تتوقف، فأنا أصلا مخنوقة، لن أحتمل أكثر.

طلبت منها مغادرة الغرفة، لذا بقينا:

- ما الذي تغيّر خالة فراح؟ ألم تقولي أن ابنتك أدرى بمصلحة ولدها؟ ما الذي جعلك تحسبين أني سأغامر بحياة أخي؟ تركت مدرستي لأعتني به

وحده، حياتي أوقفتها من أجله، إنه الآن ابني بالإضافة إلى كونه أخي. إذا أخذته مني كأنك سلبت الروح منّي.

- أريد ما هو الأفضل له، ولا يمكنني الاطمئنان عليه معه.

- انظري خالة فراح، التقي بأخي لوحدكما واسأليه ما تريدين، يمكنك أن تعرفي إذا حصل معه شيء من قبلنا قد يؤذيه.

- ليس بعد فقط

- بعيد الشر عليه. فليحمه الله، لن أسمح بأن يحصل معه أي مكروه.

- هناك أمور لا يمكنك التحكّم بها يا ابنتي، تحدث رغما عنا، أنا آسفة حقا.

- خليل مستعد أن يتخلى كلّ شيء، فقط لا تأخذي يوغورتا منّي.

صمتت لوقت ثم أطلقت هذه القنبلة:

- وهل أنت مستعدّة للتخلي عنه من أجل يوغورتا؟

فتحت عينيّ والدموع عادت لتنزل:

- ماذا؟

- كما سمعت، هل أنت مستعدّة أن تتخلي عن الرجل؟ لأكون صريحة، لا أريده أن يكون قريبا منه أبدا، وشرطي الوحيد لأسمح بأن تحتفظي به هو أن تتخلي عن ذاك الرجل وترحلي من الحيّ الذي تقطنين به، لأني سمعت أنه حيّه أيضا.

- لكن، لماذا؟

وصوتي يصل لنهايته بعد عدّة انقطاعات.

- هكذا، إما تتركين الرجل أو تعيدين لي حفيدي وافعلي ما شئت بحياتك.

أنزلت بعيني أرضا لأمسح دموعي، ثم أرفعهما إليها وأقول:

- تعلمين، بعد العذاب الذي ذقت من سمّه السنة الماضية وجدت من ينقذني، أحدهم أمسك بيدي وأبقاني على الطريق الصحيح، بحث معي عن أجوبة لأسئلتي وعلّمني الحياة، ذلك الواحد يشدّني من شعري إذا أخطأت في حق نفسي، تماما كما كان يفعل أبي، يضمّني حين أبكي تماما كما يجب أن تفعل أمي، ينسيني همّي مثل أي دواء يداوي الجروح، هذا الإنسان أمسك بيد أخي وجذبه إلى العالم ثانية، جعله يحب سبونج بوب مرة أخرى ويتحدّث ويلعب وينسى، أما أنت اليوم، أخذت كلّ هذا من حفيدك ومنّي.

وقفت من مكاني:

- وعلى هذا، أنا لن أسامحك أبدا.

خلال اقترابي من الباب تبعتني وهي تقول:

- لصالحكما أتدخّل، يوما ما سوف تشكرينني لأني أنقذتكما منه.

لم ترتق إلى آمالي، كانت قليلة الثمار تلك الزيارة. لا وكانت تتوقع مني أن أشكرها على كرم المعاملة، وحسن النية. ضاقت بي الدنيا ولم أجد منفذا



غير مقبرة ينام فيها زوجين يفهمان منّي، رحت لأشكو فراح لابنتها، وأشكو انقسام ظهري لأبي بعدما قرأت الفاتحة على روحيهما الطاهرتين.

❖❖❖

لجأت إلى خليل لعلّني أجد لديه بعض التعزية. طرقت بابه بقوة، فالجرس لم يوفِ بالغرض أو هكذا اعتقدت عندما أبطأ في الحضور. انفجرت باكية فورما رأيته رغم محاولتي كبح نفسي. أمسك بكتفي:

- توقّفي عن تعذيب نفسك، لا تبكي يا غشيمة.

مسحت دموعي:

- علينا أن نتحدّث.

- بالطبع، دعينا ندخل ونسمع ما لديك إذن.

طوق خصري بذراعة خلال توجّهنا إلى البيت بخطوات متثاقلة، كأننا نسعى لتأخير النهاية القادمة لا محال. كانت غرفة الضيوف قد عرفت تنظيفا شاملا ليس من بعيد، كان الأثاث يلمع مع الأضواء الكثيفة، وكأنها تحضّرت لما سيحصل.

وقفت قرب المدفأة وقلت:

- قاسمني يا خليل آلامي، لم يعد بمقدوري حملها وحدي، إنها تثقل كاهلي.

اقترب مني بعينيه الهلعتين:

- تهون الدنيا مقابل دموعك وعذابك، أخبريني ودعيني أحمل عنك كلّ شيء، قولي ما لديك، آه، قولي.

اصفرّ وجهه فأقبلت إليه لأضمه وأشد قميصه من خلف بأصابعي، كأني أتشبث بالحياة بين أحضان الموت:

- خليل.

- قوليها فقط، أخبريني ما لديك، أنا هنا.

ابتعدت عنه قليلا:

- إنها مصرّة على أخذ أخي منّي لو مضينا في الزواج.

- لن أسمح بذلك، يمكننا التغلب عليها.

- إنها جدّته، تملك الحق أكثر مني في حضانته خليل، تعلم كم قانون الأسرة صارم فيما يخص الأطفال، ستحرمني منه.

- سأقتلها.

- أرجوك خليل.

- لن أقتلها حقا لا تخافي، ماذا تحسبينني؟ ألا يمكنني قول هذا مجازا.

دنوت منه ووضعت يدي على صدره:

- أعتذر، لا تغضب مني، كل هذا يفوق قدرتي على الاستيعاب والتحمل.

- لست غاضب منك، من أين لك هذه الأفكار؟ أنا خائف الآن، من عينيك أن تهجراني، إني أقرأ أمورا فيهما لا تعجبني.

تنهّد:

- هيا أسيرم خيّبي شكوكي وقولي أنك لن تهجريني حتى لو لم نرتبط الآن.

- أتمنى ذلك.

عدت قرب المدفأة:

- خيّرتني إما أموت أو أموت، بك أنت أو يوغورتا.

- لا تختاري، لا أريد سماعك تختارين. أدرك أن أخاك أولى وأحب إلى قلبك، لكن لا تؤكّدي لي أني في مرتبة سفلى حتى في قلبك أنت، دعيني أعتقد أني بنفس المكان الذي وضعتك فيه بقلبي، لا تختاري أسيرم، أنا أحررك من الاختيار.

- أنت وهو تشغلان نفس المكان، أحدكما يسكن نصفي والآخر النصف الثاني، لو كان الأمر بيدي لاخترت أن أفقد الحياة بدلا من فقدان أحدكما.

- لا تقولي هذا عمري.

- دعني أكمل أرجوك.

تنفست بعمق:

- خليل أولى ويوغورتا أولى، لكنّه صغير.

- أسيرم لا تتسرّعي، دعينا نناقش الموضوع بهدوء.

- إنّه صغير ويحتاجني أكثر، أما أنت..

- وأنا صغير، كنت أكبر بين يديك شيئا فشيئا مثله تماما، لا بل أصغر منه ولا أملك غيرك.

- ماذا تريدني أن أفعل؟ أتخلّى عن أخي؟

- لا، تخلّي عنّي أنا، هذا أسهل.

- لم تقول هذا الكلام خليل؟ أتريدني أن أختنق حقا؟ أنا أصلا أختنق.

ضمّني بعنف، منه حاجة ومنه عتاب، وطفقنا نبكي اثنينا، قال:

- وأنا أحب يوغورتا، أقسم أني لا أتخيّل حياتنا بدونه.

لا زال يقول حياتنا، كانه لن يقتنع أبدا وما كان سيقتنع.

- لن أسمح لك بالتخلي عنه ولو رضيت أنت، لكن، لا تتخلي عني أيضا، ليس ببساطة على الأقل، حاربي من أجلي.

وضع جبينه على جبيني:

- لا تدعيني أشعر كأني قابل للاستبدال في حياتك.

- لست كذلك خليل، لست أستبدلك، بل مجبرة على.. مجبران نحن على الابتعاد.

- اهربي معي ويوغورتا، يمكننا بدء حياة جديدة، بعيدا عن هنا، لن يلحقنا أحد، ولن يفرّقنا أحد، ثلاثتنا، سمّيا المكان الذي ترغبان الرحيل إليه ونذهب.

أردت أن أوافق، لعبت الفكرة في رأسي، ولكن:

- وكيف ألتقي بعائلتي؟

ابتسم مفكرا أني قبلت وانتهى:

- نأتي بهم حيثما نكون كلّما اشتقت إليهم.

- لكن حينها سأصبح مطالبة من القانون ولن أتمكّن من الدخول إلى الوطن قبل سنوات.

انتزعت ابتسامته:

- لكن سيكون وطننا حيث نكون معا، لن تحتاجي للعودة إلى هنا.

وقعت نظراتي أرضا ثم رفعتها إليه:

- إذا كان هذا ما تريده سأفعله.

ضرب كفيه ببعضهما وهو يبتعد:

- أنت لا تريدين أن تكوني معي حقا، طوال هذا الوقت اعتقدت أن ما بيننا أقوى من كل شيء، أنا مستعد أن أتخلى عن حياتي كاملة حتى ترضي، لم أطلب منك أن تخلّفي أخاك وراءك أو تتنازلي عن أمر بحياتك، كل ما أردته هو أن يحملنا نفس المكان، نتزوّج وتكون لدينا عائلتنا.

- ماذا تريدني أن أفعل؟ أخبرتك أني أقبل، هل أترجاك؟

- نعم، قلتها نعم، لكن بتلك الطريقة.

- أية طريقة؟

- بتلك الطريقة.

مشيرا إليّ بذراعه:

- كأنك تريدين إشعاري بالذنب، مثلما أقوم بأمر يسيء إليك، أعتقد أني وحدي في هذه العلاقة.

خطوت خطوتين إليه، ومددت يدي إلى شعره:

- لا تقل هذا أرجوك.

قنطت، حتى الهواء الذي يدخل صدري ما كان يكفيني لأعيش.

- ابتعدي أسيرم، دعيني الآن، قلت ما لديك وانتهى، فهمت كلّ شيء.

- لا بل لم تفهم، لم تصر على تعذّبني هكذا؟ ألا زلت تريدني أن أتوجع؟ ألم تنتهي لعبتك بعد؟

بدأت أبكي حتى وقعت أرضا على ركبتي، ما عادتا لقدمي قدرة على حملي. تقدّم إلي ويجثو أمامي. أمسك بيدي ورفع رأسي من ذقني ليراني وأراه، ثم همس:

- اللعبة انقلبت ضدّي، انقلبت ضدّي، إني من يتعذّب أكثر منك، لأول مرة أريد شيئا، حقا أريدك ولا أستطيع أخذك، أو حتى تأخذيني. إذن وصلنا إلى نهاية الحلم بالفعل.

- خليل، أحبك بصدق.

- أعلم، أنت تحبّينني، طبعا تحبّينني.

ليجلس وأرتمي بين أحضانه، قبّلني على رأسي:

- طبعا تحبّينني.

توقّفت عن البكاء بين ذراعيه:

- وسأظل أحبّك ما حييت.

ضمّني بقوة أكثر إليه:

- انتظريني أسيرم.

- أنتظرك.

- عديني بأنك لن تتزوّجي غيري.

- أعدك.

- لن أحتمل تخيّلك مع رجل آخر، أفضّل الموت ألف مرّة على هذا.

- لهذه الدرجة تحبّني؟

- وأكثر.

- خليل.

- نعم عزيزتي، عمري أسيرم، نعم.

- بالفعل، إذا أردتنا أن نهرب معا، أنا مستعدّة لأن أفعل أي شيء من أجلك، أخبرتك يوما أني سأفعل أي شيء تطلبه منّي، والآن أنت قرر، أصلا هذا أفضل حل لنا، فأنا أقول أني لا أستطيع ترك يوغورتا، إلا أنه وبنفس القدر أعجز عن التخلي عنك، أتوقع في أي سواد سألقى من دونك.

- ولأني وعدتك بعدم تعريضك للمخاطر لن أقبل، أمّنتني على نفسك وأنت الشخص الوحيد الذي أريد له الخير، وكلّ الخير، لن أعرّضك لهذا، سنصبر، عسى، عساه يأتي يوم يسمح لنا فيه القدر أن نلتقي حقا، لعلّه يجمعنا تحت ذلك السقف الذي بنيناه في أحلامنا أنا وأنت، أتذكرين؟

ابتسمت:

- أجل.

- نرجع لحلمنا ولن نستفيق منه أبدا، أنت وأنا للأبد، لا بل، سوف يكون أجمل وأروع، اسمعي..

- ماذا؟

- أريد إخبارك بأمر بقي في قلبي منذ زمن.

سألته ما هو وأنا أجلس، فأجاب:

- لا يعجبني اسم الولد الذي اخترته لابننا.

- و لم ذلك؟

- ما أدراني، ربّما كان لشاب ما كنت معجبة به.

ضحكت. ضربته على صدره وقلت:

- أبله.

وضع يده، على يدي مبقيا إياها هناك:

- أكثرت الضربات إلى هذا المكان. أرشيته يا جدك.

تطلّعت به والحزن عاد ليطفو على وجهي:

- أنا حقا آسفة، لا يمكنك تخيّل مقدار الضربات التي آخذها أنا، إنها موجعة.

- ليتني آخذها عنك كلّها، لا أريدك أن تبكي بعد الآن، فلندع كل شيء للمستقبل، انتظريني فقط، لا تنسي.

لامست خدّه وبابتسامة سرقتها بين الركام:

- لن أنسى.

لن أنسى، أنا وعدت وما خلّفت، حبيبي لم أنسَ، بانتظارك كنت وسأكون حتى بعد النهاية، جعلتني أعدك وها أنا أوفِ بوعدي.

- هل سمعتِ؟

- ماذا أسمع؟

- كأن أحدهم دخل.

- أين حرّاسك؟

- لقد جعلت الجميع يذهب لبعض الوقت، بما أنك كنت قادمة لم أردك أن تخافي.

وقف حينها من مكانه. أمسك بيدي وساعدني على النهوض، وقتئذ رفعنا رأسينا، كان سعيد يدخل، ابتسم له خليل وقال:

- لابد أننا نسينا الباب مفتوح، ادخل، لم أنت واقف قرب الباب؟

ظل سعيد صامت وهو يحدّق بي ثم بخليل، ليعود وينظر إليّ، فسألته:

- ماذا هناك سعيد؟

ليجيبني:

- وتسألين أيتها المخادعة؟

- ما الذي دهاك أيها الوغد؟ لا تحدّثها هكذا.

أكلت الدهشة تطلعات خليل، أما أنا فانتابني خوف شديد يختلف عن أي خوف مضى. كان خليل يقترب منه وهو يردد:

- اخرج من بيتي، سنتحاسب فيما بعد.

لحظتها ودون مقدّمات أخرج سعيد من خلف ظهره سلاح وصوّبه نحو خليل، الذي قال:

- ما هذا سعيد؟

في بداية الأمر كان وجه خليل هادئا ولم يتغيّر إلى شحوب إلا بانزلاق ذلك المسدس بسرعة ناحيتي. تبادلنا النظرات عندما أصبحت الهدف. كنت متأكدّة أن تلك الأمسية ستنتهي بموتي، على الأقل كنت محظوظة بما يكفي لأشبع من أحد أحبائي. أما خليل فكان مبعثرا بتطلّعاته بيني وبين سعيد. يبحث بعينيه عن وسيلة للوصول إلى سلاحه المتواجد فوق الطاولة دون أن يكون مجبرا على الابتعاد عني عرضة للأذى. رغم أن تركيزي ثبت على خليل راحت نبضات قلبي تتزايد في تناغم مع تنفّسي. في الأخير اقترب خطوتين مني حتى تلمس أصابعه بأطرافها يدي، وتنتهي بضمها كلّها.

كسر سعيد الصمت، وقال بنبرة قاطعة:

- لن أسمح لها بأن تتلاعب بك بعد الآن يا صديقي، هذه المخادعة تعمل لدى الشرطة، إنها تبيعك، لدي ما يثبت ذلك.

تطلّع بي خليل ثم إلى صديقه أم عدوّه لحظتها، أما أنا فقد انشق بطني من كلمة (تبيعك) أبيع من؟ خليل! عندها تذكّرت. نعم، كنت سأبيعه يوما، وفي هذا لم يكذب، ولكن كل شيء حدث في الماضي.

أجابه خليل وهو يرفع ذراعه إليه، كأنه سيوقف الرصاصة إذا أطلقها:

- أعلم سعيد، أنا أعلم بكلّ شيء.

فتحت عينّي لأحدّق به مذهولة. لم أهتم لموتي لحظتها، فهو يعلم أني كنت أبيعه للشرطة، ولا يزال يحميني.

قال سعيد في حالة ارتباك:

- ماذا فعلت بك يا رجل؟ تعلم بأنها تبيعك للشرطة وتبقيها قربك؟

تطلّع بي خليل فأنزلت عيني أرضا، قال:

- أحبّها يا رجل، أنت لن تؤذيها أليس كذلك؟

ثم أجابه:

- إذا أردت أن تقتلني فاقتلني فيما بعد، لكنك صديقي ورفيقي وأخي، ساعدتني كثيرا وأنا مستعد أن أخسر كل شيء، لكني لن أسمح لهذه الفتاة أن تخسرك كل ما بنيته في دقيقة، سامحني يا صديقي.

تطلّع بي خليل ودمعة تنزل من عينيه، ثم بصديقه وهو يصرخ:

- لا سعيد، أرجوك أخي لا تفعل.

أغلقت جفوني حينها وشعرت بهواء على وجهي، خرجت طلقة من ذلك المسدس، أرتجف للحظة ثم أحس بها تدخل صدري تتغلغل بين شراييني مباشرة إلى قلبي، لأفتح عيني وأجد خليل يقابلني، كنّا وجها لوجه، قريبين جدا بحيث كنت أتنفس من الهواء المستعجل الذي يخرج من فمه.

عينيه شبه مغلقتين، ينظر إليّ ويحقق، ثم يهمس:

- أنت بخير؟

تطلّعت بصدري، حيث شعرت بتلك الرّصاصة، لكن، أين هي؟ لقد شعرت بها، أين هي إذن؟ رحت أبحث عن الدم في ملابسي بيدي.

حتى سمعت سعيد يصرخ:

- خليل!!

سقطت الهضبة، وقع الجبل، خليل أرضا، فتحت عيني من الدّهشة، لا، ليس هو، أنا من تلقّت الرّصاصة، أحسست بها، أقسم أني شعرت بها.. خليل!

سقط ببساطة بين رجلاي، خليل، كله، هو بكامله وقع أرضا، سأقع معك خليل، لن تقع وحدك أكيد، أخبرتك أني معك حيث تذهب.

جثوت على ركبتي أناديه:

- خليل.

أمسكت برأسه ووضعت رأسه على بطني، كم كان يحب ذلك، لذلك سارعت لضمه إلى مكانه المفضل حتى يرتاح ويشفى بسرعة ويبقى معي.

- آه يا خليل، ظلّ معي حبيبي.

نظرت حينها إلى سعيد الذي بقي يلطم وجهه:

- اقتلني معه، ماذا تنتظر، أنظر ماذا فعلت بنا.

صرخ حينها في وجهي وهو يقترب:

- اصمتي، اصمتي، كل هذا بسببك أنت.



ثم وضع المسدس على رأسي، ليسعل خليل وهو يهمس:

- سعيد، توقف سعيد.

عندما رآه يتحدّث نزل إليه، ظل يبكي:

- سامحني أخي، سامحني يا صديقي، أردت أن أخلّصك منها فقط.

كانت يد خليل ترجف بينما يقرّبها من صديقه:

- لا تؤذها، على نفسي أسامحك لكن هي لا، أوصي.. أوصيك بها.

- لا تقلق. تماسك، سآخذك الآن ونداويك، ستعيش صديقي، فقط انتظر.

وقف سعيد وأخذ هاتفه ليتصل بينما يبكي. التفت إلي:

- اضغطي على جرحه، لا تدعيه يخسر الكثير من الدم.

كنت مصدومة، خليل يموت بيدي يدي، وهو يوصي علي، لم أستوعب ما قاله سعيد، لذا صرخ ثانية:

- اضغطي على جرحه ألا تسمعين؟

تفطّنت بعدما انتفضت، لأبحث بيدي دون أن أرى عن جرحه في ظهره، فقد كنت وضعته على ركبتاي، وهو يتنفّس بصعوبة والعرق يتصبب منه، حتى وجدت مكان الإصابة. ضغطت عليها بقوة وأنا أبكي و أصرخ.

هدأت من روعي حتى لا أوتّره أكثر، و قرّبت منه وجهي:

- خليل سامحني، كان هذا في البداية لكنّي توقّفت.

وبصعوبة ردّ عليّ:

- أعلم كلّ شيء.

رفع يده الراجفة مستمرا:

- لا تبكي، أعلم أنك تحبينني، لا تهجريني أسيرم.

أيقنت أنه كان يهذي، زادت نبضات قلبي، لأصرخ:

- أسرع، أسرع يا سعيد، تعال بالمساعدة.

شعرت بيد خليل، تمسك بطرف شعري، لأنظر إليه، وأتوقّف عن البكاء مرّة واحدة، ثم قال:

- شكرا..

غاب عن الوعي ووقعت يده.

صرخت صرخة كل جروحي وآلامي عبرت منها، باسمه صرخت بكل قوتي.

استدرك سعيد دخوله برفقة شابين ليحملوا خليل عنّي، حتى قبضتي الأقوى التي أمسكت بها قميصه لم تنفع في شيء. غارقة في دموعي التي أحرقت وجنتاي، كانت تخرج من بركان، أوليس من حقي أن أمسك بيده أول مرّة يكون بحاجتي؟ لكنّ سعيد بقسوته المعهودة أشربني من الكأس المريرة عندما قطع الحبل بيني وبين خليل، زاد اللوعة تأججا في صدري. عندما فتح لي

أحد مرافقيهم الباب بعد حجز دام ساعات كانوا قد رحلوا والظلام قد خيّم على الحي.

كان في وسعهم تفريقنا أخيرا، إن يد الغاضبين طالتنا، في الواقع، حصننا لم يكن آمنا كما توقّعنا، الحب لم يكن كافيا ليجمعنا. فهمت كم هو الحب مخلوق ضعيف وسط المخاطر، إذا جابه بمفرده الأعداء، غرست فيه أسنان الذئاب بسهولة وينزف حتى يهلك.

15

لم يخطر ببالي ولو للحظة أنه قد يمس خليل شيء كالموت، فحتى في أغلس مراحل حياته كان قويا، كيف ستقوى عليه رصاصة؟ اختبرتني الحياة في كل من أحبهم، ويوم حسبتنا تصالحنا ضربتني تحت الحزام.

رغم محاولات عائلتي لتهدئتي كانت الرياح تهب بعنف أكثر مما أستطيع تحمّله. كنت في حاجة ماسة لأن أسمع خبرا عنه لكن هيهات، لا شيء. أترقب في هدوء يأكل داخلي ببطء شديد، أي اتصال قد ينهي إما عذابي أو حياتي.

عبثا أحاول العدول عن التفكير بأشياء سيئة بخصوصه مع تقدّم الليل، خصوصا وأن سعيد أغلق هاتفه. بقيت مستيقظة لا يغمض لي جفن، وجفّت معه الدموع والقلب والروح، صرت خاوية مع حلول الصباح.

كان خليل جزءًا من ذاتي، لم أعرف نفسي في حين أنه غائب، ينازل الجراح عنّي وعنه بمفرده، لم يفهم سعيد أني دواءه وهو دوائي، لا يشفى جسد مبتور القلب. كنت ألتمس في أعين أحبائي نوع من المؤازرة، شيء قد ينقذني من الضياع، أبحث في حضن أخي، وحضن أمي ومكالمات خليل القليلة التي استرقتها وسجّلتها في البدايات.

أتعبني الانتظار وليتني لم أنتظر، ما كنت لأتذمّر من الليل لو كنت أعلم ما ينتظرني في الصباح، مجرّد لهيب حارق ألقيت فيه، لا يرحم بقايا الأحلام في داخلي، يفجّرها بعنف واحدة بعد الأخرى.

وصلتني رسالة نصية من سعيد، فامتزجت عليّ المشاعر. انطفأ كل شيء حولي عندما قرأت ما كتب فيها.

"لم ينجو منها، خليل توفي"

جملة من خمس كلمات أردت النفس قتيلة. لست متأكدة ماذا حصل بعد ذلك، أتذكّر فقط أني فقدت كل ما يشدّني إلى عالم الأحياء. لاحقا علمت أن تلك الصيحات ليست في الحقيقة سوى خيال. نظراتي الخاوية وحدها أخبرت أمي وعليا. انجرتا باكيتان عندما قرأتا الرسالة. في عقلي انضممت إليهما أما في الواقع كنت مجردة من الحياة. لم أفهم في قرارة نفسي لمَ تظاهر الجميع بالحزن، ألم تكن رغبتهم الخفية في قرارة نفسهم؟ لم يكن يوما خليل صالحا لي بالنسبة لهم، كلّهم دون استثناء فكّروا هكذا، ولو لم يصرّحوا. إن الأفكار بدأت تتداخل وتشتت عقلي، لم ينقذني من نفسي إلا دوار وقعت على إثره أرضا.

أقمت ليلتها في المشفى، وأمي تنام بقربي، وجدت نفسي غير قادرة على الجلوس مكاني، الغرفة بأكملها لم تعد تكفي. ارتأيت أن أتوجّه نحو النافذة لأطل منها، لعلني ألفي خليل يترقّب خروجي إليه. لو يعلم كيف أصبح مصدر شقاء بعدما مثّل السعادة كلها لروحي. لاحظت أن الدموع قلّت، لا بل انقرضت من داخل جفوني، حتى مشاعري كانت مخدّرة بالكامل. مع ذلك احتجت للدفء، فجسمي الناحل الضئيل كان بحاجة لشراب ساخن أو شمس مشعة، أو حضن دافئ، فلم أجد سوى سرير المستشفى البارد ملجأ لي بينما أمي نائمة. انزلقت تحت الغطاء لعله يعوّض البرد الساكن جسدي. كنت بحاجة ماسة لموقد ملتهب يغمر القليل من الفجوات التي خلّفها خليل. كأني بتت مدمنة، أدمنت لمسات خليل وكلمات خليل وأنفاس خليل، بقلب بارد ألقى بمشاعري لتتعذب وحدها بين يدي الحزن والدمار.

كنت محاطة بأهلي طوال الأسبوعين الموالين، إلى أن غادرت عليا برفقة كريمة إلى انجلترا، وجودهما لم يفلح في إخراجي من حالتي تلك، ولا الحلوى التي ظل يحضرها لي يوغورتا لأشعر بتحسن. لم يخفف عنّي الضر إلا الساعات التي أقضيها برفقة وهم تحمله نظراتي عندما أكون في شرفتي، أرسم شكل خليل فوق السطح، أواصل حديثنا مرارا حيث توقّفنا. شُغلت عن الدنيا، فتنازعني نفسي إلى البقاء هناك أمدّ بصري وأحيانا أصابع يدي إلى السراب، أستنجد ببقايا الذكريات، حتى تعيدني أمي إلى خيبتي، تذكّرني بموعد الحمام أو الفطور، كلّ هذا ولازلت أرفض أن تسيل دمعة واحدة.

كنا على أبواب نهاية شهر أكتوبر، لازلت تائهة في نفس المكان ونفس الزمان، أختصر الحياة في ذكرى أخيرة بعدما انقطع الأمل. لم أشعر بنفسي إلا ويد تمس كتفي في رفق. كان العم عمران.

شاركني لبرهة وجيزة صمت الحداد، ليقول بنبرة سائلة منبّهة:

- إلى متى تنوين البقاء هكذا يا ابنتي؟ مع الوقت كلّ شيء يصبح أخفّ، فقد خلقنا لنصبر ونمضي في الحياة، حتى لو كان ما عشته قطعة من الجنة، أشعر بك. مع ذلك لديك أخيك الصغير الذي يعتمد عليك، فثبّتي قدميك من أجله، ألا يستحق منك المحاولة؟

أجبته وقد كانت أول مرة أفتح فمي بكلمة منذ يومها:

- من أجله فقط أنا أتنفّس إلى اليوم.

- لكنك جسد فارغ، هو يريد أخته، نحن لا نخبرك حتى لا نزيد همّك، لكن يجب أن تعرفي، إنه يتراجع في دراسته، حتى هو يبحث عن خليل ويسأل

أين هو، لقد خسر شخصا آخر يحبّه، فلا تكوني هنا كالميت الحي، حية فقط بالأنفاس والجسد.

- ماذا أستطيع أن أفعل؟

- انهضي كلّميه، اعتني به، أو أفضل، عودي إلى المدرسة، انخرطي مع الحياة على الأقل تنقصين من وقت عذابك.

- قولك هذا سيفلح؟

- طبعا، فالانشغال يجعلك تتجاوزين المحن.

- لكني لا أريد أن أنسى.

- لن تنسي، فقط يتوقف الألم، لا شيء ينسي حبا مثل هذا. فقد كنت أشغل كل منصب يأتيني حتى أنسى أمك، لم أتمكن من ذلك، وما كنت سأقبل بغيرها حتى لو بعد عشرين سنة، لا زلت أحبها مثل أول مرّة التقيت بها، وأنت لن تنسي قط ستتمكنين من التعايش مع وضعك فحسب.

- مع ذلك مضى وقت التسجيلات، ربّما السنة المقبلة.

- لا، ليس عليك الانتظار للسنة المقبلة، لديّ صديق أكلّمه من أجلك، سيساعدك على الدخول، أنت موافقة إذن.

- شكرا عمي عمران، شكرا على تحمّلك وضعي ومساعدتي باستمرار، أنت رجل طيب، أمي كانت محقة في تمسّكها بك.

لطالما كرهت هذا الرجل لأنه سلب أمي مني، لكن الأقدار تلعب لعبتها لسبب، وها قد ظهرت الأسباب في وجهي بعد عشرين سنة.

- أنت تهذين الآن، إنك ابنتي، واجب عليّ رعاية مصلحتك.

حينها اقتربت منه وحضنته. لأول مرّة في حياتي أضمّه، شعرت بحاجة لذلك، فقد اشتقت لأبي واشتقت لخليل، خليل الذي كانت ضمته تكفيني وتريحني وتداويني. ثم وبين أفكاري تلك، سمعت العم عمران يهمس:

- شكرا.

على ماذا يشكرني؟ لأني لا زلت أستغلّ طيبته؟

اعتزمت أن أتظاهر من أجلهم كلّهم بأني أحاول، ليس من العدل أن أشغلهم بي أكثر. لذا غداة اليوم التالي ساهمت بالعناية بأخي. بعدها قمت باستخراج وثائقي، لأسلّمها للعم عمران بمقرّ عمله الصباحي، وفي المنزل ساعدت أمي في الأشغال. وفي الظهيرة أخذني فاروق في نزهة لطيفة. اخترت أن أعيش من أجلهم، لذلك سأفعل ما يريدونه جميعا.

سجّلت بالجامعة الأقرب إلى الحي، توفّر النقل، لذلك لم أكن أفوّت أي حصة تطبيقية أو محاضرة. رغم انشغالي التام بالحياة الحديثة التي لم أعرف نفسي من خلالها، ورغم تواجدي في القاعة مع أكثر من مائة طالب وطالبة، ما كنت أسمعه لا شيء سوى همسات خليل بأذني يناديني. اعتزلت الناس وصددتهم، فقد اكتشفت أن تلك لم تعد حياتي وكم تمنيتها من قبل، شعرت كأني دخيلة في تلك الجامعة والحياة كلها. انسلخت من كل ما أنا عليه، لأجد نفسي ملقية وسط هاته الوجوه التي لا معنى لها.

❖❖❖

كان الوقت ينقضي ببطء شديد، شهرين كاملين بعيدة عن خليل والدنيا بأسرها، أدمجت جسدي معهم، بفمي وكلامي وضحكاتي، إلا أن نظراتي تخونني و تفطّن إليّ الأعين، فهي فارغة تماما، لا تحمل شيء. تذكّرت وأنا في الصف بيوم من الأيام حين أخذني بين ذراعيه أول مرّة، نعم، يوم رحل لأسبوع إلى الفلبين، اشتاق إليّ كثيرا، يومها، بحنا بحبّنا لبعضنا وقرّرنا أننا لن نفترق إلا بالموت. غمرتني المشاعر فاختنقت، شعرت بآلام حادة داخل حنجرتي، لم أرد أن أبكي، لم أبكِ منذ شهرين، لن أفعلها الآن. لذا اعتذرت من أستاذ المحاضر وخرجت.

ركبت في الحافلة المؤدية إلى زرالدة ثم ميناء سيدي فرج، بحقيبتي تلك رحت مباشرة إلى المكان الذي يتواجد فيه يخت خليل. كان خاويا، لا أحد فيه، لابد أن أخيه لم يعبأ لذلك اليخت الذي حمل أجمل ذكرياتي.

اقتربت منه، أمسك بطرفه لأدخل عبر حواجزه الحديدية. كنت على متنه أخيرا، أول ما فعلته هو الدنو من باب الغرفة السفلية، وبطبيعة الحال كان موصد. ضممت كفي حتى أحجب عيني عن النور محاولة النظر إلى الداخل. كان خاويا، إلا أن مخيلتي رقصت وبحثت فوجدت ذكرى عالقة عند زاوية الغرفة، هناك في ذلك المطبخ أهداني هذا الخاتم. نظرت إليه وقبّلته.

صعدت إلى سطح اليخت، ولسبب ما أعجبتني حافته المطلة على البحر، فاخترها زاوية أعلّق بين حدائدها قدماي وأجلس على أرضيتها. تفطّنت في مرحلة ما إلى سجل كنت قد اقتنيته من أجل الدراسة، كنت مستعدّة أخيرا

لأتحدّث وأعبّر عما يدور في خلدي، لم يعد لي أي مهرب غير الكتابة. أفضل طريقة لإعادة خليل إلى الحياة هي أن أكتب شيئا لذكراه، كما أراها، يستحق أن يذكر بحب. شقّت ابتسامة طريقها إلى شفتي، ابتسامة صادقة عندما عرفت كيف ألمس خليل ثانية بعبارات تخترق الزمان والمكان، كأنها آلة تمكننا من استرجاع الأحبّة. لطالما أخبرني أن تاريخ ميلاده ليس إلا يوم لقائنا، يوم رجعت إليه، وبالتالي سأبدأ من هناك.

فقط لذكراه أكتب..

جعلت بعدها من قصة خليل حياتي، أكتب كلّ يوم، أزور ذلك اليخت تقريبا كل مساء وآخذ يوغورتا مع نجية بنهاية الأسبوع لنظل ساعات هناك، هما يلعبان وأنا أتذكّر وأكتب، في الشرفة أكتب، في كل مكان أكتب، عن خليل. ألصق صوره في المراحل التي التقطت فيها، غلّفت السجلّ بالأزرق وزينته بخاتم خطبتنا من فوق، ألصقته ليكون أجمل ذكرياتي على مدى أنفاسي.

أمضيت شهرا وأنا أكتب فيه، أردته أن يخلّف شيئا وراءه، أن أهديه شيئا غريبا، كالتي أحب جمعها، إلا أني سأحتفظ به له عندي. وقبل أن أختم، ضممت إلى السجل رسالات كتبتها له و لم أعرف أين أرسلها، لا البحر يعرف الطريق ولا الطيور، أعلمته فيها كم أحبه وكيف تحوّلت الدنيا من بعده، طلبت منه أن يرجع فلم يعد هناك وجود لعقبة تعيق ارتباطنا، فقد توفيت فراح جدّة يوغورتا، أليس كافيا؟



في منتصف شهر شباط. بينما كانت غرفة المعيشة مزدحمة بسكان أهل البيت، نشاهد التلفاز، فتنطلق ضحكات يوغورتا ونجية على نكتة ما قالها ممثل في مسلسل فكاهي. الباقين بدوا كأنهم نعسى، أمي نائمة بالفعل والعم عمران يراقبها بابتسامة، ثم هناك فاروق الذي ينتظر متى ينتهي البرنامج لتبدأ مباراة مهمة ويشاهدها.

لم يكن وقتا مناسبا لاستقبال زوار، لذلك اندهشنا عند سماع قرع مستعجل على الباب. أمي فطنت وهي تضع يدها على صدرها. بادر العم عمران لفتح الباب برفقة فاروق الذي لم يلبث كثيرا أن عاد ليقول أن امرأة ما تريدني.

- من؟ أنا! لكنّي لست أنتظر أية زيارة ولا أعرف أية امرأة، ربّما هي مخطئة، هل طلبتني باسمي؟

- أجل، أنا متأكد أنها تريدك، حتى أنها ذكرت اسم عائلتك.

- غريب حقا.

لم أكن أتوقع أي شخص، بينما الأسئلة تنفجر في عقلي اتخذت خطوات سريعة إلى الرواق حيث أغلق عمي عمران الباب ليترك شقا بسيطا، قال قبل أن أكتشف من تكون هذه المرأة:

- يا ابنتي نظراتها مريبة، شيء ما ينبئني في داخلي أن وراءها شر، فاحذري منها مفهوم؟

- حاضر!

بفضول رحت أوسع شق الباب، وكانت دهشتي عارمة عندما وجدتها حنان فتاة الملهى!

هتفت قائلة في انفعال:

- حنان ! خير إن شاء الله، ماذا أتى بك إلى هنا؟

- آسفة لإزعاجك، لكنّي مرسلة فقط إليك والله، أعطوني أمرا بالقدوم عندك.

- أعطوك أمرا! من هؤلاء؟

لم أستوعب حتى ما كان يجري. سألتني:

- لا يوجد أي واحد وراءك صحيح؟

تأكدت أن لا أحد يسمع من خلف الباب، قلت:

- اطمئني نحن وحدنا، قولي الآن ما يجري لقد أخفتني.

- هناك جماعة تنتظرك في الحي المجاور.

- ماذا؟ من هم، ولماذا هم بانتظاري؟

- يهددون إذا لم ترافقيهم أنك لن تري أسرتك بعد الآن، تعالي أسيرم معي، إنهم ينتظرون والوقت يمضي.

- مستحيل، لن أرافقك طبعا، لن أذهب إلى أي مكان بصحبتهم.

- أرجوك لا تثيري فضيحة الآن، إنهم خطيرون وجدّيون، لن يدعوك وشأنك وعائلتك كذلك ستعاني، تعلمين، رافقيني بهدوء من فضلك.

عائلتي! ثانية! ألن أرتاح يوما؟

سألتها:

- ماذا عنك؟ هل ستكونين معي؟

- يا أختي سأحاول، إذا سمحوا أرافقك، لم لا؟ فخليل كان عزيزا على قلوبنا وأنت منه، لطالما صرح عن هذا.

من الأرجح أني لن أفلت من الموقف بسهولة. جعلتها تنتظرني عند الباب لأطلع الباقين بخروجي، ونظرا لتأخر الوقت استغرب العم عمران خروجي الذي سألني:

- في هذا الوقت تخرجين يا ابنتي؟

تصنعت ذريعة في الحال:

- للأسف أم رفيقتي التي تسكن في الحي المجاور تعاني من مرض ما تحتاجني من أجل حقنها اليومية، يبدو أن ممرضتها خلفت موعدها اليوم، وتعلم أنه أمر أستدعى كثيرا لأجله في مثل هذه الحالات.

- حسنا، يرافقك فاروق.

- لا، ليس ضروريا، فهي معي، سترجعني بنفسها، لا تقلقوا.

زفر العم عمران:

- أعلم أنك لن تتنازلي ولن تغيّري رأيك، لكن خذي هاتفك، ولا تطفئيه أرجوك.

أضافت أمي بقلق:

- إيه نعم يا ابنتي، خذي هاتفك.

- حاضر.

كان الحي غارقا في عتمة الليل الذي سقط فجأة، ولم تبلغ الإنارة زواياه الأكثر إنذارا بالخطر، حيث تشعل منها أعين حمراء تراقب الوافدين والخارجين، وأفواه تنطلق منها همسات خالية من المعنى. كنت أتبع حنان بخطوات تكاد تكون عدوا، إلى درب محاذ لحيّنا، حيث تنتظر سيارة أشارت حنان إليهم بيدها أننا وصلنا. من شدّة خوفي أمسكت بيدها لتواسيني.

قالت مطمئنة:

- لا تخافي.

- ليس بيدي.

لو يقتلوني لما حفلت، لو يرموني في بلاد غريبة لما اكترثت، كنت أخشى أن يحوّلوني إلى حنان أو يقتلون عائلتي وحسب.

عند باب السيارة وقف رجل، كان يحرك بين أصابعه مفاتيحا في كل الاتجاهات، وعندما بلغنا موقعه فتح لي الباب. كنت في حالة ارتباك كلي، من فرط الرهبة التي كنت أشعر بها، انسحب الضجيج في عقلي وما يظل إلا صوت الفراغ يردد صدى دقات قلبي. انزلقت داخل السيارة وعندما كانت حنان ستتبعني أمسك كتفها.

قال بينما كان ينظر إليها بنوع من الاحتقار:

- نريد الفتاة فقط، أنت عودي إلى بيتك.

- سأرافقها.

بلهجة خشنة قال:

- ألا تسمعين قلت غادري الآن، نحن أتينا من أجلها ليس من أجلك.

خشيت أن آخذ المرأة معي إلى الهلاك، فقلت:

- لا بأس حنان.

ثم التفت إلى الرّجل:

- على الأقل أخبروني إلى أين تأخذونني؟

- سنطلعك ۓ الطريق.

رددت حنان دعاءها:

- ربي معك يا أختي.

عبرت عيناها عن شفقة شقّت أنفاسي، لأنها تعلم مثلي تماما أن لا خيرا قد يصدر من رحلة غامضة، مع رجال مجهولين.

15

انطلق الرجل، و بعد عشرة دقائق من الهدوء، سألتهما بتردد:

- أين تأخذاني؟ أطلعوني الآن أرجوكما، أعتقد أنه وقت مناسب لأعلم أين سأذهب.

استدار إلي الرجل الذي يجلس إلى جانب السائق:

- ليست لنا نية إيذائك، لذا لا تخافي. هناك من سمع عنك الكثير، ويريد أن يرى المرأة الأسطورة التي جعلت كابوني يمدّها بحياته، فالجميع يتحدّث عن قصّتكما، ورئيسنا دفعه الفضول ليأتي بك عنده.

رمقني بنظرة استطلاع، ليعلّق:

- ليس بك أكثر مما بالبنات،أنت جميلة صحيح، لكن ليس لهذا الحد.

نطق الشاب بجواره:

- دع آراؤك لنفسك من فضلك.

سأله:

- ماذا قلت؟

- أقول لك اصمت وانتهى، مهمّتنا إيصالها لا أن نجاذبها أطراف الحديث والتعليق على شكلها، كما أنها تخصّ كابوني، أنت لا تعرفه لكني لن أسمح لك بالتقليل من احترام ما يخصّه، مفهوم.

- أعتذر، آسف على الازعاج يا آنسة.

كان السائق يرمقني بنظرة خاصة متبوعة بابتسامة ، أعطتني نوعا من الطمأنينة والنزعة إلى الشعور بالأمان. عدت إلى صمتي الأول في انتظار وجهتي الأخيرة في هذه القصة، وجهة مجهولة، فقد كنت واقفة في مفترق الطرق منذ فترة، كنت بحاجة إلى خاتمة.

أراهن في داخلي لو كان خليل موجود لأحرق الدنيا بمن فيها، لسيّل وديان وغيّر مجاريها، لأنهى الطريق بصرخة يطلقها، وارتعشت الأصوات قبل أن تردّ لزئيره بأنيابها، وما كنت كالحمل الضعيف يجري في البراري بين أسنان الذئاب معلق. الخليل رحل فظل الكبرياء والكرامة والبراءة ليس عليها نقاط وفواصل، عليها الرحيل، عليها العويل.

نصف ساعة قد انقضت قبل أن نبلغ أحد المواقع الخالية، في منطقة كانت غير مألوفة بالنسبة لي. شأن العبد المغلوب أمره كنت أشاهد في ما تبقى لي من فضول تفاصيل ما وصلني من المكان، فقد هزّتنا الطريق ومخضتنا في عنف، مهما كان يبطء السير لم يخفض من حدّة الموقف. كلّما تقدّمنا كانت الطرقات تضيق وتصبح أوعر من ذي قبل. لم يعد هناك ولا هوة واحدة وراء تلك البوابة الكبيرة، التي تخفي وراءها أنوار مبعثرة في المكان الذي بدا وكأنه مزرعة يتوسطها بيت قديم يبدو مهترئا مبني بالحطب يحوم حوله عدد معتبر من السيارات.

كانت الدهشة آخذة مني مأخذها، فالأحداث المتسارعة حالت بيني وبين التركيز. لم أستوعب إلا بعد وهلة أنّ محرّك السيارة قد أطفئ. كانت بحّة صوت السائق هي التي أرجعتني من التفكير الذي كنت غارقة فيه، أخبرني أنه حان موعد النزول.

أذعنت مجبرة لأمره، وبينما نمشي معا جنبا إلى جنب:

- أخي من فضلك أخبرني شيئا. إنهم سيقتلونني أم يمتنعون فقط صحيح؟

ردّ بابتسامة:

- لا أعتقد بأن أيا مما تعتقدين سيحصل، تعالي.

أقبلنا بخطوات مستعجلة نحو ذلك المنزل ذي الطابقين، عندما انتبهت إلى شخص أخذ منّي هدية عوضتني بها الحياة، مهما مثلت للآخرين سوءًا ناطقا. كان سعيد دون غيره الذي أطلق النار على خليل متكئ على سيارته رفقة رفاقه، يتواصل مع أحدهم عبر الهاتف. ثم لا تلبث أن تخرج نفسي عن السيطرة في حالة من الغضب العارم، أسابق الرياح إليه متبوعة بالسائق الذي أقلّني، لربما اعتقد أنه محاولة هرب بائسة من امرأة يائسة.

لم يكن في استطاعتي الإبقاء على هدوئي، وكم استفزّتني ابتسامته في وجهي عندما لمحني، وقتها كان قد أغلق الخط، ربما ليتحضّر للقائي كما يليق. قبل أن أصل ببضعة أمتار هتفت بأعلى صوت:

- عندك وجه تقابلني به، وتزيد تضحك.

اقتربت أكثر منه وصفعته على وجهه:

- وغد، كيف تستطيع الضحك وقد أنهيت بيديك رفيقك.

لحظتها لحق بي الشاب الذي أتى بي، ثم قال بصوت خفيض وهو يدفعني برفق بعيدا:

- كفى، كفى.

التفت إلى سعيد وواصل معتذرا:

- آسف، لم أكن أعلم أنها ابتعدت عني.

راح يجرّني من ذراعي باتجاه المنزل، وأنا أستدير إلى سعيد، الذي بقي صامتا وهو يبتسم فقط، أغضبني جدا، فرحت أصيح ثانية:

- اعتبرك أخا له، الآن ولاؤك أصبح لغيره؟ وتضحك؟ على الأقل أخبرني أين هو؟

حينها هزّ رأسه، مشيرا إلى البيت الخشبي الكبير والرث. وجدت إشارته غامضة، لأتطلّع به متسائلة إلى أن صعب عليّ متابعة مراقبته، فقد كان الشاب يسحبني من ذراعي.

عتمة المنزل في الداخل لم تخفني مطلقا، كنت لازلت تحت تأثير الغيظ من سعيد، ولكن ذلك لم يمنعني من مراقبة المكان بتمعن، وكلما توغلنا كان يزيد المشهد غرابة. كانت هناك غرفة تبدو مشروع حجرة ضيوف غير مكتملة، استغلّها الشباب للعب الدومينو، لعلّهم يقتلون الوقت قبل أن يكلّفوا بقتل أحدهم، ربّما أكون مهمتهم المقبلة، دفن جثّتي في مكان مجهول.

من الرواق العائم في زخرفات ورقية عتيقة أكلها العفن انتقلنا إلى السلالم التي كانت تصدر أصواتا احتكاك أقدامنا بها، كأنها ستنهار في أي وقت. توقفنا في الطابق الثاني عند إحدى الغرف التي ينزلق من تحت بابها نور خافت، ولسبب لا أدركه قلبي انفجرت نبضاته تتسارع من شدّة الخوف، كأن البداية والنهاية توجد خلف تلك الباب الموصدة.

خلّفني الشاب لبعض الوقت حتى يدخل، سمعته يسأل أحدهم:

- لقد وصلت، هل أدخلها؟

لم أستوعب الصوت المقابل، فعاد الشاب وقال بابتسامة على وجهه:

- تفضّلي

وقبل نزوله، أضاف:

- أعتذر إذا بدر مني شيء ضايقك.

كان الوضع برمّته يدعو إلى التعجب، زاد من حيرتي تعامل الشاب المميز معي، فلم أعد أدري إن كنت مخطوفة أم حرّة. دوّرت مقبض الباب ودفعته شيئا فشيئا مستكشفة كل شبر من المكان، بالإضافة إلى رغبتي في ربح بعض الوقت حتى يهدأ قلبي. كان خاويا من أي بشر، المكان لا يحتوي إلا على مكتب وسرير وأريكة.

حاولت ضبط رعشة صوتي ولكني لم أفلح:

- أنا هنا ماذا تريد منّي؟

وقتئذ همس صوت يكاد يكون ملائكيا يدخل من الشرفة، مجيبا:

- كلّ ما لديك.

وكأنه صوت السجل، أو أكثر، كأنه صوت خليل نفسه. اعتقدت أني خطوت أول خطواتي نحو الجنون لكنها في الواقع حملتني قدمي بلهفة نحو الشرفة. عندما ظهر لي بشكل واضح وهو يفتح الستائر ليدخل، كاد يغمى

عليّ. أقنعت نفسي أنه لم يكن سوى نوع من الخيال، فحملت جسمي الثقيل وهربت إلى البهو بينما تسكب عيناي قدر هائل من العبرات.

بقيت أردد:

- غير ممكن، غير ممكن، أنا أحلم.

إلا أن الحلم بقي يراودني، يلاحقني من خلفي وينادي باسمي ويعزّزني:

- أسيرم، عزيزتي أسيرم.

جلست خارج باب الغرفة مغطية وجهي متكئة على الحائط بعدما أنهكتني المفاجأة، أحكّ عيني. شعرت به إلى جانبي، فتحطّ على خدي قبلة دافئة بينما يهمس في أذني:

- دعيني أرى عينيك، اشتقت إلى فنجاني القهوة.

- خليل، أنت حقيقة؟

لمست وجهه أصابعي، لأتحقق منه:

- يا ربي، إنك فعلا أنت.

خضعت في البداية لمشاعري، كنت ضعيفة أمامها، كيف لا وأنا التي وقعت في بئر اليأس من قبل بعد فراقه المرير. رضخت لعناقه أول الأمر، حتى تفطنت للأمر وتراجعت إلى الوراء، دفعته دون الاهتمام لمرضه الذي يبدو أنه يعاني منه، إذ اكتشفت أنها كانت سعادة موهومة:

- لا تقربني، لا تلمسني.

قبل أن أخطو خطوة مبتعدة، عارض تقدمي بمده إلي يده متضرعا:

- اسمحي لي بأن أشرح لك موقفي.

- إياك أن تعيق رحيلي. يا خسارة، استكثرت عليّ حتى رؤيتك؟ رميتني في الجحيم بينما كان بيدك أن تنهي آلامي كلّها باتصال، راميًا عرض الحائط معاناتي وقهري عليك.

أبعدت يده لأواصل طريقي. لم أتجهز لعناقه الطويل من الخلف، كانت وسيلته الوحيدة لجعلي أبقى:

- الجحيم الحقيقي هو الذي عشته أنا أسيرم، فجحيمك أرحم.

- دعني من الكلام، كرهت الكلام الفارغ.

تأوه من الألم ثم تابع متوسلا:

- أسيرم لا تتعبيني من فضلك، كان عزائي الوحيد بقدومك اليوم لتشفي جراحي، أنا منهك، لا تغادري الآن.

بصعوبة كبيرة استطعت أن أعتق جسمي المربوط بين ذراعيه النحيلتين، الأمر الذي دفعه للميل قليلا إلى الوراء، كأن قوته ضعفت، كان في حالة يرثى لها. عندها كأنما أحد ما صفعني. صحيح أني لا أكاد أعرفه، وأخفى عني خبر نجاته من الموت، ولكنّه قدّم حياته قربانا ليبقي على حياتي، كاد يموت بسببي.

تسمرت مكاني لوهلة قبل أن أستدير إليه وأنظر إليه بعطف:

- ألم يكن بمقدورك إعطائي أمل على الأقل؟

أغلق عينيه كأنه يتألّم، فسألته ما به. أجاب قائلا:

- دعينا نذهب إلى غرفتي، عليّ أن أظل مستلقيا.

حتى التنفس بدا عسيرا عليه. وضعت ذراعه فوق كتفيّ ورحنا نمشي جنبا إلى جنب:

- أنت بخير خليل أخبرني الآن ما الذي يحصل معك؟

- أنا بخير لا تجزعي، أحتاج للاستلقاء أياما بعد لأستعيد صحّتي تماما، إنها وعكة بسيطة سأنجو، ثم أرجع إليك كما تعوّدت عليّ.

عندما ساعدته على الاستلقاء:

- ظلك كان ليكفي.

ابتسم وقال مازحا:

- ولم يبق لكِ غيره.

- كان ليكفيني، كان ليكفي خليل.

تأوه، فسألته:

- أيؤلمك شيء ما؟

تذكّرت كم كنت في حاجة إلى تلك التطلعات، حيث أشعر كأنه يرغب في التهامي بمجرد أن ينظر إليّ. أجاب:

- هذه السنتمترات التي تبعدنا، هي التي تؤلمني.

قبّلت يده قبل أن أجلس إلى جانبه:

- كم أنت قاس يا خليل، كل هذا الوقت.

مسك رأسي ليقبّله مرارا ويغرس جذور أصابعه حولي، كأني شجرة تخصّه ودونها لن يعيش. بقينا في صمت، نستعيد القوة التي استنزفناها عبر أشهر لم تمرّ عليّ أطول وأمرّ منها. بين الحين والآخر يرفع وجهي عن صدره ليراني، والدموع تملأ عيني والشهقات تخرج من أعماق محيط قلبي، أبكيه، أبكي من عاد إلى الحياة، فلم أبكه وهو ميت، الآن أخرج يا أملي.

بعدما هدأ الوضع، ببقايا الدمعات المتدفقة على خدي سألته:

- الآن أطلعني بما ينقص في الحكاية.

أمسك بخصلة من شعري، وبعد تفكير أجاب:

- لقد علم سعيد أنك تعاونت مع العدو، أحد رجال شعبان أوهمنا أنه أصبح معنا ولكنه في الواقع مجرد مندس، أطلع سعيد بأنك سلّمت شعبان وثائق مهمة، أخذتها من الخزنة، ودون أن يرجع إلي اتخذ قرار تصفيتك حتى يحميني. كان يجهل أنك تخليت عن الموضوع منذ زمن بعيد ، تبينت في الأخير لعبة شعبان، فقد استغلّك دون تفكير في مصيرك ومصير أخيك. عندما أفكر فيما كان سيحصل، أجن يا أسيرم أجنّ بحق.

- وماذا حصل فيما بعد؟

- كل ما حصل هو أني نقلت إلى عيادة خاصة، تكتم أسرارنا بطبيعة الحال، بعد ثلاثة أيام وجدت نفسي خارج الوطن. أردتك إلى جانبي لكن سعيد أقنعني بحججه أنه من الأفضل لنا إبقاء أمر نجاتي طي الكتمان إلى أن نحل الوضع.

- لماذا امتنعت عن العودة من أجلي بعدما شفيت إذن؟

- في الواقع تحرينا من جهتنا، وتبين لنا أنه لم يحصل على نسخة من أي شيء قد يديننا.

- لست أفهم، لماذا تحتفظ بما قد يدينك؟

- إنها أمور تخص العمل، أنت لا تشغلي بالك.

- وهل يبحثون عنك الآن؟

- اليوم عدت من الخارج بعدما تأكد لنا أنه لا توجد أية مشكلة قد تورّطني، وأردت أن أراك أول شيء، حساباتي لاتزال طويلة وأنت لازلت سلاحا يستغل ضدي، لهذا سامحيني على ما سأفعله.

- لا تقل أنك ستغادر ثانية؟

لم يجب عن سؤالي، لكنه قال مصرّحا:

- أتعلمين كيف بقيت صامدا طوال هذا الوقت؟ ساعدتني أخبارك، صورك ورؤيتك تمرّين عبر ذلك المرفأ تتسللين كالماكرة إلى اليخت.

- كيف علمت بهذا؟

- لم أكن لأسمح لسعيد أن يبقيني بعيدا لو لم يأتني بكلّ تفاصيل أخبارك.

سحب ابتسامته بعد أن قدّم لي الماء لأشرب ويتناول ما تبقى منه بعدما شبعت، سألته:

- كان بإمكانك أن تطلعني أنك بخير ولو برسالة مع شخص.

- لقد كنت مراقبة حتى أن شعبان تأكد منك أني ميت، لم أشأ إدخالك في هذه الدوامة، كان عليّ أن أحل كل شيء حتى ألقاك، وهو لحد الآن لا يعلم أني كشفت لعبته ولم أمت، أريد مفاجأته.

استلقى لينام، ثم سألني بينما تعبره نظرة تحمل معنى:

- ماذا كنت تكتبين على اليخت؟

جذبني من ذراعي لأحذو حذوه وأستلقي إلى جانبه، رأسي فوق ذراعه، تابع قائلا:

- أخبريني أسيرم، قولي عزيزتي.

- إنه في حقيبتي، فهو يلازمني أينما ذهبت، وما كنت لأهجر الدنيا وهو بعيد عنّي، أتريدني أن أقرأه لك، فهو يتحدّث عنك وعنّي.

- هل سيخبرني عنك الكثير؟

- أجل.

- ويقول عني بلسانك الكثير؟

- الكثير.. الكثير..

- إذن اقرئيه واجعلي قلبي لكلماته بئرا وامحي كل لحظة مضت دونك مريرة، اقرئي أسيرم أسمعك يا عزيزة.

أخذت السجلّ وبدأت أقرأ، كأنها أول مرّة بين طياته. أبكي مع كل حرف كتبته وأبتسم وأغضب، منه وعليه، ثم وببساطة أحبه. يسألني بين الفواصل عن معلومات لم تذكر، تلك التي امتنعت عن رويها، احتاج إلى التفاصيل الدقيقة، والليل أخذنا، عبر أحاسيس ممزوجة مزيج الحروف، وكم كانت كثيرة، ألوفا ألوف.

قال وقد رسيتا عينيه عليّ كحبتي لؤلؤ تجمّلان وجهي وتشرقان عليه بعد غروب طويل:

- تريدين أن تعرفي ما شعرت به؟

- أجل، طبعا، لو أمكن.

كان النعاس قد بدأ يغلبني، عندما قال:

- أعطني قلما، أعرف قصيدة لست من كتبها لكنّها تلخّص قصّتي معك.

سلّمته القلم، وراح يكتب بخطّ جميل:

أحبّك جدا..

وأعرف أني تورطت جدا..

وأحرقت خلفي جميع المراكب..

وأعرف أني سأهزم جدا..

برغم ألوف النساء..

ورغم ألوف التجارب..

أحبك جدا..

وأعرف أني بغابات عينيك وحدي أحارب..

وأنني ككل مجنون حاولت صيد الكواكب..

وأبقى أحبك..

رغم اقتناعي بأن بقائي إلى الآن حيا أقاوم نهديك..

إحدى العجائب..

أحبك جدا..

وأعرف أني أقامر برأسي..

وأن حصاني خاسر..

وأن الطريق لبيت أبيك محاصرة بألوف العساكر..

وأبقى أحبك..

رغم تيقني بأن التلفظ باسمك كفر..

وأني أحارب فوق الدفاتر..

أحبك جدا..

وأعرف أن هواك انتحار..

وأني حين سأكمل دوري سيرخى عليّ الستار..

وألقي برأسي على ساعديك..

وأعرف أن لن يجيء النهار..

وأقنع نفسي بأن سقوطي قتيلا على شفتيك انتصار..

أحبّك جدا..

وأعرف منذ البداية أني سأفشل..

وأني خلال فصول الرواية سأقتل..

ويحمل رأسي إليك..

وأني سأبقى ثلاثين يوما..

مسجى كطفل على ركبتيك..

وأفرح جدا.. بروعة تلك النهاية.

ارتطام السجلّ بالبحر عندما وقع مني أيقظني بهلع من غفوتي فوق اليخت. تبعته دون تفكير لأنقذ ما تبقى لي من ذكريات. على سطح اليخت رحت أقلّب الصفحات، كانت كلّها فارغة، لم يلطّخ يوما ولو بقطرة حبر، تأملت الموقع بنظرات يائسة، وقتئذ وجدت قطعة ورق داخل قارورة زجاجية عند

الزاوية. عندما فتحتها كانت القصيدة التي كتبها لي خليل مشقوقة من سجل. وفي حيرة تامة، حملت نفسي بثيابي المبللة، ورجعت إلى البيت على أمل قاتل في أن يطل القمر ذات ليل.

تمت

❖ ❖ ❖



إذا كان لديك إقتراح أو رأي بخصوص الرواية، يمكنك مراسلة الكاتب على هذا الإيميل:

amel.elkatil@gmail.com

***

للتواصل مع المصمم

سمير محرز

galaxyteam.dz@gmail.com

www.facebook.com/gtdz.8

